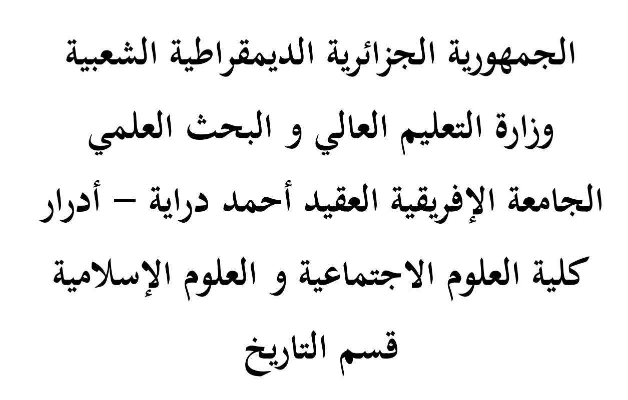


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية – أدرار

كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية

قسم التاريخ

المستكشفون الأوربيون في غرب إفريقيا

بين الاستكشاف و الاستعمار من نهاية القرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلاديين

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ

تخصص: التاريخ الإفريقي الحديث و المعاصر

إعداد الطالب:

أحمد عباد

إشراف الأستاذ:

الدكتور/ عبد الكريم بوصفصاف

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم و اللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
عيسى قرقب	أستاذ التعليم العالي	رئيساً	أدرار
عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي	مقرراً و مشرفاً	أدرار
شايب قدادرة	أستاذ محاضر "أ"	عضواً مناقشاً	قالمة
أحمد جعفري	أستاذ محاضر "أ"	عضواً مناقشاً	أدرار

السنة الجامعية 1431–1432هـ / 2010–2011م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية – أدرار

كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية

قسم التاريخ

المستكشفون الأوربيون في غرب إفريقيا

بين الاستكشاف و الاستعمار من نهاية القرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلاديين

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ

تخصص: التاريخ الإفريقي الحديث و المعاصر

إعداد الطالب:

أحمد عباد

إشراف الأستاذ:

الدكتور/ عبد الكريم بوصفصاف

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم و اللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
عيسى قرقب	أستاذ التعليم العالي	رئيساً	أدرار
عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي	مقرراً و مشرفاً	أدرار
شايب قدادرة	أستاذ محاضر "أ"	عضواً مناقشاً	قالمة
أحمد جعفري	أستاذ محاضر "أ"	عضواً مناقشاً	أدرار

السنة الجامعية 1431-1432هـ / 2010-2011م

إهداء

أهدي هذا البحث المتواضع إلى كل أفراد عائلتي، و إلى كل أساتذة قسم التاريخ بالجامعة الإفريقية في أدرار. كما أهديه إلى كل طالبي العِلم بالجزائر.

شكر و تقدير

أتقدم بشكري الخالص إلى كل أساتذة قسم التاريخ بالجامعة الافريقية في أدرار، و بالأخص إلى الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف الذي أشرف على انجازي لهذا البحث و اخراجه وفقاً للمعايير الأكاديمية.كما أخصُّ بالذكر كذلك الأستاذ الدكتور الطاهر دراع الذي قدَّم لي العديد من التوجيهات و الارشادات التي أفادتني كثيراً.و لا أنسى التوجه بالشكر الجزيل إلى كل موظفي المكتبات و مراكز البحث في الجزائر و المغرب الأقصى، و التي سهلت لي المهمة في الحصول على المراجع.

تعتبر الكشوف الجغرافية من أهم المحطات في تاريخ غرب إفريقيا خلال العصر الحديث، و ذلك بالنظر إلى ما خلّفته من تحولات كبرى في هذا الجزء من إفريقيا، و من بعده في بقية الأراضي الإفريقية.و كذلك الأثر الذي تركته على نظرة أوربا – التي كانت تحمل لواء الكشوف الجغرافية في جميع أنحاء العالم – إلى القارة السمراء، حيث أن الأوربيين عرفوا القيمة الحقيقية لإفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي (19م) فقط، على الرغم من أنهم وصلوا إلى سواحلها منذ القرن الخامس عشر الميلادي (15م).

و يُنظر إلى الكشوف الجغرافية في إفريقيا على أنها كانت مقدمة للاستعمار الأوربي في هذه القارة، و أصبح هناك تداخل بين مسألتي الاستكشاف و الاستعمار خاصة مع بداية الكشوف الجغرافية الأوربية في الأراضي الداخلية الإفريقية مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، و هي الفترة التي شهدت ظهور الثورة الصناعية في أوربا، و التي دفعت الأوربيين للتطلع إلى مختلف مناطق العالم خاصة قارة إفريقيا القريبة جغرافياً، و ذلك من أجل الحصول على المواد الأولية اللازمة للصناعة و فتح أسواق جديدة.و يعود سبب هذا التداخل إلى أن إفريقيا مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، أي بعد قرن من بداية الكشوف الجغرافية في أراضيها الداخلية، ستسقط كلية تحت الاستعمار الأوربي الذي جاء بعد أكثر من أربعة قرون من بداية التواجد الأوربي على السواحل الإفريقية.

و تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يلقي الضوء على فترة مهمة من تاريخ غرب إفريقيا، حيث أنه يتعرض لمختلف جوانب التغلغل الأوربي في هذه المنطقة، و يُبرِز نتائجه.و هو مساهمة في الدراسات المهتمة بتاريخ غرب إفريقيا في العصر الحديث، خاصة تلك التي تهتم بدراسة الحضور الأوربي في المنطقة.

<u>أسباب اختيار الموضوع</u>: وقع اختياري على هذا الموضوع لعدة أسباب منها:

1- لما كنت أدرس في السنة الأولى ماجستير، استهواني تاريخ غرب إفريقيا بما فيه من أحداث و علاقات بين إفريقيا الغربية و دول أوربا الباحثة عن الثروة و النفوذ، فأردت أن أعرف الظاهرة الاستعمارية في إفريقيا من جذورها .

2- بحكم وجودي في وسط الصحراء الجزائرية القريبة من حدود بلدان إفريقيا الغربية، تصورت سهولة الحصول على المصادر و المراجع المتعلقة بالموضوع.

3- الوقوف على نقاط التقاطع بين موضوع الاستكشاف في غرب إفريقيا و التواجد الفرنسي في الجزائر، من خلال محاولات الفرنسيين استكشاف هذه المنطقة و معها الصحراء الكبرى أملاً في الربط بين مستعمراتهم في غرب إفريقيا و الجزائر. و هنا وجدت فرصة للتعرض، و لو بالإشارة فقط، لجزء من تاريخ الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي عندما تحدثت عن بعض المستكشفين الاستعماريين الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي (19م).

4- اطلاعي على بعض المستكشفين الذين قرأت يوميات رحلاتهم، جعلتني أحمل التقدير لهم في ما يتعلق بإصرارهم على بلوغ أهداف رحلاتهم، و ذلك رغم الصعوبات التي واجهوها و المخاطر التي كانت تُهدِّد حياتهم، و الأخذ من إرادتهم و مغامراتهم في عملي البحثي.

5- منذ صغري كنت دائماً أميل إلى علم الجغرافيا خاصة ما يتعلق بمعرفة أسماء المناطق و البلدان و الأنهار و مختلف التضاريس في مختلف أنحاء العالم، فوجدت في هذا الموضوع فرصة لتحقيق هذه الرغبة، لأن الكشف الجغرافي يعني حتماً التعرف على جغرافية المناطق المستكشفة.

إشكالية الموضوع:

إن الحديث عن الاستكشاف الجغرافي الأوربي في غرب إفريقيا ما بين القرنين الثامن عشر (18م) و التاسع عشر (19م) الميلاديين، و هي الفترة التي ظهرت فيها الثورة الصناعية بأوربا و احتل فيها الأوربيون القارة الإفريقية، يطرح إشكالية غاية في الأهمية تتمثل في الاستفهام حول العلاقة الموجودة بين حركة الاستكشاف الجغرافي في غرب إفريقيا في الفترة نفسها و سقوط هذه المنطقة تحت نير الاستعمار. إن هذه الإشكالية متشعبة كثيراً، و تحمل لدى الباحثين الكثير من التساؤلات هي:

- هل الثورة الصناعية في أوربا، و التي بدأت في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، هي التي دفعت إلى استكشاف إفريقيا من أجل تقييم ثرواتها و إبراز كيفية الاستفادة منها لخدمة حاجيات الصناعة و الاقتصاد الأوربيين؟.
- هل الحركة الاستكشافية الجغرافية الأوربية في غرب إفريقيا، التي بدأت مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، كانت حركة علمية خالصة و خالية من أي أهداف استعمارية؟.
- ما الذي فعله المستكشفون الأوربيون حتى انتبهت الحكومات الأوربية إلى قارة إفريقيا، و أدركت ضخامة الفرص التي توفِّرها للاقتصاد الأوربي؟.

- هل سهَّل المستكشفون المهمة أمام استعمار إفريقيا بما قدموه من بحوث و معارف عن القارة؟.
- هل كان كل المستكشفين على نفس المستوى في حث و تحريض بلدانهم على احتلال غرب إفريقيا؟.

إطار البحث:

يتناول هذا البحث دراسة موضوع الاستكشاف الجغرافي في منطقة غرب إفريقيا، في الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر (18م) إلى نهاية القرن التاسع عشر (19م) الميلاديين.و تعتبر هذه الفترة ذات أهمية كبرى سواءً في أوربا أو في إفريقيا.فعلى الصعيد الأوربي، عرفت هذه الفترة ظهور الثورة الصناعية التي دفعت بالدول الأوربية إلى التحرك في مختلف أرجاء العالم من أجل تحقيق مصالحها الاقتصادية التي فرضتها الثورة الصناعية خاصة ما يتعلق منها بالحصول على الثروات الطبيعية.و الحقيقة أن الثورة الصناعية ظهرت في أوربا ضمن جو عام ساد القارة، ميزه الاندفاع إلى المعرفة بصفة عامة، و منها المعرفة الجغرافية، و هو الأمر الذي دفع بحركة الاستكشاف الجغرافي إلى الانطلاق من جديد، مستهدفة مرة ثانية القارة الإفريقية بسبب قربها الجغرافي من أوربا و غناها الطبيعي.

أما بالنسبة لإفريقيا، فإن هذه الفترة تعتبر من أبرز الفترات التاريخية لها، و هي الفترة التي ميزها نوع من التناقض.ففي الوقت الذي كانت تتطلع فيه، مع بداية هذه الفترة، إلى الانعتاق من العبودية و الاسترقاق اللذين عانت منهما لقرون، و هذا نتيجة ظهور الحركات المناهضة للرق بأوربا و استجابة الدول الأوربية لمطالب هذه الحركات، وقعت القارة السمراء في عبودية جديدة هي الاستعمار الذي أحكم سيطرته على القارة مع نهاية هذه الفترة.

مناهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث بالأساس على مجموعة مناهج، أولها: هو المنهج الوصفي الذي وظفته في وصف الأحداث التاريخية، و تتبع مسارات الرحلات الجغرافية من انطلاقتها إلى نهايتها، و الاكتشافات التي حققتها.

ثاني المناهج هو المنهج التحليلي الذي طبقته في تحليل المادة المعرفية.

المنهج الثالث هو المنهج الاستنباطي أو الاستنتاجي، و الذي استنبطت به بعض الحقائق و النتائج التي توصلت إليها بعد الوصف و التحليل سواء على مستوى الفصول أو على مستوى خاتمة البحث.

أما المنهج الرابع و الأخير فهو المنهج المقارن الذي اعتمدته في مقارنة الأحداث التاريخية و رحلات المستكشفين و النتائج التي حققتها.

و هذه المناهج جميعها تندرج ضمن مناهج البحث في مختلف العلوم الإنسانية و الاجتماعية، و التي يستعملها كل من خاض البحث التاريخي.

صعوبات البحث:

أثناء البحث واجهتني عدة صعوبات، و هذا تطلب مني الكثير من الجُهد للتغلب عليها. و أبرز هذه الصعوبات:

- الحصول على المصادر و المراجع، حيث أنني و بعد أن تجولت في بعض المكتبات الجامعية و العمومية الوطنية، وجدت أن المصادر و المراجع التي تناولت هذا الموضوع قليلة و مُشتتة بين مكتبات و مناطق جزائرية متباعدة، كما أن حصولي على بعضٍ من هذه المراجع تطلَّب الكثير من العناء بسبب بعض العراقيل التي تضعها هذه المكتبات، مما دفعني للسفر خارج الجزائر، و بالتحديد إلى المغرب الأقصى، من أجل الحصول على المراجع و المصادر التي أحتاج إليها، و الحمد لله وُفِّقت في تحقيق نسبة مهمة من هدفي.
- إن موضوع الاستكشاف يعني الحديث عن المناطق و الجبال و الأنهار و البلدان و المدن، و تطلّب مني جُهداً للحصول على المراجع و المصادر و الخرائط التي تساعدني في تحديد كل هذه التضاريس و المدن، و ذلك من أجل تحديد و تدقيق مسارات الرحلات الاستكشافية، و فهم الموضوع بصفة عامة.
- وجدتُ أحياناً خلطاً في تواريخ بعض الرحلات و الاستكشافات بين بعض المراجع التي اعتمدتها في هذا البحث، و هذا ما دفعني إلى بذل جهد إضافي لتدقيق هذه التواريخ قدر الإمكان.

الدراسات السابقة للموضوع:

أثناء قيامي بالبحث عثرت على الكثير من الدراسات التي تعرضت لموضوع الاستكشاف الجغرافي، سواءً منها العربية أو الأوربية، و في نفس الوقت وجدت دراسات كثيرة تعرضت للحركة الاستعمارية بالدراسة و التحليل.لكنني، و في حدود بحثي، وجدت نُقصاً في الدراسات التي اهتمت بموضوع العلاقة الموجودة بين الحركة الاستكشافية الجغرافية و الحركة الاستعمارية.و أشير هنا إلى أنَّ هذه الدراسات التي تناولت الحركتين الاستكشافية و الاستعمارية قد أفادتني كثيراً في استخلاص نقاط التقاطع بين الكشوف الجغرافية و التغلغل الاستعماري الأوربي في إفريقيا.

و من هذه الدراسات التي حصلت عليها:

1- Coquery-Vidrovitch, Catherine : La découverte de l'Afrique, L'Harmattan, Paris, 2003.

2- De la Richarderie, G.Boucher : Bibliothèque universelle des voyages, Slatkine reprints, Genève, 1970.

3- جوزفين كام: **المستكشفون في إفريقيا**، ترجمة السيد يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1983.

3- عيسى علي إبراهيم: **الفكر الجغرافي و الكشوف الجغرافية**، دار المعرفة الجامعية، 2000.

4- يسري عبد الرازق الجوهري: **الكشوف الجغرافية دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية و لتطور الفكر الجغرافي**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984.

أهم مصادر البحث و مراجعه:

بحُكم أنني في موضوعي هذا قد تناولت المستكشفين الأوربيين، فإن أهم المصادر التي اعتمدت عليها هي يوميات هؤلاء المستكشفين التي ذكروا فيها أخبار و تفاصيل رحلاتهم يوماً بيوم ابتداءً من التفكير فيها و تحديد أهدافها و الاستعداد لها إلى بداية الرحلة الفعلية وصولاً إلى النهاية.

لقد تمكنت من الحصول على مذكرات أغلب المستكشفين الذين تحدثت عنهم، و أبرزهم "مونجو بارك" و "رونيه كاييه" و "ريتشارد لاندر"، الذين يمثلون مرحلة الاستكشاف العلمي، و "ليوبولد بانيه" و "إياسنت إيكار" و "سيمون غالييني" و "بارفي-لويس مونتَيْ" و غيرهم، الذين يمثلون مرحلة الاستكشاف السياسي و الاستعماري.و قد أفادتني هذه

المصادر كثيراً في معرفة رحلات هؤلاء المستكشفين و أهدافها و المسارات التي اتبعتها و أهم الاكتشافات التي حققتها.

كما أنني اعتمدت في المبحث الأخير من الفصل الأخير، الذي تناولت فيه المستكشف الفرنسي بول صولَيِيه كنموذج، على كتب و يوميات و رسائل هذا المستكشف.و هذا بطبيعة الحال أفادني كثيراً في التعرف على هذا المستكشف ليس فقط في ما يخص رحلاته و نتائجها، و إنما أيضاً في استخلاص تفكيره الاستكشافي و الاستعماري الذي وظَّفه لخدمة مصالح بلده فرنسا.و من أبرز مؤلفات المستكشف التي اعتمدتها أذكر كتاب "مستقبل فرنسا في إفريقيا L'avenir de la France en Afrique".

أما المصادر العربية فقد اعتمدتها في الفصل الأول من البحث، و ذلك عند التطرق لشعوب و ممالك غرب إفريقيا و تاريخها، و قد أفادتني في بعض الحقائق و الأحداث التاريخية.و من هذه المصادر نذكر "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان" لمحمد بن عمر التونسي، و "كتاب العبر" لابن خلدون.

خُطة البحث:

من اجل دراسة موضوعنا هذا و الإجابة عن إشكاليته، وضعتُ خطة من أجل تغطية جوانب الموضوع المختلفة، وتتكون هذه الخطة من:

- مقدمة الموضوع.

- الفصل الأول: بعنوان **لمحة جغرافية و تاريخية عن غرب إفريقيا**، عرفت فيه بمنطقة غرب إفريقيا من الناحيتين الجغرافية و التاريخية، و ذلك لتكوين صورة عامة عن المنطقة التي يتناولها البحث، لأن أي دراسة تاريخية لا يمكن أن تُفهم دون معرفة بُعدها المكاني و التاريخي.

في المبحث الأول من الفصل الأول، حاولت تقديم تعريف لمنطقة غرب إفريقيا من الناحيتين السياسية و التاريخية، و توضيح الفرق بينهما، و أبرزت كذلك الحدود الجغرافية لهذه المنطقة التي تناولها البحث.

أما المبحث الثاني، فعرضت فيه أهم الخصائص الجغرافية لهذه المنطقة، من حيث التضاريس و المناخ و الثروات الطبيعية، و المميزات البشرية للمنطقة من حيث التنوع العرقي و

الديني و الثقافي الهائل الذي تشهده، و الذي كان له تأثير واضح على سير الأحداث التاريخية فيها.

أما المبحث الثالث من الفصل الأول، قدمت فيه لمحة مختصرة عن تاريخ المنطقة، و ركزت فيه على العصر الذهبي الذي عرفته بقيام الإمبراطوريات و الدول الإسلامية مثل دولة مالي، و تطرقت في المبحث إلى تنكر بعض الأوربيين لأي انجاز أو تطور حضاري عرفته القارة السمراء قبل مجيء الاستعمار الفرنسي، و ركزت على إبراز دور الإسلام في تطور هذه المنطقة و ازدهارها اقتصادياً و ثقافياً.

– الفصل الثاني: الذي جاء تحت عنوان **نشأة الفكر الجغرافي في أوربا و تطوره،** فقد عالجت فيه الأسباب التي أدت بأوربا إلى قيادة حركة الاستكشاف الجغرافي ابتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، مع إبراز نتائج تلك الحركة على أوربا اقتصادياً، سياسياً و فكرياً، و نتائجها على إفريقيا خاصة على الجزء الغربي منها.

في المبحث الأول من هذا الفصل، قدمت عرضاً لظهور الحركة الاستكشافية الأوربية و أسباب ذلك، و أوضحت كيف تطورت هذه الحركة.

أما في المبحث الثاني، فقد درست فيه أهم الاكتشافات الجغرافية الأولى التي قام بها البرتغاليون في سواحل إفريقيا الغربية، و كيف تمكنوا من الالتفاف حول إفريقيا و الوصول إلى الهند.

و في المبحث الأخير من الفصل الثاني، قدمت عرضاً لظهور الجمعيات الجغرافية في أوربا بداية بالجمعية الإفريقية في بريطانيا، و حاولت إبراز الدور الذي قامت به هذه الجمعيات للدفع بحركة الكشوف الجغرافية إلى أعماق القارة الإفريقية.

– الفصل الثالث: و جاء تحت عنوان **الأوربيون يستكشفون داخل غرب إفريقيا،** فعالجت فيه أهم الاكتشافات التي حققها الأوربيون في الأراضي الداخلية من غرب إفريقيا سواءً في منطقة الأنهار مثل النيجر و السنغال، أو في المناطق الصحراوية.

في المبحث الأول، عرضت أهم الأسباب التي جعلت التغلغل الأوربي يتأخر حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م) للوصول إلى الأراضي الداخلية من إفريقيا، مع التركيز على منطقة غرب إفريقيا.

أما في المبحث الثاني، فقد درست أهم المستكشفين الأوربيين الذين تجولوا في منطقة الأنهار الواقعة في غرب إفريقيا، و أهم الاكتشافات التي قاموا بها، بداية بأول رحلة قام بها "مونجو بارك" إلى الأراضي الداخلية و التي استطاع فيها الوصول إلى النهر الأسطوري في المنطقة و هو نهر النيجر، و كان ذلك في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م).

و في المبحث الثالث، بحثت أهم المستكشفين الذين تجولوا في المناطق الصحراوية من غرب إفريقيا، أمثال كلابيرتون، ريتشاردسون و بارث، و قدمت أهم الاكتشافات التي وصلوا إليها.

أما الفصل الرابع الموسوم **المستكشفون الأوربيون في غرب إفريقيا بين الاستكشاف و الاستعمار**، فحاولت أن أبرز فيه التداخل الذي حدث بين الاستكشاف و الاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، و كيف أن عملية الاستكشاف الجغرافي تحولت من عملية تحركها الأهداف العلمية أولاً إلى عملية تحركها الأطماع الاستعمارية.

ففي المبحث الأول، أبرزت أولاً دور المستكشفين الأوائل في الفترة التي ندرسها في كشف القارة الإفريقية و توجيه الانتباه الأوربي إليها، ثم بعد ذلك عالجت المستكشفين الاستعماريين بالمنطقة، و الذين سخروا أنفسهم لخدمة الأغراض الاستعمارية لبلدانهم.

أما المبحث الثاني، فقد تضمن دراسة للتوسع الاستعماري بالمنطقة، خاصة منه التوسع الفرنسي الذي كان الأقوى في المنطقة.و قد حاولت فيه إبراز أهم الأسباب و العوامل التي جعلت هذا الاستعمار يهتم بمنطقة غرب إفريقيا، و لماذا تأخر حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (19م)؟

و في المبحث الثالث، قدمت فيه دراسة لأحد أهم المستكشفين الفرنسيين الذين جالوا في غرب إفريقيا، و حاولوا تسهيل مهمة بلدهم فرنسا في فرض الهيمنة التجارية في غرب إفريقيا أولاً، و من بعدها الهيمنة السياسية.درست مولده و نشأته، ثم أهم الرحلات التي قام بها، ثم مؤلفاته و فكره الاستكشافي و الاستعماري.

- الخاتمة.

و الحق أنني في هذا البحث قد بذلت كل جهدي في التقصي و التنقيب لإخراج هذه المذكرة.و حسبي أنني عملت ما استطعت على الرغم من ظروفي الصعبة، و قد أعانني الله سبحانه و تعالى في مهمتي و مذكرتي فله الحمد و الشكر.

الفصل الأول: لمحة جغرافية و تاريخية عن غرب إفريقيا

المبحث الأول: تحديد مفهوم غرب إفريقيا

المبحث الثاني: لمحة جغرافية و اجتماعية عن غرب إفريقيا

المبحث الثالث: لمحة تاريخية عن غرب إفريقيا

تُعتبر منطقة غرب إفريقيا من أهم المناطق الإفريقية حيوية و غنى بالثروات الطبيعية، و هي في نفس الوقت تمتلك مكانة تاريخية و حضارية مهمة من خلال الدول و الحضارات العديدة التي عرفتها في تاريخها، و الدور الفعال الذي أدَّاه الإسلام في نهضتها العلمية و الفكرية.أضف إلى ذلك أن غرب إفريقيا هي المنطقة الإفريقية الأولى التي وصل إليها الأوربيون عند بداية الكشوفات الجغرافية، و هو الأمر الذي سيغيِّر تماماً واقع المنطقة و يُدخلها في مرحلة جديدة كانت لها انعكاسات هامة على مصيرها بداية بظهور تجارة الرقيق وصولاً إلى الاستعمار.

و سنحاول في هذا الفصل تعريف القارىء بهذه المنطقة، و إبراز أهم ملامحها الطبيعية و البشرية و الحضارية، و هذا من أجل رسم صورة من شأنها أن تسهِّل فهم بقية الفصول.

المبحث الأول: تحديد مفهوم غرب إفريقيا

قبل الدراسة الطبيعية و الاجتماعية و التاريخية لمنطقة غرب إفريقيا لا بدَّ أولاً من التعرف على هذه المنطقة و تحديدها جغرافياً، لأن وضع الإطار المكاني لأي دراسة تاريخية هي من شروط البحث العلمي.

انطلاقاً من التسمية يتبادر إلى الذهن بأن منطقة غرب إفريقيا تشمل كل الدول الواقعة في غرب إفريقيا، لكن يكون من الخطأ و غير العلمي الاعتماد على التسمية فقط لتحديد هذه المنطقة جغرافياً.فقد وجدنا اختلافاً بين الجغرافيين و المؤرخين في تحديد هذه المنطقة بسبب التداخل الموجود في مفهوم المنطقة من الناحيتين الجغرافية و التاريخية، و إن كان هناك اتفاق بينهم حول تحديد جُل الأجزاء التابعة لها، حيث أجمعوا على أنَّ منطقة غرب إفريقيا هي البلاد الواقعة في غرب إفريقيا، و المطلة على المحيط الأطلسي من الغرب و الجنوب[1]، أو تلك الواقعة جنوب غرب الصحراء الكبرى[2].

لكن هذا التعريف تنقصه الدقة العلمية و التاريخية، بحيث إذا سلَّمنا به فمعنى ذلك أن المغرب الأقصى و الصحراء الغربية ينتميان إلى هذه المنطقة، كما أن هذا التحديد لا يُبرِز حدود

[1] – إلهام محمد علي ذهني: **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914** ، دار المريخ ، الرياض ، السعودية: 1408هـ /1988م ، ص 19.

[2] – يوسف روكز: **إفريقيا السوداء سياسة و حضارة** ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى: 1981 ، ص 36.

هذه المنطقة من الجهة الشمالية و الشرقية التي يوجد حولها الاختلاف، بسبب غياب حواجز جغرافية طبيعية يمكن الاعتماد عليها كعلامات بارزة في التحديد الجغرافي لهذه المنطقة[1].فهناك من يعتبر أن الحدود الشمالية لدولتي مالي و النيجر هي الحدود الشمالية لمنطقة غرب إفريقيا[2]، أما حدودها الشرقية فتتوقف عند بحيرة تشاد[3].و هناك من يُلغي مالي و النيجر و موريتانيا من الإطار الجغرافي لمنطقة غرب إفريقيا، على اعتبار أن هذه البلدان تنتمي إلى المنطقة المعروفة باسم "الساحل" الإفريقي، غير أن هذا الرأي لا تؤيده جُل المراجع التي عُدنا إليها في هذا الصدد.و بالتالي، فإن أقرب تحديد و تعريف إلى الدقة لغرب إفريقيا، هو أن هذه المنطقة تشمل كل الدول الواقعة في غرب إفريقيا، و التي يحدها غرباً المحيط الأطلسي، جنوباً خليج غينيا، شرقاً بحيرة تشاد، من الجنوب الشرقي الكاميرون، و في الشمال تنتهي عند الحدود الشمالية لدولتي مالي و النيجر.

هذا من الناحية الجغرافية، أما من الناحية السياسية، و حسب المنشورات الرسمية لهيئة الأمم المتحدة، فإن منطقة غرب إفريقيا تتكون من خمسة عشرة (15) دولة هي نيجيريا، النيجر، بنين، الطوغو، بوركينافاسو، غانا، مالي، كوت ديفوار، ليبيريا، سيراليون، غينيا، غينيا بيساو، غامبيا، السنغال و موريتانيا[4].

أما من الناحية التاريخية، فإن الأمر يختلف حيث يتداخل تعبير غرب إفريقيا أو إفريقيا الغربية مع المصطلح التاريخي الذي عُرِفت به المنطقة تاريخياً و هو "السودان الغربي" تمييزاً له عن بلاد السودان الأوسط المتمثل في دولة تشاد الحالية و تفصل بينهما بحيرة تشاد و بلاد السودان الشرقي الواقعة جنوب مصر.لقد أطلق العربُ كلمة السودان على كل المناطق الواقعة جنوب مصر و التي يسكنها السود، و هي تشمل جغرافياً كل البلاد الواقعة جنوب الصحراء و الممتدة من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[5]، كما أطلق العرب[6] أيضاً على هذه المناطق "أرض الشعوب السوداء".و مِنهم أيضاً مَن كان يقصد ببلاد السودان المناطق الواقعة في الغرب و الوسط

---

[1] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 19.

[2] – سيد أحمد العراقي: **بلاد غربي إفريقيا الإسلامية عبر التاريخ** ، مجلة رسالة التقريب ، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، العدد 58، طهران ، إيران: 2007، ص 175.

[3] – سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق**، ص 175.

[4] – قسم عمليات حفظ السلام : **خريطة غرب إفريقيا** ، رقم الخريطة 4242 ، هيئة الأمم المتحدة ، نيويورك ، فبراير 2005 .

[5] – محمود شاكر: **السودان**، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان: 1401هـ/1981م، ص 9.

[6] – جي دي فيج: **تاريخ غرب إفريقيا**، ترجمة السيد يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص 18.

فقط، لأن لهم تسميات أخرى لأصحاب البشرة السوداء في غير هذه البلاد مثل تسميات الزِنج و النوبة و الأحباش[1].و يعود أصل هذه التسمية إلى أنَّ سكان هذه المناطق هم من ذوي البِشرة السوداء[2].

اعتماداً على ما سبق، فإنه يمكننا حصر منطقة غرب إفريقيا، و هي الإطار المكاني لبحثنا هذا، في الأراضي الواقعة غرب القارة الإفريقية التي يحدها المحيط الأطلسي من الجهة الغربية، و خليج غينيا من الجهة الجنوبية، و بحيرة تشاد و جبال أداموا من الجهة الشرقية، و الصحراء الغربية و الجزائر و ليبيا من الناحية الشمالية.و يُضاف إلى هذه المناطق جزر الرأس الأخضر التي ارتبط تاريخها بالساحل الغربي لإفريقيا.

إن هذه المنطقة الواسعة من غرب إفريقيا، تُقسم إلى جزأين كبيرين، و كل واحدٍ منهما يتميز عن الآخر جغرافياً و تاريخياً و ثقافياً.و هذين الجزأين هما:

أ- الجزء الداخلي الذي يقع خلف حزام الغابات المطلة على خليج غينيا، و هو يتميز بمساحته الواسعة.و تنتمي إلى هذا الجزء: بوركينا فاسو، جزر الرأس الأخضر، غامبيا، مالي، النيجر، السنغال و موريتانيا.هذا الجزء هو الذي يكوّنُ ما يسمى السودان الغربي[3].

ب- الجزء الساحلي الذي يضم الدول المطِلة على خليج غينيا، و هيِ بنين، كوت ديفوار، غانا، غينيا بيساو، غينيا، ليبيريا، سيراليون، توغو و نيجيريا.و بعد وصول الأوربيين إليه و ازدهار تجارتهم به، قسَّموا المناطق الساحلية لهذا الجزء إلى أربعة مناطق و أطلقوا على كل منطقة إسماً خاصاً بها، و هذه المناطق هي:

- ساحل الحَبْ Grain coast: و هي تتمثل في ليبيريا، التي كانت تنتج نوعاً من الفُلفل الأسود.
- ساحل العاج Ivory coast: و هي تتمثل في كوت ديفوار الغنية بالغابات.
- ساحل الذهب Gold coast: و هي غانا الحالية، و سميت كذلك لغناها بالذهب.

[1] – جي دي فيج: **المرجع السابق،** ص ص 175 ، 176.

[2] – سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 175.

[3] محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ و حضارة،** الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان: 2007، ص 20.

– ساحل الرقيق Slave coast: و هي المنطقة الممتدة بين مصب نهر الفولتا و دلتا نهر النيجر[1].

إذن نحن بصدد دراسة منطقة واسعة ذات امتداد كبير، جعل حدودها تصل إلى مناطق هامة من إفريقيا خاصة المنطقة الشمالية منها، و هذا ما ساعد على التواصل بينها و بين هذه المناطق سياسياً، تجارياً و ثقافياً.

المبحث الثاني: لمحة جغرافية و اجتماعية عن غرب إفريقيا.

كما اتضح لنا في المبحث الأول، فإن منطقة غرب إفريقيا منطقة واسعة جداً، حيث تمتد على مسافة أربعة آلاف كيلومتر (4000كم) من الشرق إلى الغرب، و على مسافة ألف و خمسمائة كيلومتر (1500كم) من الشمال إلى الجنوب[2].هذا الامتداد الواسع أدى بالمنطقة إلى أن تتربع على حوالي سُدُس ($\frac{1}{6}$) مساحة إفريقيا كاملة[3]، بحوالي ثلاثة ملايين و تسعمائة ألف كيلومتر مربع (3900000كم^2) [4].

و تمتاز هذه المساحة الواسعة للمنطقة بالتنوع البشري، التضاريسي، المناخي، النباتي و الحيواني، و يتضح هذا التباين عمودياً، أي بالمقارنة بين المناطق الشمالية و المناطق الجنوبية للمنطقة.و هذا ما سنحاول إبرازه فيما يلي:

– **التضاريس:** يغلب على مساحة غرب إفريقيا طابع الهضاب[5]، حيث توجد مجموعة من الهضاب الواسعة التي تمتاز بارتفاعها البسيط الذي يتراوح ما بين مائتين متر (200م) و خمسمائة متر (500م) متر[6]، و تتخلل هذه الهضاب مجموعة من المرتفعات و المنخفضات، و تجري فيها مجموعة من الأنهار، في حين تغطِّي الأجزاءَ الشماليةَ منها الرمال المنتمية للصحراء الكبرى.

[1] أحمد إبراهيم دياب: **لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث**، الطبعة الأولى، دار المريخ، الرياض، السعودية: 1981، ص88.

[2] – Dumont, Jean (ed.) : L’histoire générale de l’Afrique, Tome 1, Editions Beauval, Paris, 1971, p.60.

[3] – فتحي محمد أبو عيانة: **جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء**، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية: 1983، ص 217.

[4] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 30.
سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 175.

[5] – يوسف روكز: **المرجع السابق** ، ص 36.

[6] – Dumont, Jean (ed.) : op.cit, p.60-61.

أبرز الهضاب في غرب إفريقيا هضبة "فوتاجالون" في الركن الجنوبي الغربي للمنطقة، و التي يقرب ارتفاعها من الألف متر (1000م)، إلى جانب هضبة جوس في شمال نيجيريا، و التي تحيط بها سهول واسعة يبلغ متوسط ارتفاعها حوالي خمسمائة متر (500م) فوق سطح البحر، و ما بين هاتين الهضبتين يوجد منخفض أو حوض نهر الفولتا الواسع، الذي لا يتعدى الارتفاع فيه أربعة و نصف متر (4.5م) عن سطح البحر.و أما في الجنوب فيوجد سهل ساحلي ضيق[1].

تتوزع الجبال على الحافة الساحلية الجنوبية المطلة على خليج غينيا، و أهمها جبال فوتاجالون الممتدة في غينيا كوناكري، غرب ليبيريا و شمال سيراليون، و فيها تنبع أغلب أنهار إفريقيا الغربية بسبب كثرة تساقط الأمطار فيها و تركيبها الجيولوجي الذي يسمح لها بتخزين المياه[2]، كما تقع فيها أعلى القمم الجبلية في غرب إفريقيا، منها قمة بنتيماني Bintemani في سيراليون بارتفاع يبلغ ألفاً و تسعمائة و خمسون متر (1950م)[3]، و قمة نيمبا Nimba في جنوب غينيا كوناكري قرب الحدود مع ليبيريا و كوت ديفوار، و التي يصل ارتفاعها إلى ألف و سبعمائة و خمسين متراً (1750م) ، و أما في شمال فوتاجالون بالقرب من السنغال فارتفاع هذه الجبال يبلغ في المتوسط ألفاً و خمسمائة متر (1500م)، و في الوسط من جنوب منطقة غرب إفريقيا في دولة توغو فإن متوسط ارتفاع الجبال هو تسعمائة متر (900م) بينما في الشرق توجد مرتفعات أداموا و يبلغ ارتفاعها حوالي ألف متر (1000م)[4]، غير أنه و بالانتقال من هذه الجبال نحو ساحل خليج غينيا، تبدأ التضاريس بالانخفاض، فنجد بأن الشريط الساحلي هو منطقة منخفضة ضيقة تزيد اتساعاً عند مصبات الأنهار الرئيسة، كالنيجر و الفولتا و السنغال[5].

و على العموم يمكن تقسيم منطقة غرب إفريقيا إلى ثلاث مناطق تضاريسية رئيسة مختلفة هي:

---

[1] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 219.

[2] المرجع نفسه، ص 22.

[3] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 22.

[4] – المرجع نفسه، ص ص22،21.

[5] – يوسف روكز: **المرجع السابق**، ص 36.

أ. المنطقة الشمالية : تنحصر بين الصحراء الكبرى شمالاً و نهر النيجر الأوسط جنوباً، و تمتاز بكونِ أغلب أراضيها هضاب تغطيها الكثبان الرملية، و تتخللها مجموعة من العيون المائية و الواحات.

ب. المنطقة الوسطى : تمتد من بحيرة تشاد شرقاً حتى منطقة فوتاتورو Fouta Toro بالسنغال غرباً، و توجد وسطَها هضابُ النيجر ذات المراعي الخصبة.

ج. المنطقة الجنوبية: و هي المنطقة المطلة على خليج غينيا، و تضم عدة كتل جبلية، تغطيها الغابات الاستوائية الكثيفة، و تكثر فيها السهول و الوديان و الأنهار الساحلية[1].

و فيما يخص الشواطئ في غرب إفريقيا فمنها ما هو صخري و منها ما هو رملي، و تقع الشواطئ الصخرية في موريتانيا والسنغال ، أما الرملية فتبدأ في غينيا بيساو و تنتهي في نيجيريا مُشكِّلة بعض الخلجان القليلة التي تسمح بإقامة الموانيء فيها.

و أما الجزر فهي قليلة بمنطقة غرب إفريقيا،و أبرزها أرخبيل بيجاغوس Bijagós الموجود قُبالَة ساحل غينيا بيساو، أرخبيل الرأس الأخضر★، و أرخبيل ساوتومي و برنسيب★★ SãoTomé & Principe[2].

– **المناخ:** تقع منطقة غرب إفريقيا كلية، من الناحية الفلكية، بين خط الاستواء و مدار السرطان، و هذا ما جعل هذه المنطقة تخضع للمناخين الاستوائي و المداري الحارين[3]، و لذلك فإن المنطقة تمتاز بمناخ حارٍ و رطب جداً[4] مع وجود اختلافٍ بين شمالها و جنوبها، و نادراً ما تقل درجة الحرارة عن ست درجات مئوية (6°م) إلا في بعض المناطق التي يزيد ارتفاعها على ألف و مائتين متر (1219م)[5].

---

[1] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 21.

★ – مجموعة جزر يبلغ عددها 15، تقع في المحيط الأطلسي غرب السنغال على بعد 455كم من مدينة دكار (ياسين صلاواتي: الموسوعة العربية الميسرة و الموسعة، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت:2001)

★★ – يقع الأرخبيل في خليج غينيا، و يتكون من جزيرة ساوتومي و جزيرة برنسيب، و مساحته 964كم^2 (Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse GDEL, Librairie Larousse, Canada, 1984, Tome9, p.9323)

[2] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق**، ص 22.

[3] – يوسف روكز: **المرجع السابق** ، ص 36.

[4] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 22.

[5] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 222.

بالانتقال من المناطق الساحلية الجنوبية إلى المناطق الداخلية الشمالية يبرز بوضوح الاختلاف المناخي بينهما، حيث ترتفع درجة الحرارة خاصة في المناطق الصحراوية و شبه الصحراوية في الشمال[1]، و تتناقص الأمطار بالاتجاه نفسه.و على العكس من ذلك فإن المناطق الساحلية تشهد تساقطاً غزيراً للأمطار و تسمى "إقليم المطر"[2].

مما سبق، يتضح لنا بأن منطقة غرب إفريقيا تنقسم إلى إقليمين مناخيين مختلفين، تفصل بينهما دائرة العرض 10° شمالاً [3] :

أ- الإقليم الأول هو إقليم خليج غينيا، يمتاز بتساقط الأمطار الغزيرة، و التي تصل كميتها إلى ألفين مليمتر (2000مم) سنوياً.و يمتد موسم الأمطار من شهر مارس إلى شهر جويلية من كل سنة، ثم يليه موسم الجفاف من أوت إلى سبتمبر، ثم يعود من جديد موسم الأمطار لمدة قصيرة من أكتوبر إلى نوفمبر، و أخيراً موسم جاف من ديسمبر إلى مارس.و يلاحظ في هذا الإقليم مدى التأثير القوي للغابة من حيث الزيادة في نسبة الرطوبة[4].

ب- الإقليم الثاني هو إقليم الشمال، يمتاز بمناخ مداري ممطر صيفاً فقط و تتراوح كمية أمطاره بين حوالي مائة و مائتين مليمتر (100-200 مم) في السنة، لكن هذه الكمية تتناقص أكثر فأكثر باتجاه الشمال[5].

لقد شكَّل المناخ في غرب إفريقيا خاصة في المناطق المطلة على خليج غينيا، بسبب الرطوبة العالية و الغابات الكثيفة و الأمراض القاتلة، عائقاً كبيراً أمام توغل الأوربيين في داخل المنطقة، حيث لم يتمكن هؤلاء من التغلب على صعوبة المناخ و التوغل إلى الداخل إلا في القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، رغم أن وصولهم إلى المنطقة و تركزهم فيها يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي (15م).

- **الثروة المائية:** تتوفر منطقة غرب إفريقيا على ثروة مائية هائلة، و تتجلى هذه الوفرة في الجزء الجنوبي خاصة، عكس الجزء الشمالي الذي يفتقر لهذه الثروة، و يُفسر هذا

---

[1]- فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق**، ص 222.

[2]- يوسف روكز: **المرجع السابق** ، ص 36.

[3] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع نفسه** ، ص 224.

[4] – اليونيسكو: **تاريخ إفريقيا العام** ، المجلد الرابع، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان: 1988، ص 327.

[5] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع نفسه** ، ص 225.

الاختلاف بين الشمال و الجنوب من حيث الغِنى بالثروة المائية إلى الاختلاف الموجود بينهما تضاريسياً و مناخياً، و تتمثل هذه الثروة المائية بالدرجة الأولى في الأنهار.أما البحيرات فهي شبه منعدمة بالمنطقة باستثناء بحيرة فولتا الواقعة في غانا[1].

بالنسبة للأنهار، تتوفر منطقة غرب إفريقيا على شبكة نهرية متنوعة و واسعة، يميزها انصراف معظم مياه الأنهار إلى المحيط الأطلسي، و ذلك بسبب الانحدار الموجود بين المناطق الداخلية المرتفعة و المناطق الساحلية المنخفضة.كما تتميز العديد من أنهار هذه المنطقة بوفرة مياهها، و صلاحيتها للملاحة في أجزاء معتبرة من مجاريها، و هذا ما جعلها تؤدي – و لا زالت – دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و حتى السياسية للسكان المحليين، كما كانت من بين العوامل التي ساعدت على ازدهار الكثير من الحضارات و الإمبراطوريات في غرب إفريقيا[2] عبر تاريخها الطويل.و من أهم انهار غرب إفريقيا نذكر:

أ. نهر النيجر: ينبع هذا النهر في فوتاجالون عند حدود غينيا كوناكري مع سيراليون متجها نحو الشرق ثم يأخذ اتجاهاً نحو الشمال و بعده يعود للاتجاه نحو الجنوب مكوناً ما يُعرف بثنية النيجر حتى يصب في خليج غينيا.يبلغ طول النهر أربعة آلاف و مائتين كيلومتراً (4200كم)[3]، و هذا ما يضعه في المرتبة الثالثة بين أنهار إفريقيا من حيث الطول بعد النيل و الكونغو[4].ينطلق نهر النيجر من غينيا كوناكري ثم يمر بمالي ثم النيجر و أخيراً يعبر أراضي نيجيريا قبل أن يصب في خليج غينيا، و بالتالي فهو يكتسب أهمية اقتصادية و سياسية مهمة بالنسبة لهذه الدول و كامل المنطقة.و لنهر النيجر رافد مهم هو نهر بنوي Benoué الذي يتصل به بالقرب من مصبه[5].

لقد شكَّل نهر النيجر لُغزاً كبيراً ظلَّ يحير الأوربيين لفترة طويلة من الزمن، حيث كانوا يجهلون منابعه و مصبه و اتجاهه، مما جعله مجالاً للخرافات و الاعتقادات الخاطئة، و ظل كذلك حتى القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، حيث استطاع المستكشفون الأوربيون الوصول إليه و

[1] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 225.

[2] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 20.

[3] – Dumont, Jean (ed.) : op.cit, p.61.

[4] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 20.

[5] – المكان نفسه، ص20.

استكشافه و دراسته، و إبعاد كل غموض عنه، كما سيتبين لنا لاحقاً في الفصل الثالث من هذا البحث.

ب. نهر السنغال: يبلغ طوله ألفاً و ستمائة كيلومتر (1600كم)[1]، و هو سادس الأنهار طولاً في إفريقيا[2]، ينبع في جبال الكونغ★ Kong شرق فوتاجالون و يصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة سان لويس، و هو يتكون من رافدين كبيرين هما بافينغ Bafing و باكوي Bakhoy اللذين يلتقيان عند بافولابي Bafoulabé مكونَيْن هذا النهر[3].يتميز هذا النهر بقلة عُمقه إذ لا يتجاوز الثلاثة أمتار (3م) لمسافة تبلغ ثلاثمائة و خمسين كيلومتراً (350كم) ابتداءً من مصبه[4]، و بالتالي فهو يصلح للملاحة فقط في فصل الأمطار من شهر أوت إلى شهر أكتوبر من كل سنة.يؤدي هذا النهر دوراً هاماً في الري[5]، و بالتالي فهو يكتسي قيمة اقتصادية من حيث مساهمته في تنمية الزراعة.و من ميزات هذا النهر كذلك أنه يشكل حدوداً طبيعية بين السنغال و موريتانيا.

ج. نهر غامبيا: ينبع في فوتاجالون على أراضي غينيا و يمر بالسنغال و غامبيا قبل أن يصب في المحيط الأطلسي.هو طريق مهم للمواصلات حيث يصلح للملاحة على مسافة أربعمائة و خمسة و ستين كيلومتر (465كم)[6]، و هو المدخل المائي للسودان الغربي من الجهة الغربية.ما يميز هذا النهر هو بُعْدُ القرى و البلدات عن مجراه، و ذلك بسبب وجود المستنقعات و الغابات على ضفافه[7].

---

[1] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 22.

[2] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 221.

★ – إقليم في شمال كوت ديفوار (Dumont, Jean (ed.) : op.cit,Tome 5, p.191)

[3] – Mathieu, C. : Petite géographie de l'Afrique en général et de la Sénégambie en particulier, Challamel Ainé, Paris, 1884, pp55-56

[4] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 24.

[5] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق**، ص 222.

[6] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 24.

[7] – المكان نفسه، ص24.

د. نهر فولتا: ينبع في بوركينا فاسو و يصب في خليج غينيا، و هو من الأنهار الهامة بروافده التي تلتقي و تصب في بحيرة الفولتا[1]، و في مجراه ببوركينا فاسو يأخذ عدة تسميات هي فولتا الأبيض، فولتا الأسود و فولتا الأحمر[2].

هـ. نهر الكازامنس La casamance: ينبع في السفوح الغربية لجبال فوتاجالون و يصب في المحيط الأطلسي مروراً بمنطقة الكازامنس السنغالية، و يبلغ طوله مائتين و خمسين كيلومتر(250كم)[3].

و. نهر فاليمي Falémé: هو أحد روافد نهر السنغال، ينبع من فوتاجالون و يصب في نهر السنغال بعد أن يقطع مسافة تسعمائة كيلومتر (900كم) من منبعه، و هو يفصل بين بلاد البامبوك★ Bambouk و بلاد البوندو Bondou[4].

ز. نهر ريوغراندي Rio Grande: ينبع في مرتفعات فوتاجالون و يصب في المحيط الأطلسي شمال مدينة بيساو في غينيا[5].

ح. نهر ريو نونييز Rio Nuńez: ينبع في فوتاجالون و يصب في المحيط الأطلسي، و يبلغ طوله حوالي مائة و ستين كيلومتر (160كم)[6].

إلى جانب هذه الأنهار توجد أخرى لكنها أقل أهمية، و هي تصب كلها في المحيط الأطلسي.

– **الغطاء النباتي**: تتوفر منطقة غرب إفريقيا على غطاء نباتي متنوع يعكس التنوع المناخي في هذه المنطقة، و يتوزع تماشياً مع توزع سقوط الأمطار بين المناطق الساحلية و المناطق الداخلية.ففي المناطق الجنوبية الغربية و بالأخص الساحلية منها توجد غابات كثيفة، تضم أنواعاً من الأشجارالتي قد يصل ارتفاعها إلى ستة و ثلاثين متراً تقريباً (36م)[7]، و تعيش فيها حيوانات كبيرة

---

[1]– فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق**، ص 221.

[2] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 22.

[3] – Mathieu, C. : op.cit, p58

★ – إقليم يقع في دولة مالي بين نهري فاليمي في الغرب و بافينغ في الشرق (GDEL, Tome1, p.1013)

[4] – Mathieu, C. : op.cit, p.65

[5] - Dumont, Jean (ed.) : op.cit,Tome 4, p.355

[6] – Ibid, p.366

[7]– فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 227.

كبيرة البنية كالفيلة، و الثيران الوحشية، و الزرافات، و الأسود، إلى جانب حيوانات أخرى مثل الغزلان[1].

و إذا اتجهنا نحو الداخل فإننا نجد مناطق واسعة تغطيها السفانا، و هي محصورة بين المناطق الغابية في الجنوب و الصحراوية في الشمال، و تتناقص كثافة هذه السفانا كلما زاد التوغل نحو الداخل.

أما في الأطراف المحاذية للصحراء الكبرى، فتنمو فيها السفانا القصيرة وحشائش الاستبس خلال الفصل الممطر[2]، غير أن المناطق الشمالية تضم غطاءاً نباتياً فقيراً عموماً[3].

وللإشارة فان الغابات الجنوبية تضم مجموعة من الأشجار المثمرة، التي لا زال بعضها يؤدي دوراً هاماً في اقتصاديات المنطقة، و كانت محل اهتمام استعماري طوال الحقبة الاستعمارية بالمنطقة، و من أهم هذه الأشجار نخيل الزيت و أشجار الكّاكّاو و أشجار البُن و أشجار الزبدة.

– **الثروات الطبيعية**: تكتنز منطقة غرب إفريقيا الكثير من الثروات، حيث نجد الحديد في موريتانيا، الفوسفات في السنغال، البوكسيت في غانا و غينيا كوناكري، المنغنيز في غينيا كوناكري، الماس في سيراليون و غانا، الأورانيوم في مالي و النيجر، الذهب في غانا و مالي و بوركينا فاسو، و النفط الذي يتركز في نيجيريا[4].

– **التركيب الديمغرافي**: تتميز منطقة غرب إفريقيا بالتنوع العرقي، حيث توجد عدة أعراق تختلف من حيث اللون، البنية المورفولوجية، اللغة، النشاط الاقتصادي، والعادات والتقاليد.أما بالنسبة لأصول سكان غرب إفريقيا فلا يزال الاختلاف بين المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث قائماً حولها، و أن ما قيل في هذا الصدد لا يتعدى مستوى الافتراض، و من ذلك الفرضية التي تقول بأن أصول سكان إفريقيا الغربية تعود إلى إفريقيا الشرقية و وادي النيل[5].

---

[1]- محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 23.

[2]- فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 227.

[3] -Dumont, Jean (ed.) : op.cit,Tome 4, p.61.

[4] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 23.

[5]- المكان نفسه، ص 23.

و بالتالي نحن أمام إشكالية معقدة تحتاج إلى بحث عميق من قِبل المؤرخين و علماء الاجتماع حتى نتمكن من التأصيل لمجتمع غرب إفريقيا من كل النواحي الاجتماعية و اللغوية و التاريخية.و يُلاحظ الباحث من خلال المادة الخبرية التي تناولتها المصادر و المراجع المعتمدة في هذه المذكرة، بأنَّ سكان غرب إفريقيا يتفرعون إلى سلالتين كبيرتين، هما السلالة البيضاء أو الحامية من جهة و السلالة السوداء أو الزنجية من جهة ثانية [1].و هناك رأي آخر يقسم هؤلاء السكان إلى أربع مجموعات عرقية هي: الحاميون، الزنوج، الفولاني و المور[★] (أو الموريون)، و يبدو لنا بأن هذا التقسيم الأخير غير دقيق، إذ أشارت جُلُّ الدراسات إلى أن السُلالتين الأخيرتين هما ضِمن السلالتين الأوليين.

و ما زاد من تعقيد الإشكالية، التداخل و الاختلاط التاريخي و الحضاري الذي جمع بين هذه السلالات، و الذي كانت نتيجته الاختلاط الدموي بينها بنِسب مختلفة مما أخلط الأمر على المؤرخين في تحديد أصل بعض القبائل التي تنتمي إلى هذه السلالات مثل السوننكة أو السوننكيون Soninke الذين اعتبرهم البعض بأنهم من البربر الحاميين، في حين أن أصلهم زنوج [2].

في ما يخص التوزيع الجغرافي لهؤلاء السكان فإننا نجد أنَّ السلالة البيضاء أو الحامية تتركز في الصحراء الكبرى الغربية، أما السلالة الزنجية فتتركز في ما وراء الصحراء جنوباً بمنطقة الغابات و الأراضي الزراعية بين الصحراء و نهر النيجر و السنغال و البلاد المطلة على خليج غينيا [3]، و الفاصل الجغرافي بين السلالتين يمتد من مصب نهر السنغال حتى مدينة تمبكتو على ثَنِية نهر النيجر [4].

و في ما يلي تفاصيل هاتين السلالتين:

---

[1]- محمود طه أبو العلا: **المسلمون في افريقية المدارية**، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر: د.ت، ص 26.

[★] -كلمة غير عربية، كانت تعني في اللغات الأوربية إلى غاية ق19م مسلمي الأندلس و سكان موانئ شمال إفريقيا، أما في الوقت الحالي فهي تطلق على سكان موريتانيا و مسلمي سريلانكا و مسلمي جنوب الفليبين (محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: المرجع السابق ، ص 25)

[2]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق** ، ص27.

[3]- إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص ص 26 ، 27.

[4]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق** ، 26.

1- السلالة البيضاء أو الحامية : تنتمي هذه السلالة إلى العرق الأبيض القوقازي، و تعود أصولها إلى آسيا[1].و يتميز عناصر هذه السلالة بقامتهم الطويلة، بِشرتهم السوداء، وجههم البيضاوي ،أنفهم الضيق و أجسامهم النحيلة[2].

و تتكون هذه السلالة أصلاً من البربر[3]، الذين اختلطوا في ما بعد بالعرب، فتكوَّن خليط بين الجنسين فأصبحوا يُعرفون بالمغاربة، و هم يعيشون في الصحراء الكبرى الغربية و على الحواف الممتدة على الضفة اليمنى لنهر السنغال و الضفة اليسرى لنهر النيجر في اتجاه الصحراء[4].

ومن أشهر الأعراق التي تدخل تحت هذه السلالة الطوارق، الذين ينتشرون في الصحراء الكبرى الغربية، خاصة في المناطق المحيطة بثنية نهر النيجر و مدينة تمبكتو.عُرِف الطوارق بالشجاعة و تمسُّكِهم بالإسلام[5]، كما كان لهم تأثير بارز في تاريخ المنطقة في إطار علاقتهم بالممالك و الدول الإسلامية التي قامت في السودان الغربي مثل مملكة مالي التي كانوا السبب في إسقاطها بسبب الصراع الذي كان بين مختلف شعوب و قبائل المنطقة حول حيازة الأرض و الثروات.

و تدخل ضمن هذه السلالة أيضا القبائل العربية الموجودة في جنوب موريتانيا مثل الترارزة و البراكنة، وقبائل البربر، و هي قبائل في معظمها مسلمة و اشتهرت بمقاومتها للغزو الفرنسي في جنوب موريتانيا حتى بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1332هـ/1914م[6].

2- **السلالة السوداء أو الزنجية:** يتميز أفراد هذه السلالة بالسُمرة الداكنة و الشعر المفلفل و القامة الطويلة و غُلظ الشفتين[7]، و هم يستقرون بالدرجة الأولى في مناطق الغابات و الأراضي

---

[1]- محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 24.

[2]- المكان نفسه ، ص 24.

[3]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق** ، ص 26.

[4]- إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 26.

[5]- المكان نفسه: ص 26.

[6] - المكان نفسه: ص 26

[7]- جاسم محمد ظاهر: **إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال** ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر: مصر: 2003، ص 14.

الزراعية الواقعة بين الصحراء و نهري النيجر و السنغال و البلاد المطلة على خليج غينيا[1].

عكس السلالة الأولى فإن السلالة الزنجية هي أكثر تنوعاً حيث تنقسم إلى عدد كبير من الشعوب و المجموعات القبلية.و من أهمها:

أ. مجموعة الشعوب السنغالية و تشمل الولوف Wolof، السرير Sérére و التكرور Toucoulor.أما الولوف و السرير فيتمركزون في المنطقة الساحلية بين مدينة سان لويس و جزر الرأس الأخضر، و يُعتبر الولوف أكثر السلالات سواداً في اللون و معظمهم مسلمون.و أما التكرور فيستقرون في أعالي نهر السنغال و أواسط نهر النيجر، و كانوا أسبق الشعوب إلى اعتناق الإسلام عند و صوله إلى المنطقة، و حرفتهم الرئيسة هي الزراعة[2].و كان القدماء يطلقون اسم التكرور على بعض أهل السودان و هم أهل مملكة بورنو، لكن هذا الاسم عُمم و أصبح يشمل مع مرور الوقت ممالك متعددة[3].

ب.شعب الماندنجو أو الماندي Mandingue الذي ينتشر بين المحيط الأطلسي غرباً حتى ثنية نهر النيجر شرقاً [4].

ج. شعب اليوروبا Yoruba الذي يتركز غرب مصب نهر النيجر[5]، و يتميز هذا الشعبُ بكونه أكثر شعوب إفريقيا استقراراً في المدن، و يُقدر عدده حالياً بحوالي خمسة ملايين و نصف نسمة (5500000ن)[6].

د. شعب الإيبو Ibo، و هو يستقر في جنوب شرق نيجيريا في قرى كبيرة، و يبلغ عدده حوالي ستة ملايين نسمة (6000000ن)،[7].

هـ. مجموعة الهوسا Haussa التي تتركز خاصة في شمال نيجيريا، و هي مزيج من عدة قبائل جمعت بينها عبر العصور لغة الهوسا[8]، و التي تعتبر أهم لغة محلية ما زالت تستخدم إلى

---

[1] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 27.

[2] – المرجع نفسه: ص ص 27 ، 28.

[3] محمد بن عمر التونسي: **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الأنباء و النشر و الدار الدار المصرية للتأليف و الترجمة، القاهرة: 1965، ص135.

[4] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 29.

[5] – المرجع نفسه، ص 30.

[6] – فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 229.

[7] – المرجع نفسه: ص ص 229، 231.

[8] – فيصل محمد موسي: **موجز تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر**، منشورات الجامعة المفتوحة، ليبيا: 1997، ص 57.

اليوم.و قد مرّت الهوسا بفترة طويلة من الازدهار، حيث أنشأت ست (6) دول عريقة، أقدمها يعود إلى أكثر من ألف سنة مضت[1].اشتهر الهوسا بمهاراتهم في الزراعة و الصناعات اليدوية مثل صهر الحديد و استخلاص الذهب و دباغة الجلود و صناعة النسيج[2].

و. شعب الفولان أو الفولاني Fulani، و قد تضاربت و اختلفت الآراء حول أصله، إنْ كان من السلالة البيضاء أو السلالة الزنجية[3].فهناك من الآراء من ينسبه إلى الطوارق لأن فيه فيه الكثير من الدماء غير الزنجية[4]، في حين أكّدت دراسات أخرى التشابه التام بين لغتهم و لغة قبائل الولوف و السرير في حوض نهر السنغال[5].

استقر هذا الشعب في البداية على ضفاف نهر السنغال شمال مجراه الأدنى، و عندما تزايدت أعداده هاجرت موجات منه نحو أراضي زراعية و رعوية أوسع حتى وصل بهم الأمر إلى بحيرة تشاد حوالي القرن الثالث عشر الميلادي (13م)[6]، مما يعني أن الفولاني قد انتشروا في الأراضي الوسطى الواسعة الممتدة ما بين بحيرة تشاد شرقاً وسواحل المحيط الأطلسي غرباً، و هنا يجدهم الباحث بأنهم كثيرو الانتشار في كثير من دول غرب إفريقيا. يُقدَّر عددهم حالياً بحوالي خمسة ملايين نسمة (5000000ن)[7].

اشتهر الفولاني برفضهم الخضوع إلى أي سلطة رغم أنهم كانوا يعيشون على أراضيها، و كانوا إذا أسيء إليهم يرحلون إلى مناطق أخرى، كما عُرفوا عموماً بالرعي و زراعة القمح و القطن، و كانوا القبائل الرعوية الوحيدة في منطقة غرب إفريقيا[8].و ينقسم الفولاني إلى فئتين مختلفتين، فئة تعيش في الأرياف و تعتمد على الرعي، و فئة أخرى تعيش في المدن و تعتمد

---

[1]- فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 229 .

[2]- فيصل محمد موسي: **المرجع السابق** ، ص 57.

[3]- عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **المسلمون و الاستعمار الأوربي لإفريقيا**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون و الثقافة و الآداب، الكويت: 1998، ص 30.

[4]- فيصل محمد موسي: **المرجع السابق** ، ص 58.

[5]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق** ، ص 43 .

[6]- المرجع نفسه : ص 58.

[7]- فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق** ، ص 229 .

[8] – Roland, Oliver and Fage, J.D : A short history of Africa, Penguin books, London, 1995, 1995, p.130

على الحِرف[1].و بالنسبة لتوزيعهم الجغرافي فهم ينقسمون إلى أربعة فروع كبرى هي: فولا فوتاتورو أي الذين يسكنون منطقة فوتاتورو، فولا فوتاجالون أي الذين يعيشون في منطقة فوتا جالون، الفولانيون الذين يتركزون في إقليم ماسينا و أخيراً الفولاني في إقليم أداموا بالكاميرون[2].
بالكاميرون[2].

ومن أبرز الشخصيات التي أنجبها هذا الشعب، الشيخ عثمان دان فودو الذي قاد حركة إصلاحية دينية انطلقت من بلاد الهوسا، و انتهت بتكوين إمبراطورية إسلامية واسعة في بلاد إفريقيا نهاية القرن الثامن عشر (18م) و خلال القرن التاسع عشر الميلاديين (19م).

إضافة إلى هذه الشعوب، توجد شعوبٌ أخرى في منطقة غرب إفريقيا، مثل مجموعة الديولا Dioula، البالنت Balantes و الصوصو Sosso في منطقة الكازامنس و غينيا و التي تعيش في السهول و في أرجاء هضبة فوتاجالون[3]، قبائل البمبارا Bambara في الشمال الغربي لنهر النيجر و المعروفين بعدائهم الشديد للمسلمين، قبائل الأشانتي التي تعيش في الأراضي الداخلية لغانا، قبائل الفانتي في أجزاء من ساحل غينيا، و مجموعة ايوِ Ewé في شرق غانا و جنوب التوغو ، و الفون Fon في جنوب بِنين و أخيراً مجموعة الكرو Krou التي تتركز في الغابات الكثيفة بين رأس النخيل في ليبيريا و غرب كوت ديفوار[4].

و نظراً لهذا التنوع العرقي الكبير، فإن إفريقيا الغربية تشهد تنوعاً لغوياً و دينياً كذلك.ففي المنطقة يتم التكلم بمائة و خمسين (150) لغة محلية مع أن لغة الاستعمار هي السائدة، و من اللغات الأكثر استعمالاً هي لغة الهوسا التي يتكلم بها حوالي خمسة و عشرون مليون شخص، منهم عشرون في نيجيريا و الباقي في النيجر و غانا و الكاميرون.أما العربية فإنها تستخدم في موريتانيا و لها حضور في الأوساط الدينية في غرب إفريقيا و بالأخص في السنغال و مالي و النيجر.و بالنسبة للديانات فإن معظم السكان في المنطقة مسلمون، و البقية هم مسيحيون أو وثنيون أو يدينون بديانات أخرى[5].

---

[1]– إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق** ، ص 27.

[2] – محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق** ، ص 44.

[3]– إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 28.

[4]– المرجع نفسه، ص ص 29،30.

[5] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص ص27،26.

في نهاية هذا المبحث نكتشف مدى التنوع العرقي و الديني و الثقافي في غرب إفريقيا، و هو التنوع الذي ترك – و لا زال – آثاراً على الحياة العامة بالمنطقة و العلاقة بين الشعوب المختلفة و الاستقرار السياسي على العموم.

المبحث الثالث: لمحة تاريخية عن غرب إفريقيا.

إن الحديث عن تاريخ إفريقيا عادة ما يرتبط بفكرة الغموض، و أنَّ إفريقيا هي قارة بدون تاريخ و لا حضارة، خاصة في القرون القديمة إذا ما استثنينا حضارة وادي النيل، كما روَّج لذلك بعض المؤرخين و المفكرين الأوربيين.فالفيلسوف الانجليزي ديفيد هيوم يقول:(إنَّ إنسان إفريقيا لا يملك شيئاً من الصناعات و الفنون)، و يقول الفيلسوف الألماني هيجل:(أنَّ إفريقيا ليست جزءاً من العالم الحضاري)[1].كما روَّج البعض الآخر لفكرة مفادها أن تاريخ هذه القارة يبدأ فقط مع التواجد الاستعماري الأوربي، و ما خلَّفه المبشرون والمستكشفون و المستعمرون في الأزمنة الحديثة من كتابات فقط[2].

لكن هؤلاء المفكرين و المؤرخين الأوربيين أخطأوا في التقليل من شأن التاريخ و الحضارة الإفريقيين، مستغلين في ذلك نقص المصادر التي غطَّت كل الفترات التاريخية و الحضارية للمنطقة، و كذلك نقص الأبحاث العلمية و الأثرية و تأخر الاهتمام بالتاريخ الإفريقي.و مما يُثبت خطأ هذه الافتراضات الأوربية هو أن الأبحاث الأثرية أظهرت بأن القارة الإفريقية هي أول قارة عرفت تواجداً للإنسان[3]، حيث اكتُشِفت بقايا بشرية يرجع تاريخها إلى أربعة عشر (14) مليون سنة مضت[4]، و كذلك لبقايا تعود لحضارات محلية قديمة، و أثبتت الكشوف الأثرية كذلك بأن حوض النيجر كان مركز نشاط و مدنية منذ أقدم العصور[5].أضف إلى ذلك أن البرتغاليين عندما

---

[1]– أحمد إبراهيم دياب: **المرجع السابق**، ص 23.

[2]– بلقاسم الحناشي: **من إشكالية تاريخية إفريقيا نموذج جنوب غرب الصحراء** ، المجلة التاريخية المغاربية ، العدد 116 ، ماي 2004 ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات ، زغوان ، تونس ، ص 32.

[3]– نقولا زيادة: **إفريقيات دراسات في المغرب العربي و السودان الغربي**، الطبعة الأولى، رياض الريس للكتب و النشر، لندن، بريطانيا: 1991 ، ص 310.

[4]– عيسى علي إبراهيم: **الفكر الجغرافي و الكشوف الجغرافية**، دار المعرفة، الإسكندرية، مصر: 2000 ، ص 112.

[5]– سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 174.

وصلوا إلى سواحل إفريقيا الغربية و الشرقية، اندهشوا لمستوى الحضارة و الرفاهية و المدن المزدهرة التي وجدوها في تلك المناطق[1].

و من خلال الحديث عن مصادر تاريخ غرب إفريقيا، يستخلص الباحث مدى وفرتها مقارنة ببقية مناطق إفريقيا خاصة ما يتعلق بفترة العصر الحديث.ذلك أن هذه المنطقة قامت فيها دول و إمبراطوريات بلغت قِمَّةً من الازدهار، ما زالت بعض معالمه وآثاره تشهَد عليه إلى اليوم، كما كشفت على ذلك الأبحاث الأثرية، و هي أبحاث لا زالت متواصلة و تنبش في أسرار هذه الدول التي لازال يكتنفها الغموض لحد الآن.فمعهد الدراسات الإفريقية في غانا مثلاً، اكتشف بضعَ مئاتٍ من الوثائق المكتوبة منها واحدةٌ بلغة الهاوسا تتناول أصول ممالك الموسي[2]، كما كشفت الأبحاث الأثرية مؤخراً عن بقايا مدينة "كومبي صالح" عاصمة مملكة السنغاي، فيها آثارٌ إسلامية[3].

و في ما يخص المصادر المكتوبة، تبرز أهمية المصادر العربية التي تُعتبر الأهم بين بقية المصادر[4]، خاصة في الفترة التي بلغت فيها منطقة غرب إفريقيا ذروة ازدهارها، و هي فترة الممالك و الدول الإسلامية، و تبقى كتابات و مؤلفات الرحالة و المؤرخين العرب المرجع و المصدر الأولين لهذا التاريخ[5]، و لا يمكن تجاهلها و لا الاستغناء عنها من قِبل الدارسين لتاريخ إفريقيا الغربية عامةً.و قد أنصف عدد من المؤرخين الأوربيين نظرائهم العرب و المسلمين ، و اعترفوا لهم بالفضل في تزويدهم بالمعلومات الكافية حول أجزاء من السودان الغربي في فترات محددة، و نذكر منهم المؤرخ الانجليزي جي دي فيج الذي أشاد بالأخبار و المعلومات التي خلفها المؤرخون العرب عن الفترة الممتدة بين القرنين العاشر (10) و الحادي عشر (11) الميلاديين[6].

لقد ترك هؤلاء الرحالة و المؤرخون العرب الكثير من الكتابات حول هذه المنطقة، حملت تفاصيل دقيقة حول النظام السياسي للدول، الحالة الاجتماعية، الأنشطة الاقتصادية، الحياة

---

[1] - جاسم محمد ظاهر: **المرجع السابق**، ص17.

[2]- جوزيف كي- زيربو: **تاريخ إفريقيا السوداء**، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية، مصراتة، ليبيا: 2001، ص 22.

[3]- فيصل محمد موسي: **المرجع السابق** ، ص 54.

[4]- عبد القادر زبادية: **حول إهمال المصادر الأصلية في تاريخ غرب إفريقيا قبل العهد العثماني – قضية دياخنكه كمثال –** ، المجلة التاريخية المغربية للعهد الحديث و المعاصر ، العدد 3، جانفي 1975 ، تونس ، ص 81.

[5]- بلقاسم الحناشي: **المرجع السابق** ، ص 34.

[6]- جي دي فيج: **المرجع السابق** ، ص 26.

الدينية و الهندسة المعمارية، و ساهمت مساهمة مهمة في تغطية جوانب أساسية من تاريخ إفريقيا[1].

و من هذه المصادر العربية الهامة للمنطقة هناك "تاريخ السودان" لعبد الرحمان السعدي، و "تاريخ الفتَّاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس و ذكر وقائع التكرور و عظائم الأمور" للقاضي محمود كعت[2]، و تكمن أهمية هذين المصدرين في كون مؤلفيهما من أبناء المنطقة ممن عايشوا الكثير من أحداث المنطقة أو سمعوا عنها.و إلى جانب هذين المؤلفين، هناك مصدرين آخرين لا يقلان أهمية عن الأولين، حيث تركا تأثيراً كبيراً في الدراسات التاريخية و الجغرافية بأوربا و ظلاَّ مرجعاً أساسياً عندها حتى القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، و هما كتاب الرحالة ابن بطُّوطَّة★ المعروف بـ "رحلة ابن بطوطة" و كتاب "وصف إفريقيا" لحسن الوزّان★★، اللذين قاما بزيارة بلاد السودان الغربي و سجلوا ما شاهدوه بدقة جعلتهما من أوثق المراجع في هذا السياق.لكن هذا لا يقلل أبداً من شأن المؤرخين و الجغرافيين العرب الذين تركوا بعض الكتابات حول غرب إفريقيا، و نذكر منهم ابن حوقل، المسعودي، البكري، الإدريسي، ياقوت الحموي، ابن خلدون و ابن سعيد الغرناطي[3]. و الملاحظ لدى الباحث، أنَّ بعض المؤرخين الأوربيين قد تنكَّروا لهذه الحقيقة التاريخية حيث أهملوا هذه

---

[1] – جوزيف كي– زيربو: **المرجع السابق** ، ص20.

[2] – عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء،** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1989، ص56.

★ – (1304–1377م) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ولد بطنجة، و طاف في مصر و سوريا و جزيرة العرب و إفريقيا و آسيا الصغرى و روسيا الجنوبية و الهند و الصين و الأندلس.اشتهر بكتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار" (ظاهر جاسم محمد: المرجع السابق، ص 19)

★★ – هو الحسن الوزان المشهور بليون الإفريقي، ولد بغرناطة عام 1493م.بدأ رحلاته في الشمال الإفريقي و بلاد السودان الغربي.في 1518م وقع في الأسر على يد قراصنة مسيحيين فنقلوه إلى أوربا و سلموه للبابا "ليو العاشر" الذي أطلق عليه اسمه (المرجع نفسه، المكان نفسه)

[3] – محمد بن عبد الحفيظ كنون الحسني: **السودان من خلال كتابات العلامة عبد الرحمان بن خلدون،** الطبعة الأولى، ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا: 1999، ص 416.

المصادر و اعتمدوا على مصادر ثانوية و على الافتراض الشخصي[1]، حتى اعتقد الكثير من الأوربيين أن تاريخ الشعوب الإفريقية لا يمكن فيه تجنب التزييف في تقدير الوقائع التاريخية.

إننا في هذا المبحث لا نريد استعراض تاريخ غرب إفريقيا في جميع فتراته بالتفصيل، إنما سنكتفي بالتعرض للعصر الذهبي من هذا التاريخ الذي شهدت فيه المنطقة قيام العديد من الدول و الإمبراطوريات القوية و المزدهرة، و ذلك بعد القرن العاشر الميلادي (10م).و بالحديث عن العصر الذهبي لا بد من الإشارة إلى دخول الإسلام للمنطقة، و ذلك للدور المهم الذي أداه هذا الدِّين الحنيف في ازدهار هذه الإمبراطوريات، و رُقي الحياة فيها[2].يعود دخول الإسلام لبلاد غرب إفريقيا إلى العهد الأموي عندما أرسل بني أمية جيشاً إسلامياً لفتح بلاد السودان، فاستقرت جالية من هذا الجيش في بلاد غانا[3]، لكن الكثير من الآراء التاريخية تعتبر بداية عهد الإسلام بالمنطقة يعود إلى مجيء المرابطين بقيادة عبد الله بن ياسين، و الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ في انتشار هذا الدين بالمنطقة[4]، حينما قاموا بغزو غانا القديمة بداية من سنة (454هـ/1062م) و استطاعوا السيطرة على أراضيها عام (469هـ/1076م)[5].و هنا لا يمكن تجاهل دور التجار المسلمين الذين كانوا عاملاً رئيساً في انتشار الإسلام ببلاد السودان أيام ازدهار التجارة بها، خاصة مع مجيء القرن الثالث عشر الميلادي (ق13م) حينما أصبح تُجار السودان مسلمين و تحولوا إلى أكبر الناشرين له[6]، و هذا بسبب صدقهم في المعاملات التجارية و تصرفاتهم الأمينة[7] ، مما حَمَلَ الكثيرَ الكثيرَ من الأهالي الوثنيين على اعتناق الدِّين الحنيف.

و في ما يلي سنحاول تقديم لمحة عن أهم الدول و الممالك الإسلامية و غير الإسلامية التي نشأت و ازدهرت في غرب إفريقيا، و هي:

1- إمبراطورية غانا: تعتبر غانا أول الإمبراطوريات التي عرفتها منطقة غرب إفريقيا و يجد الباحث اختلافاً حول تاريخ قيامها حيث هناك من يقول بأنها قامت منذ القرن الأول

[1]- عبد القادر زبادية: **حول إهمال المصادر الأصلية في تاريخ غرب إفريقيا قبل العهد العثماني**، ص84.

[2]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 173.

[3] – محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص ص33،32.

[4]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق**، ص 180.

[5] - Roland, Oliver and Fage, J.D : op.cit, p.70

[6] – Ibid, p.71

[7]- نقولا زيادة: **المرجع السابق** ، ص 309.

الميلادي (ق1م)[1]، و هناك من يقول بأنها نشأت منذ القرن الرابع الميلادي (ق4م)[2].لقد بلغت ذروتها في القرن العاشر الميلادي (ق10م)[3]، حيث امتد نفوذها ليشمل جنوب موريتانيا و شرق السنغال و جزءاً من مالي و ربما غينيا[4].عرفت خلال وجودِها حُكم أربعين ملكاً نصفهم قبل الهجرة النبوية[5] و كانت مدينة "كومبي★" أو "كومبي صالح" عاصمة هذه الإمبراطورية، لكن أهم أهم مركز تجاري فيها كان مدينة أوداغشت[6] التي زارها ابن حوقل كأول جغرافي و رحالة معروف يصل إليها[7].و على عكس إمبراطوريات غرب إفريقيا، كانت غانا وثنية[8]، لكن ملوكها استعانوا كثيراً بالموظفين و المستشارين المسلمين[9]، و عاش فيها المسلمون الذين كانوا في أغلبهم تجار.و كان الجزء الأكبر من شعب غانا ينتمي إلى السوننك، الذين دخلوا الإسلام بعد دخول المرابطين إلى أراضي الإمبراطورية في القرن الحادي عشر الميلادي (ق11م)[10].

لقد استمر وجود الإمبراطورية حتى القرن الثالث عشر الميلادي (ق13م)[11]، و عرفت خلال وجودها ازدهاراً تجارياً كبيراً، مستفيدة في ذلك من موقعها وسط الطرق التجارية بين

---

[1]– سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 177.

[2]– أحمد سويلم العمري: **الإفريقيون و العرب** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، مصر: 1967 ، ص27.

[3] –COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : **La découverte de l'Afrique**, L'Harmattan , 2003, p.53.

[4]– عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، ص 12.

[5]– Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome 4, p.14-15.

★ – حُدد موقعها سنة 1949م، و هو يقع على بعد 205كم إلى الشمال من مدينة بماكو الحالية (زبادية (عبد القادر): الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، ص13)

[6]– نقولا زيادة: **المرجع السابق** ، ص 318.

[7]– لطف الله قاري: **الرحالة العرب مستكشفو غرب إفريقيا جنوب الصحراء** ، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الاسلامي ، المجلد المجلد الأول ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، السعودية: 2004 ، ص 187.

[8]–Dumont, Jean (ed.) : op.cit,Tome 4, p.16

[9]– شوقي عطا الله الجمل: **تنبكت و علاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي و تحت الحكم المغربي** ، الطبعة الأولى ، ندوة المغرب و إمبراطورية السنغاي في نهاية القرن 16 م في أكتوبر 1992 ، معهد الدراسات الإفريقية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب: 1995 ، ص 36.

[10]– محمد حجي: **ابن بطوطة و الحسن الوزان في بلد السودان الغربي وراء الصحراء**، مجلة المناهل، العدد 60، يناير 2000، ص 53.

[11]– شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق** ، ص 36.

أراضي الزنوج و أراضي الشمال، و احتوائها على مناجم الذهب[1].إن أسباب ضعف غانا غير معروفة بالتحديد، لكن هجوم المرابطين على أراضيها و استيلائهم على عاصمتها كومبي عام (459 هـ/1067م) هو واحدٌ منها[2].

2- **إمبراطورية مالي:** تعتبر إمبراطورية مالي أقوى و أغنى إمبراطورية إسلامية في السودان الغربي، يعود تاريخ تأسيسها إلى مطلع القرن السادس الميلادي (ق6م)[3] على يد قبائل الماندينج[4]، و استمر وجودها حتى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي (ق17م)[5].لقد (ق17م)[5].لقد اتخذت حوض النيجر محوراً لها ، و امتد نفوذها إلى مالي، شرق السنغال، شمال غينيا و بوركينافاسو و بنين و جنوب موريتانيا[6]، حيث بلغت أقصى اتساعٍ لها في عهد الملك "منسى موسى" (707-732هـ/1307–1332م)، إذ قاربت مساحتها مساحة دول غرب أوربا مجتمعة [7].و على العكس من غانا كانت هذه الإمبراطورية إسلامية[8]، و اعتنق ملوكها الإسلام بدعوة من المرابطين[9].

في القرن الثالث عشر الميلادي (13م) تمكَّنت هذه الإمبراطورية من التوسع على حساب كل من إمبراطورية الصوصو التي أخضعتها حوالي عام (632هـ/1235م)، و من بعدِها إمبراطورية غانا حوالي (638هـ/1240م)[10].

و يُلاحظ الباحث أن المصادر قد ذكرت بأن إمبراطورية مالي عرفت ازدهاراً اقتصادياً، اجتماعياً و سياسياً بارزاً في تاريخ المنطقة، كان العامل الأساس في بلوغه هو التجارة، بفضل تحكمها في المناطق الغنية بالذهب و طرق التجارة مع الشمال الإفريقي.و لعل من علامات هذا الازدهار حج أحد ملوكها المشهورين و هو "منسى موسى"، الذي بذل مجهودات مُعتبرة في نشر

---

[1]- شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق** ، ص 29.

[2] - عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، ص 15.

[3]- أحمد سويلم العمري: **المرجع السابق** ، ص 27.

[4]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 177.

[5]- اليونسكو: **المرجع السابق**، ص 315.

[6]- محمد حجي: **المرجع السابق** ، ص 54.

[7]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق** ، ص ص 34 ، 35.

[8] -COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p.61.

[9] - أحمد سويلم العمري: **المرجع السابق** ، ص 27.

[10] -COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p.59.

الإسلام[1]، حينما شدَّ انتباهَ أهل البلاد التي مر بها أثناء رحلة الحج بسبب كمية الذهب الضخمة التي حملها معه، و البالغة ثمانين (80) جِملاً، كل جِملٍ ثلاثة قناطير حسب ما ذكره ابن خلدون[2]، و التي وزَّعها بسخاء كبير و هو في طريقه إلى الحج و هذا ما لم يُعهد عن الملوك الآخرين، حتى أنّ المؤرخين أفردوا لهذه الرحلة صفحات عدة في كتاباتهم حملت إعجاباً بهذا الملك وكمية الذهب التي كان يحملها معه، و أبرزهم ابن خلدون[3].و قد أثَّر هذا الازدهار الاقتصادي على الحياة الاجتماعية و الثقافية و السياسية التي عرفت تطوراً و استقراراً كبيرين، عاد بالفائدة على جميع شعوب الإمبراطورية التي وصلت درجةً من الرخاءِ، و وفَّر جواً من الأمن الذي وصفه الرحالة ابن بطوطة لدى زيارته لهذه الإمبراطورية سنة (753هـ/1352م)[4] حيث يقول:" فلا يخاف المسافر فيها فيها و لا المقيم من سارق و لا غاصب"[5].

إن الرخاء الاقتصادي و الاجتماعي و الاستقرار السياسي وفَّر جواً مناسباً جداً لقيام حركة علمية و ثقافية كبيرة ساهم فيها العرب و المسلمون بشكل كبير. هؤلاء العرب و المسلمين الذين حفزهم الدافع الديني أولاً و من بعده الدافع المادي للاستقرار في هذه البلاد، ناقلين معهم معارف مختلفة في شتى العلوم و بالأخص العلوم الشرعية، و اللغة العربية التي انتشرت بشكل واسع و سهَّلت عملية التعلم، و كانت جسراً بين الحضارتين العربية الإسلامية و الإفريقية[6].و لعل أكبر أكبر شاهد على هذه النهضة العلمية الوصف الذي تركه حسن الوزان للحياة العلمية في بلاد مالي لدى زيارته لها، عندما أبدى إعجاباً بالكم الهائل للمخطوطات التي رآها في تمبكتو، حيث قال بأن هذه المخطوطات كانت في تجارتها تحقق أرباحاً تفوق أرباح جميع السلع الأخرى[7] ، و هذا يُثبِت الإقبال الهائل على المخطوطات طلباً للعلم و المعرفة.

---

[1]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 180.

[2]- عبد الرحمان ابن خلدون: **ديوان العبر و المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد السادس، دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان: 1983 ، ص 416.

[3]- راجع تفاصيل الرحلة في كتاب ابن خلدون في الصفحتين 416 و 417.

[4]- أحمد سويلم العمري: **المرجع السابق** ، ص 27.

[5]- محمد حجي: **المرجع السابق** ، ص 58.

[6]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق**، ص ص 189 ، 190.

[7]- محمد حجي: **المرجع السابق**، ص 60.

و لا يمكننا أن نتكلم عن مالي و ازدهارها الاقتصادي و العلمي دون الإشارة لواحدة من أهم الحواضر التي عرفها السودان الغربي و هي تمبكتو.تأسست تمبكتو في النيجر الأعلى خلال القرن الحادي عشر الميلادي (ق11م)، و خضعت لإمبراطورية مالي في البداية ثم بعد ذلك إمبراطورية سنغاي[1]، و بلغت أوجها في القرن السادس عشر الميلادي (ق16م) حيث بلغ عدد سكانها آنذاك خمسة و ثلاثين ألف نسمة و شهدت نشاطاً كبيراً في حركة التدريس و التعليم، و توافد عليها عدد من الأساتذة و الطلاب من بلاد المغرب مما ساهم في تنشيط الحياة التعليمية و الثقافية بها[2]، و جعل منها عاصمة للثقافة الإسلامية تفوق المدن الأخرى في جميع البلدان من بلاد السودان حتى أقصى المغرب حسب ما ذكره القاضي محمود كعت[3].و قد بدأ إشعاع هذه الحاضرة الحاضرة يخفت بعد الغزو المغربي لها نهاية القرن السادس عشر الميلادي (16م)، ثم الوقوع تحت حكم الطوارق مع نهاية القرن الثامن عشر (18م)[4].

و من مظاهر التطور الذي وصلت إليه إمبراطورية مالي، نجد كذلك النهضة المعمارية التي عرفتها هذه الإمبراطورية التي كانت بدايتها مع استقدام الملك منسى موسى للمعماري أبا إسحاق الساحلي الأندلسي أثناء عودته من الحج، حيث شيَّد هذا المعماري عدة معالم معمارية في كل من غاو و تمبكتو[5]، كانت آنذاك بمثابة تحفٍ معمارية، و أدخلت الهندسة المعمارية العربية الإسلامية إلى بلاد السودان الغربي.

بعد هذا النمو و الازدهار الذي دام قروناً، بدأت مالي بالتدهور في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي (ق16م)، و تعود أسباب هذا التدهور إلى استيلاء الطوارق على تمبكتو و جني، خروج بعض المناجم الهامة عن سيطرتها، الصراع على السلطة و تعرضها للغزو من طرف القبائل و الدول المجاورة خاصة سنغاي من الجهة الشرقية[6].

---

[1] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 165.

[2] – عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، ص ص 61،62.

[3] – المرجع نفسه، ص73.

[4] – إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 165.

[5] – شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق**، ص 37.

[6] – عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، ص19.

3- إمبراطورية السنغاي أو صنغي: ظهرت هذه الإمبراطورية حوالي القرن السابع الميلادي (ق7م)[1]، و استمر وجودها حتى القرن السادس عشر الميلادي (ق16م).ظهرت على الضفة الشمالية لنهر النيجر[2] و توسَّعت لتشمل معظم المناطق التي كانت تخضع لإمبراطوريتي غانا و مالي[3]، و ضمَّت حوالي ستين مملكة سودانية صغيرة، زار حسن الوزان خمسة عشر مملكة منها[4].كانت عاصمتها الأولى مدينة كوكيا★ ثم انتقلت إلى بلدة غاو عند ثنية نهر النيجر[5]، و عندما عندما استولت هذه الإمبراطورية على مدينة تمبكتو أصبحت هذه المدينة العاصمة الثانية لها[6] .

حكَمَت هذه الإمبراطورية عائلتان مشهورتان، الأولى هي عائلة سِني أو سِنْ، و من أشهر ملوكها سُني علي أو علي الكبير الذي حكم في الفترة (868-897هـ/1464-1492م).هذا الملك هو الذي استولى على مدينة تمبكتو سنة (873 هـ/1468م)[7]، و بلغت المملكة في عهده أقصى اتساعها [8].أما العائلة الثانية فهي عائلة الأسكيا أو الأسقيا التي جاءت بعد حكم سني علي[9]، و من أبرز حكامها الأسقيا محمد، الذي حكم الإمبراطورية في الفترة (899-935 هـ/1493-1528م)[10]، و عُرِف الأسقيا محمد بإكرام وِفادة العلماء الذين كانوا يفدون على المنطقة، أبرزهم العلامة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي عاش فترة مهمة من حياته في السودان الغربي و منطقة توات.

---

[1]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق**، ص 177.

[2]- المكان نفسه، ص 177 .

[3]- نقولا زيادة: **المرجع السابق** ، ص 318.

[4]- محمد حجي: **المرجع السابق** ، ص 60.

★ - تقع جنوب مدينة غاو بحوالي 150 كم (زبادية عبد القادر: الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، ص20)

[5]- جي دي فيج: **المرجع السابق** ، ص 19.

[6]- شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق** ، ص 41.

[7]- المكان نفسه، ص 41.

[8]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 177.

[9]- أحمد سويلم العمري: **المرجع السابق** ، ص 28.

[10]- شوقي عطا الله الجمل: **المرجع السابق** ، ص 38.

و على غِرار إمبراطوريتي غانا و مالي، تركت سنغاي بصمتها في تاريخ المنطقة، و ذلك بالنظر إلى الفترة التي استغرقها حُكمها، و المساحة التي أخضعتها إليها.إضافة إلى الازدهار التجاري الكبير الذي عرفته بسبب وفرة الذهب، و الحركة التجارية النشطة فيها كما شهِد على ذلك حسن الوزان الذي زار عاصمتها جاو[1].كما كانت الإمبراطورية ميداناً رحباً للعلم و قِبلة للعلماء، و كانت تمبكتو رمز هذه النهضة العلمية. استمر وجود هذه الإمبراطورية حتى غزاها المغاربة السعديون في عهد المنصور الذهبي[2] في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (ق16م)[3]، رغبة في الاستيلاء على ذهبها و ثرواتها و هو ما قضى على النسيج السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي للإمبراطورية.

إلى جانب هذه الإمبراطوريات، عرفت منطقة غرب إفريقيا ممالك أخرى لكنها أقل ازدهاراً و توسعاً مثل:

أ- مملكة كانم – بورنو : أسس هذه المملكة شعب البولالا قبل مجيء الإسلام و في القرن العاشر الميلادي (ق10م) أسلمت كلياً، و من أشهر سلاطينها، الذين عملوا على تثبيت وجودها، السلطان ادريس علومة (979-1012هـ/1571-1603م)[4].

اعتمدت مملكة كانم – بورنو في اقتصادها على التجارة، حيث كانت تصدر الرقيق و العاج و ريش النعام بينما كانت تستورد الخيل لأهميتها الحربية، و هذا ما يدل عليه عدد الخيول في فرقة الفرسان في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي (ق13م) حيث بلغ واحداً و أربعين ألف حصان[5].و تتميز هذه المملكة عن بقية الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا بالاستمرارية، حيث تناوب على حكمها ملوكٌ ميَّزهم حب العلم و قوة الشخصية إلى غاية مجيء الاحتلال الفرنسي للمنطقة نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (ق19م)[6].

---

[1]- محمد حجي: **المرجع السابق** ، ص 61.

[2]- عبد العزيز الحلوي: **الأحوال الاجتماعية لسكان الصحراء الكبرى و السودان الغربي من خلال بعض كتب الرحلات** ، الطبعة الطبعة الأولى ، ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا: 1999 ، ص 578.

[3]- إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 165.

[4] – عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، ص ص25،24.

[5] – اليونسكو: **المرجع السابق**، ص258.

[6] – عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، ص25.

ب- ممالك الهوسا : كان لفظ الهوسا يُطلق على الشعوب و القبائل الساكنة بين مملكتي بورنو شرقا و المنطقة الواقعة في الضفة الغربية لنهر النيجر شرقاً أي هي المناطق المعروفة اليوم بنيجيريا[1]، و هي مناطق تمتاز بخصوبتها الشديدة[2] .لقد نشأت هذه الممالك أو الدول-المدن، التي هي مدن حصينة شبيهة بالمدن الإقطاعية التي نشأت في أوربا، في نهاية القرون الوسطى، مستغلة الاستقرار الذي عرفته المنطقة، و من هذه المدن دورا، جبير، كانو، رانو، كاتسينا و زايا[3] .

ج- مملكة التكرور: هي مملكة قامت في حوض السنغال الأدنى في القرن الحادي عشر الميلادي (ق11م)[4]، و كانت أولى ممالك غرب إفريقيا التي دخلت الإسلام في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (ق11م)[5].استمر وجود هذه المملكة إلى غاية احتلال الفرنسيين لمنطقة السودان الغربي[6].

د- مملكة الصوصو : تميزت هذه المملكة الوثنية بالتقلب، فأحياناً تقوى و أحياناً أخرى تضعف، تمكنت في عز قوتها من إضعاف إمبراطورية غانا، و استمرت حتى أخضعتها مملكة مالي[7].

و- دويلات بمبارا: أهمها دولة سيجو★ Segou و كارته★★ Kaarta.استطاعت هذه الدويلات السيطرة على تمبكتو و جني في فترة ضعفهما، و استمرت حتى قضى عليها الحاج عمر الفوتي و فرض عليها اعتناق الإسلام[8] خلال القرن التاسع عشر الميلادي (ق19م).

هذه لمحة تاريخية موجزة أردنا منها إبراز بعض معالم غرب إفريقيا الحضارية بصفة عامة، و حاولنا بها التعريف بالمنطقة من خلال التطرق إلى أزهى فترات تاريخها.

---

[1]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص ص 178 ، 182.

[2]- فيصل محمد موسي: **المرجع السابق** ، ص 57.

[3]- المكان نفسه ، ص 57.

[4]- سيد أحمد العراقي: **المرجع السابق** ، ص 177.

[5]- جي دي فيج: **المرجع السابق** ، ص 25.

[6]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق**، ص 37.

[7]- المرجع نفسه، ص 38.

★ – مدينة تقع حالياً في مالي، على الضفة اليمنى لنهر النيجر (Dumont, Jean (ed.) : op.cit,Tome 4, p.335)

★★ – منطقة في شمال نهر السنغال الأعلى، و يعيش فيها البمبارا (GDEL, Tome 6, p.5930)

[8]- محمود طه أبو العلا: **المرجع السابق**، ص 40.

يبرز لنا من خلال ما رأيناه في هذا الفصل مدى حيوية منطقة غرب إفريقيا من الناحيتين الطبيعية و البشرية، نتيجة التنوع الطبيعي و العرقي فيها و غناها بالثروات الطبيعية.و هي الحيوية التي أعطاها الإسلام بُعداً آخر هو البُعد الروحي، مما ساهم في صهر الكثير من أعراق المنطقة في بوتقة واحدة، كانت نتيجته قيام دول مزدهرة شملت مساحات واسعة و شعوباً مختلفة استمرت لقرون عديدة و ربطت علاقات وطيدة مع بلاد شمال إفريقيا و البلاد الأخرى.فكانت تلك صورة من صور الرقي الحضاري الإفريقي الذي أنكره بعض الأوربيين عند مجيئهم إليها سواءً كمكتشفين أو كمحتلين.

الفصل الثاني: نشأة الحركة الاستكشافية الجغرافية في أوربا

المبحث الأول: نشأة الحركة الاستكشافية الجغرافية الأوربية

المبحث الثاني: الأوربيون يستكشفون الساحل الغربي لإفريقيا

المبحث الثالث: ظهور الجمعيات الجغرافية بأوربا

بدأت أوربا في النهوض و الانفتاح و التمرد على الكنيسة، و أصبحت تطمح في بلوغ ما بلغه الشرق من حضارة و تقدُّم أثناء العصور الوسطى نتيجة لعوامل داخلية و خارجية.غير أن هذا الطموح سرعان ما اصطدم بحاجز عرقل تحقيقه، إنه العالم الإسلامي.لقد شكَّل العالم الإسلامي عقبة حقيقية أمام أي محاولة أوربية للاتصال المباشر بالعالم الخارجي للتعرف عليه و الاستفادة منه، خاصة في ظل عدم توازن القوى بين العالم الإسلامي و أوربا المسيحية، وهذا ما دفع بهذه الأخيرة إلى التفكير في الالتفاف حول العالم الإسلامي من أجل الوصول إلى الشرق الأقصى و ربط علاقات سياسية و اقتصادية معه، و محاولة إضعاف الغريم الإسلامي من الخلف.

إن الإصرار الأوربي على بلوغ هذا الهدف، كان السبب في ظهور حركة الكشوف الجغرافية الأوربية، التي مكَّنت الأوربيين من الوصول إلى مناطق بعيدة، بل اكتشاف مناطق جديدة لم تكن معروفة من قبل، و معها تغير واقع القارة الأوربية التي بدأت تثِق في قوتها و تطلعت إلى كسر الحاجز الإسلامي، فكان لها ذلك بعدما تمكنت من الوصول إلى الهند و إنهاء الوساطة الإسلامية في تجارة التوابل بينها و بين الهند، و هي الوساطة التي صنعت قوة العالم الإسلامي فترة طويلة من الزمن.

لقد كانت الاكتشافات الجغرافية منعرجاُ حاسماً في تاريخ أوربا، حيث بدأ معها التفوق السياسي و الحضاري لهذه القارة، لأن حركة الاستكشاف الجغرافي لن تتوقف بمجرد الوصول إلى الهند، بل تواصلت بعد ذلك قرابة الخمسة قرون، و إن بوتيرة متفاوتة حسب الظروف و الأوضاع، حتى استطاع الأوربيون التعرف على قارات و بحار و محيطات العالم، و بَسْطِ هيمنتهم عليها.

المبحث الأول: نشأة الحركة الاستكشافية الجغرافية الأوربية.

خلال القرون الوسطى كانت معرفة أوربا بمناطق العالم المختلفة محدودة جداً، و كان يغلب على هذه المعرفة الطابع الأسطوري و الخرافي.و الحقيقة أن هذه المعرفة المتواضعة يعود سببها إلى الوضع الديني و السياسي الذي كانت تعيشه أوربا آنذاك.

فمن الناحية الدينية كانت الكنيسة تهيمن على المجتمع الأوربي الذي أصبح بسبب جهله ملتزماً التزاما أعمى بتعاليمها، بما فيه حكامه، و هي الهيمنة التي جرَّدت هذا المجتمع من حقِّه في ممارسة السلطة و حرية التعبير و التفكير، إلى درجةِ أن كل من كان يخالف و يناقض تعاليم و

مصالح الكنيسة، كان يُعتبر كافراً جزاؤه القتل، و هكذا عاش الأوربي منغلقاً، محدود التفكير و بعيدٌ كل البعد عن عالم المعرفة و التطور.

أما من الناحية السياسية، فإن أوربا كانت غارقة في الصراعات بين الممالك و العائلات الملكية، و هي الصراعات التي كانت تغذيها و تشجعها الكنيسة و من ورائها رجال الدين، لأنها كانت تضمن لها هيمنتها و استمرارية مصالحها.

و كنتيجة لكل هذه الصراعات و سيطرة الكنيسة السياسية و الفكرية و الروحية، أصبح الإنسان الأوربي منشغلاً عن التطلع لمعرفة العالم الخارجي، فغابت عنه أخبار الأمم و البلدان و الثقافات التي كان يشهدها العالم في تلك الحقبة من تاريخه، و نستثني من ذلك الاهتمامِ العالمَ الإسلامي الذي ظلَّت أخباره حاضرة بقوة في أوساط المجتمع الأوربي بمختلف فئاته و بالأخص منها ما يتعلق بالأرض المقدَّسة أي فلسطين.لكن هذا الاهتمام الأوربي بالعالم الإسلامي، كان بسبب دوافع دينية محضة، و ليست علمية، و هذا في ظل العداء الذي حَكَمَ العلاقة بين العالمين الإسلامي و المسيحي في تلك الفترة، و بلغ ذروته إبان الحروب الصليبية.

ففي سنة (898هـ/ 1492م)، سقطت غرناطة آخر قلعة إسلامية في بلاد الأندلس، و من ثمة استطاع الأوربيون التخلص من الوجود الإسلامي في قارتهم أوربا، لكن الصراع المسيحي الإسلامي لن يتوقف عند هذا الحد، بل تواصل بسبب رغبة الأوربيين في استغلال الضعف المؤقت للمسلمين أملاً في التوسع على حسابهم أكثر خارج القارة الأوربية، و بداية من تلك الفترة تفتحت عيون الأوربيين على العالم الخارجي، و معها تولَّدت الرغبة لديهم في معرفة المزيد عنه.و بالنظر إلى تزامن سقوط غرناطة مع اكتشاف "كريستوف كولومبس Christophe colombos" للقارة الأمريكية حيث وقع كلاهما في نفس السنة، يتأكد لنا مدى هذا التغير الذي حدث على تفكير الأوربيين الذي أصبح موجهاً أكثر نحو الخارج، و هو أمر يحتاج إلى بحث معمق لإبراز تلك العلاقة بين الحدثين الهامين في حياة المسلمين و أوربا المسيحية.

لكن الجمود الفكري الذي كانت تعرفه أوربا كان قد بدأ يزول شيئاً فشيئاً، حيث تعرَّضت القارة لحركة فكرية جديدة قادمة من شرق أوربا، ستبعث العقل الأوربي، و تدعوه إلى التدبُّر و النقد، خاصة في ظل الحصار الذي فرضته الكنيسة عليه.

ففي سنة (857هـ/ 1453م) تمكن السلطان العثماني محمد الثاني من فتح مدينة القسطنطينية مما أربك أوربا و في مقدمتها الكنيسة التي تذكَّرت في هذا الحدث الكبير هزائمها في الحروب الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبي، لكن الهزيمة هذه المرة كانت نتيجتها تغلغل المد الإسلامي في الأرض الأوربية.و هكذا فإن سقوط القسطنطينية بقدر ما كان صدمة لأوربا، فإنه كان في الوقت نفسه بداية لنهضتها الحديثة، حتى أنَّ بعض المؤرخين الأوربيين يعتبرون هذا الحدث بداية للتاريخ الأوربي الحديث[1].

و أثناء حصار "محمد الثاني" للقسطنطينية، فرَّ الكثير من المثقفين اليونانيين إلى إيطاليا و استقروا فيها، و كان لهم تأثير فكري عليها، على غرار جون بيساريون★ Bessarion Jean (802-876هـ/1400-1472م) الذي أصبح كاردينالاً في روما، و شيَّد مكتبة البندقية، التي بدأها بجمع حوالي ستمائة (600) وثيقة يونانية قديمة.هؤلاء المثقفين و المفكرين حمَلوا معهم روح النقد و حِسَّ التجديد و المبادرة الشخصية[2].و كان هذا بمثابة مساهمة إضافية إلى النهضة التي كانت تعرِفها ايطاليا آنذاك، حيث كانت هذه البلاد سبَّاقة إلى النهضة الفكرية الحديثة مقارنة ببلاد أوربا الأخرى، فقد كانت بين منتصف القرن الرابع عشر ومنتصف القرن الخامس عشر الميلاديين تضم أكبر عدد من الأدباء و الفنانين و العلماء و الشعراء، أكثر من أي بلد أوربي آخر، كما أنها كانت مَقصداً لكل طالبي العِلم من الأوربيين و الراغبين في محاكاة ابتكارات الايطاليين و الاستفادة منها[3]، في ظل وجود رعاية مادية و أدبية من حكام إيطاليا.و من العوامل التي ساعدت ايطاليا على بلوغ هذا السَبق النهضوي ما يأتي:

1- الموقع الجغرافي: تتميز شبه الجزيرة الايطالية بكونها قريبة جغرافياً من بلاد الشام و مصر، و هي البلاد التي كانت مزدهرة من الناحية التجارية و الفكرية.
2- كانت إيطاليا مهداً للحضارة الرومانية القديمة، و ظهر فيها شغف شديد لدى الايطاليين لإحياء أمجاد الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

---

[1] BARREAU, Jean-claude et BIGOT, Guillaume **: Toute l'histoire du monde**, Editions Fayard, 2005, p.144

★ - رجل دين بيزنطي، درس في القسطنطينية و أصبح راهباً ثم كاردينالاً عام 843هـ/1439م، عرف بحماسه للكنيسة الرومانية (GDEL, Tome 2, p.1212)

[2] BARREAU, Jean-claude et BIGOT, Guillaume : op.cit, p.146

[3] ج.م روبرتس: **موجز تاريخ العالم** ، الجزء الثاني، ترجمة فارس قطان ، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، سوريا: 2004، ص494.

3- ازدهار التجارة في الإمارات الإيطالية، و على رأسها جنوة★ و البندقية★★، و اتصالها بالشرق، مما ساهم في انتقال الحركة الفكرية إلى ايطاليا، و معرفة التجار الايطاليين بأخبار الشرق و نهضته المتميزة السباقة لأوربا.

4- التنافس الذي كان بين دويلات شبه الجزيرة الايطالية من حيث تشجيع العلوم و الأدب و الفنون، و كمثال على ذلك إمارة فلورنسا★★★ Florence التي أنشأت فيها الأسرة الحاكمة "مديتشي" أكاديمية علمية ذات شهرة عالمية[1].

5- وجود الزعامة الدينية الكاثوليكية المتمثلة في البابا بروما، مما أعطى لهذه البلاد بُعداً روحياً، و جعلها قِبلة لكل الأوربيين.و قد شجَّع الباباوات على دراسة العلوم الإلهية و مختلف الفنون و العلوم الإنسانية، و أنشأوا الكليات و الجامعات و مَوَّلوها بالمال الضروري للنهضة العلمية[2].

6- التلاقح المباشر الذي حَدَثَ بين إيطاليا و الحضارة العربية الإسلامية، عندما وَقَعَتْ صقلية تحت الحكم العربي الإسلامي، وخضعت له مدة مائتين وثلاث وستين (263) عاماً ما بين (212-483هـ/827- 1090م)[3]، و قد كانت صقلية إحدى قلاع الحضارة الإسلامية و ازدهارها العلمي فتدفق إليها الطلاب الأوربيون، الذين ترجموا الكتب العربية إلى اللاتينية[4] و أفادوا منها في نهضتهم من كل حدب و صوبْ.

★ - بالايطالية Genova، مدينة و ميناء رئيسي في شمال غرب إيطاليا على البحر المتوسط.بلغت أوج ازدهارها في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي لما احرزته من تقدم في مجالات الصناعة و رسم الخرائط و أدوات الملاحة (الموسوعة العربية، الطبعة الأولى، مؤسسة الصالحاني للطباعة، سوريا، 1999، المجلد السابع، ص 753)

★★ - بالايطالية Venezia، ميناء و مرفأ رئيسي في شمال شرق إيطاليا، و هي قائمة على 118 جزيرة صغيرة (الموسوعة العربية، المجلد5، ص ص 387،386)

★★★ - مدينة تقع في وسط إيطاليا على نهر أرنو، و هي مدينة تجارية بلغت أوجها في ق15م.كانت في العصور الوسطى المركز العالمي للثقافة و عاش فيها دافنتشي، دانتي و غاليلو (الموسوعة العربية، الطبعة الأولى، المجلد14، ص705)

[1] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ أوربا**، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر: 2000، ص9.

[2] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **تاريخ أوربا الحديث** ، الطبعة الأولى، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية ، مصر: صلاح أحمد 2005، ص 12.

[3] المرجع نفسه، ص 40.

[4] محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى** ، دار المعرفة الجامعية ، بيروت ، لبنان: 2005 ، ص 283.

و يرى الباحث أنه عند البحث في نهضة أوربا عموما في هذه المرحلة، يجدر به إبراز دور الحضارة العربية الإسلامية فيها.و قد تضافرت عدة عوامل في تعرف أوربا على انجازات الحضارة العربية الإسلامية، منها الحروب الصليبية، المبادلات التجارية بين العالم الإسلامي و الإمارات الإيطالية، و الوجود العربي الإسلامي على أراضي القارة الأوربية، بداية بالأندلس التي دام فيها هذا الوجود قرابة الثمانية قرون[1]، ثم جزيرة صقلية الايطالية قرابة القرنين و نصف من الزمن.و من المؤرخين العرب من يضيف طريقاً ثالثة عَبَرَت منه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا، و هي الشرق الأدنى أي شبه جزيرة الأناضول[2].و لكننا نعتقد بأنَّ هذه الطريق لم تسهم في هذا العبور أو كان إسهامها متواضعاً، على اعتبار أن الحضور الإسلامي فيها كان حضوراً عسكرياً أكثر منه حضوراً حضارياً.

كل هذه العوامل جعلت العقل الأوربي يقف متأملاً منبهراً بانجازات نظيره العقل العربي الإسلامي، و جعلته يتعرَّض كل مَرَّةٍ لهزات، أدت إلى به التنبه و النهوض، كما حدث عند سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين عام (858هـ/1453م=، و سقوط غرناطة عام (898هـ/1492م).و إن دعوة ملك صقلية المسيحي "روجر الثاني" للجغرافي المسلم "الإدريسي★" و استضافته في قصره هي من بين الأدلة على إعجاب العقل المسيحي و اهتمامه بالفكر الجغرافي الإسلامي[3]، حيث لبَّى الإدريسي دعوة الملك، و ألَّف في مدينة بالرمو Palermo كتابه المشهور "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"[4].

و من الطبيعي أن أوربا قد سعت إلى بلوغ مستوى الازدهار الفكري و العلمي الذي بلغه العالم الإسلامي، فظهرت حركة واسعة في أوربا من الترجمة للكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، التي كانت آنذاك لغة الدِّين و العلم قبل ظهور اللغات الأوربية الحديثة،إذ استغلت أوربا فترة انحسار الوجود الإسلامي عن أراضيها، لتستولي على الموروث العلمي الضخم الذي خلَّفه المسلمون

---

[1] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 40.

[2] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ أوربا**، ص 7.

★ – هو محمد بن عبد الله بن إدريس الادريسي، ولد في مدينة سبته عام 1100م، و هو في الأصل من عائلة عربية أندلسية هاجرت إلى الشمال الإفريقي.قام بعدة رحلات في إفريقيا (ظاهر جاسم محمد: المرجع السابق، ص 18)

[3] صلاح الدين علي الشامي: **الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية** ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر: 1999 ، ص 161.

[4] محمود سعيد عمران: **المرجع السابق** ، ص 283.

وراءهم في صقلية و الأندلس، و تدفع بحركة الترجمة إلى التطور و الازدهار قصد تحقيق الهدف المنشود المتمثل في النهضة.فبدأت تلك الحركة مع سقوط "طليطلة★" في يد الاسبان عام (451هـ/1058م)، هذه المدينة التي كانت أول و أكبر مركز انتقلت عبره العلوم من المسلمين إلى المسيحيين في غرب أوربا[1].و ازدهرت حركة الترجمة تماشياً مع سقوط الحواضر الثقافية العربية الإسلامية في الأندلس في يد المسيحيين الاسبان، مروراً بقرطبة و إشبيلية، وصولاً إلى غرناطة، فأخذت العلوم و ترجماتها تنتشر انتشاراً سريعاً في أرجاء القارة الأوربية بفضل اختراع الطباعة الحديثة.

و من العلوم المختلفة التي بَرَعَ فيها المسلمون علم الجغرافيا الفلكية، الذي برز فيه العديد من العلماء العرب و المسلمين، و تخصَّصوا فيه و في فروعه المختلفة، و أكَّدوا الكثير من الحقائق، مثل "ابن خرداذبة" الذي أقرَّ كروية الأرض، و "قطب الدين الشيرازي" الذي تحدث عن حركة الأرض حول الشمس، و "البلخي" الذي وضع أول أطلس عربي، و "الإدريسي" الذي اشتهرت خريطته في القرن الثاني عشر ميلادي (ق12م)[2].و كانت الجغرافيا من العلوم التي أولاها الأوربيون اهتماماً بليغاً.فقد اهتم و اعتمد رسامو الخرائط في مدينة "ميورقة" الإسبانية على ما توصَّل إليه الجغرافيون العرب و المسلمون في رسم خرائطهم المشهورة منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي (8هـ/14م)[3]، خاصة علماء الخرائط اليهود الذين كان لهم السبق في ترجمة الاكتشافات العربية الإسلامية[4].كما أن العرب و المسلمين كانوا متقدمين جداً في استخدام الأدوات الفلكية المساعدة للملاحين، مثل الإسطرلاب والبوصلة، و التي تعرف عليها الأوربيون فيما بعد[5].علاوة على ذلك أن العرب و المسلمين كانوا أدرى بشؤون الملاحة و أعْرَفُ بالبحار و بعض السواحل، خاصة سواحل المحيط الهندي الإفريقية و الآسيوية، و ما يدل على هذا التفوق العربي إعجاب

★ – بالاسبانية Toledo، تقع في الجنوب الغربي من مدينة مدريد، فتحها المسلمون عام 93هـ/711م، و عرفت أثناء حكم المسلمين إزدهارا ثقافياً كبيراً (الموسوعة العربية، المجلد12، ص610)

[1] الجمل (شوقي عطا الله)، عبد الرازق(عبد الله) : **تاريخ أوربا**، ص 8.

[2] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص ص 68،67.

[3] لطف الله قاري:**المرجع السابق**، ص 219.

[4] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op.cit, p.85

[5] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق**، ص 69.

فاسكو دو غاما بالملاح العربي ابن ماجد و أدوات الربان العربي و خرائطه المِلاحية الموسومة بخطوط الطول و دوائر العرض[1].

و بفضل انتقال هذه المعرفة الجغرافية العربية الإسلامية إلى أوربا، فقد أصبحت هذه القارة أكثر تفتحاً و ازدهرت فيها علوم الجغرافيا و الفلك والملاحة، و برز فيها عدد من العلماء، أمثال: عالم الفلك و رسام الخرائط الألماني "بيتر آبين★ Peter Apian"صاحب كتاب "الكوزموغرافيا"، الذي بسَّط فيه الجغرافيا و جعلها بأسلوب كتابته الخاص أكثر تشويقا للمهتمين، و بقي مرجعاً جغرافياً أساسياً لمدة قرن من الزمن، و العالم الهولندي "جيرارد كريمر★★ Gerard Kremer" المشهور باسم "مركاتور"، الذي وضع سنة (976 هـ/1568م) المسقط المعروف لخرائط العالم، مما أفاد الملاحين في معرفة الاتجاه الصحيح[2].و يُضاف إلى هذا التراكم المعرفي، مُساهَمَةُ أدب الرحلة في جذب الأوربيين إلى معرفة العالم الخارجي، بعد الانتشار الذي لقيه كتاب "ماركو بولو★★★ Marco Polo" بعنوان "il Milione" سنة (697هـ/1298م)، و الذي ضمَّ سرداً لرحلته الطويلة، و ما شاهده حول مختلف الشعوب الأسيوية، و قد تُرجِم هذا الكتاب إلى جميع اللغات الأوربية و تحول إلى مرجع هام جداً فيما يخص الشرق الأقصى و أدى إلى تخلي الأوربيين عن المصادر الاغريقية و اللاتينية و اعتُمِد من طرف رسامي الخرائط و ألهم المستكشفين الأوربيين في القرن الخامس عشر الميلادي (15م) مثل "كريستوف كولومبوس"، و كتاب "جون دو ماندفيل Jean de Mandeville" الصادر في سنة (758هـ/1357م)، الذي استمر نشره لقرابة القرنين و ترجم كذلك إلى كل اللغات الأوربية؛ و كتاب "فرانسيسكو بيغولوتي Francisco Pigolotti" الذي ألفه سنة (735هـ/1335م) و أصبح مرجعاً للتجار الأوربيين

---

[1] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق**، ص 68.

★ - (1495-1552) عالم رياضيات و جغرافيا و فلك ألماني، اشتهر بخرائطه وكتبه حول علم الفلك، و شاهد عدة مذنبات أشهرها مذنب هالي سنة 1531 (GDEL, Tome 1, p.564)

★★ - (1512-1594) عالم رياضيات و جغرافيا فلمندي Flamand، أصدر أول خريطة له حول العالم سنة 1538م، و اشتهر بإسقاطاته (GDEL, Tome 7, p.6839)

[2] ثريا شرف: **الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي**، ترجمة عبد العزيز طريح شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية: 1993، ص ص 171،168.

★★★ - (1254-1324) رحالة بندقي، لعب كتابه المذكور في الأعلى دوراً هاماً في تنامي الخرافات حول الثروات الهائلة لبلاد الصين و ما جاورها (GDEL, Tome 8, p.8271)

الذاهبين إلى الصين[1].و لا يمكن إغفال كتاب "وصف إفريقيا" لصاحبه حسن الوزان، الذي ترك تأثيراً قوياً على الجغرافيين الأوربيين في القرن السادس عشر الميلادي (ق 16م) مما جعله يُترجم إلى العديد من اللغات الأوربية[2].

و هكذا نتيجة لكل هذه العوامل، اتجه العقل الأوربي نحو معرفة العالم الخارجي و اكتشافه، و بذلك نشأت الحركة الاستكشافية الأوربية، التي حققت اكتشافات كبرى بحرية ثم برية، أحدثت انقلاباً جذرياً في أوربا من جميع النواحي.فقد ساهمت الاكتشافات الجديدة في تطور النهضة الأوربية، حيث طُبِعت كميات هائلة من الكتب حول الأراضي الجديدة المكتشفة و كان إقبال القراء عليها واسعاً، فتغيرت الكثير من الأفكار و المفاهيم و أصبحت الشكوك تحوم و تزيد حول افتراضات الكنيسة[3].

و الحقيقة أن الحركة الاستكشافية الأوربية لم تكن وليدة هذه العوامل فقط، بل تضافرت مجموعة متعددة من العوامل و الظروف على ظهورها، و هيَّأت المناخ المناسب لانطلاقها، و هذا هو جردٌ لأهم هذه العوامل و الظروف:

1-التقدم الكبير الذي طرأ على بناء السفن و وسائل الملاحة، و تعرف الأوربيين على أدوات الملاحة و الجغرافيا مثل الإسطرلاب والبوصلة.و عَرَف تصميم السفن تقدماً من حيث استخدام الأشرعة [4]و إدخال الدفة المتحركة[5]، فأصبحت السفن أكثر سرعة و قدرة على الإبحار لمسافات طويلة.

2-النهضة الأوربية الفكرية التي دفعت الباحثين إلى البحث عن الجديد في جميع المجالات بتشجيع من الجامعات، فأرسلت الدول الأوربية إرساليات قصد معرفة الأراضي المكتشفة الجديدة، و ظهر العلماء المتخصصون في هذه المناطق، تركوا كماً هائلاً من المعلومات حول هذه المناطق[6].

---

[1] أحمد بوشرب: **أسباب و مراحل اكتشاف البرتغاليين للسواحل الإفريقية خلال ق 15م**، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31 السنة 12، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر: 1987، ص ص64،65.

[2] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص 190.

[3] Hunt, Jocelyn : The Renaissance, Routledge, London, 2005, pp63.64

[4] ج.م روبرتس: **المرجع السابق** ، ص 497.

[5] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 69.

[6] عيسى علي ابراهيم: **المرجع السابق**، ص 98.

3-التطور السياسي الذي طرأ على البلدان الأوربية، حيث أصبحت الحكومات أحدث و أكثر فعالية في جميع المجالات، و أصبحت تنظر إلى العالم الخارجي نظرة جديدة[1]، و تكوَّنت الدول القومية الحديثة، و كانت رغبة كل قومية، هي إبراز الذات و تحقيق كل ما يمجد و يجلب الفخر و الاعتزاز لمواطنيها.فها هو ملك فرنسا "فرانسوا الأول" يرفض حكم البابا القاضي بتقسيم العالم بين البرتغاليين و الاسبان في معاهدة "توردوسيلاس" نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (15م)[2].

4-التنافس العسكري و الاقتصادي بين الدول الأوربية، دفعها إلى البحث عن مناطق جديدة تمتاز بمواقعها الإستراتيجية، بما يضمن لها مصالحها، و يَخْدُمُ أغراضها الحربية، و يؤمِّن لها الطرق التجارية[3].لذلك كانت المناطق الساحلية و المضائق البحرية و الجزر أول المناطق المكتشفة، نظراً لأهميتها العسكرية و التجارية.كما أن التغلغل العثماني داخل القارة الأوربية بعد فتح القسطنطينية سنة (858هـ/1453م)، و الخوف من تزايد خطره قد شجَّع الأوربيين على إيجاد طريق للالتفاف عليه و محاولة القضاء عليه[4].

5-التطور الاقتصادي لأوربا، ففي الفترة بين (390-750هـ/1000-1350م) عرفت القارة ثورة اقتصادية أدت إلى تزايد الإنتاج مرتين و المبادلات عشر مرات، و هذا ما أدى إلى تزايد عدد السكان أربع مرات[5].هذا التطور أدى إلى تزايد حاجة أوربا إلى المواد المختلفة، و إيجاد منافذ منافذ تجارية جديدة، و الحقيقة أنَّ الطبقة البرجوازية كان لها دور كبير في الدفع بالحركة الكشفية الجغرافية لتحقيق أغراض تجارية حتى تحوَّلت إلى حركة استعمارية[6].من جهة أخرى كانت الأخبار التي تناقلها الأوربيون حول غنى بلاد غرب إفريقيا بالذهب، و ازدهار تجارته و مدى استفادة المسلمين منه، تثير شهية الحكومات الأوربية التي رغبت في الوصول إليه، و سخَّرت لذلك جميع طاقاتها المادية و العلمية و البشرية.

---

[1] ج.م روبرتس: **المرجع السابق** ، ص ص 494،493

[2] Hunt, Jocelyn : op.cit, p.65

[3] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ أوربا**، ص 21.

[4] ج.م روبرتس: **المرجع السابق** ، ص 497.

[5] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص ص 62،63.

[6] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 69.

و يضاف إلى هذا، أن تجارة التوابل القادمة من الهند كانت تحتكرها مصر و بلاد الشام و الإمارات الايطالية، و هو ما صعَّب على بلاد أوربا الأخرى الحصول على هذه المادة الحيوية و الضرورية للأوربي في حياته اليومية، بسبب ارتفاع أسعارها و الرسوم الجمركية المفروضة عليها.و لهذا كان الأوربيون يريدون التخلص من هذه السيطرة، و الوصول مباشرة إلى مصدر هذه التوابل و المواد التجارية الأخرى و أهمها الحرير، العِطر و السجَّاد[1].و خلال القرنين الرابع عشر و الخامس عشر الميلاديين (15/14م)، استحوذت على مفكري أوربا فكرة تجاوز الوساطة العربية الإسلامية، و منهم من دعى إلى شن حرب صليبية جديدة لاحتلال شمال إفريقيا و مصر، في حين دعى آخرون إلى إغلاق مداخل البحر الأحمر و الخليج العربي لكسر هذه الوساطة و ذلك باحتلال عدن و مدخل الخليج العربي[2].

6-و لما كان ظهور الحركة الكشفية قد جاء في وقت كانت فيه الكنيسة لا تزال تحتفظ بالنفوذ السياسي و الروحي في أوربا، فمن الطبيعي أن يكون الدافع الديني للاكتشافات حاضراً بقوة حيث كان الكثير من المستكشفين الأوائل يحملون أفكاراً و اعتقادات دينية حمَّستهم على المغامرة بأرواحهم إرضاءً للكنيسة و طلباً للغفران و التكفير عن ذنوبهم، و كانت الرحلات الاستكشافية البرتغالية خلال القرن الخامس عشر الميلادي (15م) حملات صليبية أكثر منها رحلات علمية[3].و رغم أن الكشوفات الجغرافية كان لها تأثير سلبي على الكنيسة، حيث أبطلت ادعاءاتها و أيقظت الإنسان الأوربي، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية وجدت في الأراضي الجديدة المكتشفة فرصة لتبليغ رسالتها الدينية، و في هذا الاتجاه تأسست "جمعية المسيح★ Society of Jesus" لقيادة حملة التبشير[4].و لإبراز قوة هذا التأثير الديني في المستكشفين، نجد أنَّ المستكشف المستكشف البرتغالي "المشهور فاسكو دو غاما" كان يريد هدم المدينة المنورة و نَبْشَ قبر الرسول صلى الله عليه وسلم و رهن رُفاتِه، حتى يتخلَّى المسلمون عن الأماكن المقدسة[5]، و لما وصل إلى الهند قال:"جِئتُ للبحث عن المسيحين و التوابل"[6].

[1] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ أوربا**، ص 21.

[2] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 65.

[3] Hunt, Jocelyn : op.cit, p.63

★ – جمعية دينية تأسست سنة 1540م، و كان هدفها التبشير و الدفاع عن البابا (GDEL, Tome 6, p.5851)

[4] Hunt, Jocelyn : op.cit, p.63

[5] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق**، ص 98.

[6] Hunt, Jocelyn : op.cit, p.67

و منذ سقوط غرناطة عام (898هـ/1492م)، حمل الصليبيون لواء مطاردة المسلمين في شمال إفريقيا و في كل المناطق الأخرى، بمباركة من البابوات، الذين زرعوا كراهية الإسلام في نفوس ملوك أوربا قبل شعوبها، و أصبح قتال المسلمين واجباً مقدساً و مفتاحاً للظفر بالغفران، و قد خوَّل البابوات ملوك اسبانيا و البرتغال حق تملك كل إقليم أو بحر جديد يتم اكتشافه، و وعدوا المستكشفين بالمغفرة و دخول الجنة، و أمروا برسم الصلبان على أشرعة السفن، و من أبرز هؤلاء البابوات، البابا "نيقولاس الخامس Nicolas V" (850-859هـ/1447-1455م)[1].

7-كانت أول الدول الأوربية التي برزت في ميدان الاستكشاف، تلك المطلة على المحيط الأطلسي أو المتصلة به بحرياً، بداية بالبرتغال و إسبانيا، مروراً بفرنسا و إيطاليا، وصولاً إلى هولندا و بريطانيا، مما يعني أن موقع هذه الدول و انفتاحها عل العالم أعطاها الفرصة و أهَّلها لقيادة الحركة الاستكشافية[2].

و تجدر الإشارة هنا إلى أن المحيط الأطلسي كان متحرراً من السيطرة الإسلامية، عكس البحر المتوسط و المحيط الهندي، الأمر الذي سمح لهذه الدول بخوض غمار الاستكشاف فيه.

8-كان المستكشفون سواءً في البحر أو في البر أشخاصاً غير عاديين، حيث كانت تميِّزهم قوة الشخصية و حب المغامرة و تحدي المجهول، و كان الجيل المتأخر منهم في غالبيته من العلماء.و رغم اختلاف دوافعهم من حب الشهرة و المال، و تحقيق الربح، و الفضول، إلا أنَّ ما حقَّقوه مِن اكتشافات كبيرة يجعلهم محط إعجاب، و أنَّ انجازات البحَّارة الذين جالوا في المحيطات و وصلوا إلى مناطق بعيدة تتفوق ربما على انجازات رواد الفضاء لسبب بسيط هو أنهم في رحلاتهم لم تتوفر لهم وسائل الاتصال الحديثة، و لم يكن لهم أي اتصال بأحد على مدى شهور عديدة متتالية[3].

9-الدور الذي قامت به الجمعيات الجغرافية في دفع و تأطير الرحلات الاستكشافية، كما سيرِد في المبحث الثالث.

---

[1] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 73.

[2] المرجع نفسه: ص ص 73،74.

[3] BARREAU, Jean-claude et BIGOT, Guillaume :op.cit, p.150

و مما سبق، يتضح لنا بأن الكشوف الجغرافية الأوربية، كانت نتيجة للعديد من العوامل و الظروف التي فرضت على أوربا الخروج من تقوقعها و الاتصال بالعالم بالخارج، لتحقيق فوائد سياسية، اقتصادية، دينية و علمية.

المبحث الثاني: الأوربيون يستكشفون الساحل الغربي لإفريقيا.

إذا كانت النهضة الأوربية قد انطلقت من ايطاليا، فإن أولى محاولات الاستكشاف الجغرافية قد انطلقت منها.فأول و أشهر رحلة أوربية إلى البلاد البعيدة في بدايات النهضة، هي رحلة البُندقي "ماركو بولو"، التي تعتبر أهم رحلة أوربية من حيث الامتدادين المكاني و الزمني، حيث امتدت قرابة الأربعة و عشرين (24) عاماً ما بين (670-694هـ/1271-1295م)[1]، تمكَّن فيها من زيارة الكثير من المناطق و البلدان الآسيوية، و التشرف باستقبال أحد قادة المغول له، و هو ابن الحادية و العشرين سنة من عُمره[2].

و مثل ما قام به أهل البندقية، حاول الجنويون الدوران حول ساحل إفريقيا، حين أبحر "أوجولينو دي فيفالدو Ugolino Di Vivaldo " مع أخيه سنة (690 هـ/1291م)، و كان هدفهما الوصول إلى الهند، لكنهما فشلا و ماتا مع طاقمهما غرقاً في عرض المحيط[3]، بعد تجاوزهما لرأس بوجدور[4].هذا الحدث و غياب بعض دوافع الاستكشاف الآنفة الذكر، جعل التفكير في رحلة بحرية إلى المحيط الأطلسي أمراً مستبعداً، و الدليل على ذلك أنَّ القرن الرابع عشر الميلادي (14م) خلى من أية محاولة استكشافية بحرية تُذكر.

لكن هذا الدور الذي انفردت به شبه الجزيرة الايطالية، في قيادة الحركة الاستكشافية البحرية، سرعان ما انتقل إلى شبه جزيرة إيبيريا، و بالتحديد البرتغال، الذي سيصبح رائد الاستكشاف البحري بفضل بحَّارته المهَرة، الذين يُعتبرون أمهر البحارة على مرِّ العصور[5].

إن الموقع الجغرافي للبرتغال بإطلالته المباشرة على المحيط الأطلسي، كمنفذ وحيد نحو العالم الخارجي، جعل هذا البلد و بحَّارته يرغبون دائما في التوغل في هذا المحيط و استكشافه.لكن

---

[1] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 74.

[2] محمد مؤنس عوض: **الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى**، الطبعة الأولى، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، القاهرة: 2004، ص91.

[3] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 75.

[4] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 64.

[5] BARREAU, Jean-claude et BIGOT, Guillaume :op.cit, p.150

الخوف من المجهول، و الخرافات التي حيكت حول المحيط الأطلسي، حالت دون تحقيق هذا الأمل.ناهيك عن ضعف توفر الإمكانيات المادية و التقنية التي يمكن أن تسهِّل مثل هذا العمل.و في مقابل هذا الانفتاح المحيطي عانى البرتغال من الانغلاق البري، حيث وقفت إسبانيا حاجزاً أمام تطلعه إلى القارة الأوربية و تجارة البحر المتوسط، التي كانت تستأثر بها الإمارات الإيطالية مثل البندقية و جنوة[1].لكن الإيطاليين الذين كانوا يمنعون بقية الأوربيين من الاستفادة من تجارة البحر المتوسط، كانت لهم مساهمة في الدفع بشبه جزيرة إيبيريا إلى المغامرة في المحيط الأطلسي، لأنهم كانوا يتحكمون في جزء هام من شؤونها التجارية من حيث الأموال التي استثمروها هناك و عدد السفن التجارية التي كانوا يمتلكونها[2]، و كانوا يعلِّمون أهلها فنون الملاحة[3]، و لا يخفى علينا في هذا الصدد أن من بين أهم الاكتشافات الجغرافية التي حققتها شبه جزيرة إيبيريا كانت على يد بحارة إيطاليين، أبرزهم "كريستوف كولومبوس" و "أميريكو فاسبوتشي★ Americo Vespucci"[4].

و في المقابل، كان البرتغال خلال القرن الرابع عشر الميلادي (ق 14م) يعرف أزمة نقدية خانقة نتيجة ارتفاع التضخم، و الحاجة إلى الذهب من أجل المحافظة على قيمة العملة المحلية، و لهذا السبب جاء الاحتلال البرتغالي لمدينة "سبتة" المغربية، و من بعدها التطلع للسواحل الإفريقية بحثاً عن الذهب السوداني[5].

كما كان هناك نقصٌ في اليد العاملة مما تسبَّب في ارتفاع الأجور، نتيجة "الطاعون الأسود" الذي ضرب أوربا سنوات (749-751هـ/1348-1350م) و حصد نصف سكانها، و حتى مطلع القرن الخامس عشر الميلادي (15م) استطاعت أوربا الوصول إلى ستين بالمائة (60%) فقط من عدد سكانها الذين كانت تتوفر عليهم في سنة (730هـ/1330م)، و هذا ما

---

[1] ج.م روبرتس: **المرجع السابق** ، ص 498

[2] اليونسكو: **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع إفريقيا من ق12م إلى ق16م، المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل، بيروت، لبنان، 1988، ص 651.

[3] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 75.

★ - (1454-1512) بحار إيطالي، عمل لصالح إسبانيا ثم البرتغال لاستكشاف العالم الجديد (GDEL, Tome 10, p.10732)

[4] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 68.

[5] المرجع نفسه: ص ص62-64.

يُفسره تهافت البرتغاليين و الاسبان على اقتناء العبيد من إفريقيا[1].و مع هذه الأزمة الاقتصادية تولَّدت أزمة اجتماعية، هدَّدت مصلحة و استقرار البلد.هذا الواقع الاقتصادي و الاجتماعي الصعب جعل كل الفئات الاجتماعية في البرتغال تؤيد غزو المغرب و من بَعدِه استكشاف بقية المناطق[2].

هذا من جهة أما على صعيد آخر، في ميدان الملاحة، فقد استطاع البرتغاليون الذين كان اقتصادهم و وجودهم يعتمد على التجارة و الصيد البحريين، تطوير السفن تماشياً مع تزايد معرفتهم بالمحيط الأطلسي و رغبتهم في استكشافه، و المنافسة القوية التي كان يواجهونها من قِبَل جيرانهم الأطلسيين كالهولنديين و الانجليز في مجال بناء السفن[3].

ففي بداية القرن الخامس عشر الميلادي (15م) ظهرت السفينة البرتغالية المشهورة "الكارافيل La Caravelle"، التي هي مزيج من تقنيات بناء السفن المتوسطية و تلك القادمة من بحر الشمال، رغم وجود اختلاف حول المنطقة التي نشأت فيها، حيث يقول البعض أنها جاءت من البندقية[4]، و يقول البعض الآخر أنها سفينة ظهرت أول مرةٍ في البرتغال[5].و بغض النظر النظر عن أصلها، فإن الأكيد هو أن البرتغاليين طوروها و استغلوها في تحقيق اكتشافاتهم الجغرافية المميزة.و تتمثل التقنية المتوسطية في شكلها الدقيق و الطويل نسبياً، هيكلها الشديد المتانة و الإحكام، و في شراعها المثلث الشكل، و أما التقنية القادمة من بحر الشمال فهي الشراع المربع القادر على مقاومة الرياح العاتية[6].و في الوقت نفسه، قام البرتغاليون بفضل جهود الأمير "هنري الملاح" من زيادة سعتها، حتى أصبحت قادرة على حمل مائتين (200) طن من التجهيزات و

---

[1] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 62.

[2] BOUCHARB, Ahmed : La Présence Européenne sur la côte ouest africaine et la politique Soudanaise de la Dynastie Saedienne, Actes du colloque international sur le Maroc et l'Afrique subsaharienne aux débuts des temps modernes, Publications de l'Institut des Etudes africaines, Rabat,1995, p.13

[3] صلاح الدين علي الشامي: **المرجع السابق**، ص 195.

[4] BARREAU, Jean-claude et BIGOT, Guillaume :op.cit, p.148

[5] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op.cit, p.85

[6] جان بيرنجيه و آخرون: **موسوعة تاريخ أوربا العام**،ترجمة وجيه البعيني، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، منشورات عويدات، بيروت- باريس: 1995، ص 202.

المؤن[1] في بداية القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، الأمر الذي منحها فرصة الإبحار لمسافات بعيدة، عجزت أنواعٌ أخرى من السفن عن بلوغها.

و يضاف إلى كل ما سبق، رغبة البرتغاليين في حمل لواء مطاردة المسلمين خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، و في مقدمتهم ملوكُهُم طمعاً في الحصول على مباركة الكنيسة و تحقيقاً لمآرب شخصية على الصعيدين السياسي و الاقتصادي.

و الحقيقة، فإن الاستكشافات التي جاءت بعد الحروب الصليبية، قُدِّمت في البرتغال على أنها استمرار لهذا الصراع بين العالمين الإسلامي و المسيحي تحت رعاية و تشجيع و تمويل البابا وات[2].ففي (8 محرّم 858هـ/8 يناير 1454م)، تلقّى ملك البرتغال "ألفونس الخامس" براءة بابوية تسمح له باستعباد (جميع الموريين و سائر أعداء المسيح)[3].

إن الحديث عن قيادة البرتغال لحركة الاستكشاف الجغرافي الأوربي، مرتبط ارتباطاً وطيداً بأحد رموز هذه الحركة، و هو الأمير هنري (796-864هـ/1394-1460م) المعروف بهنري الملاّح.لقد أولى هذا الأمير اهتماماً و رعاية مميَّزَين للكشوف الجغرافية، يمكن تشبيهها برعاية الدول الحديثة للبحوث العلمية[4].بدأت هذه الرعاية العلمية مع إنشاء مدرسة أو معهد لعلوم الجغرافيا و الخرائط في قصره بمنطقة "ساغرش Sagres" في أقصى جنوب البرتغال سنة (821هـ/1418م)[5].فقد جمع في هذه المدرسة فريقاً متنوعاً من خيرة الجغرافيين و البحارة و علماء علماء الرياضيات، من بينهم البندقي الفيز دي كاداموستو[6]، و قدَّم لهم كل أنواع الدعم المعنوي و و المادي، حتى تخرَّج من هذه المدرسة أشهر المستكشفين البرتغاليين الذين حققوا اكتشافات مهمة في تلك الحقبة.

و كانت تختلف دوافع الأمير في تشجيعه لهذه الكشوف ما بين دوافع دينية و تجارية و علمية.فمن الناحية الدينية، عُرِفَ عن الأمير أنه كان متديناً متحمساً[7]، و كانت له رغبة شديدة

[1] صلاح الدين علي الشامي: **المرجع السابق**، ص 195.

[2] BOUCHARB, Ahmed :op.cit, p.14

[3] اليونسكو: المرجع السابق، ص 660

[4] ج.م روبرتس: **المرجع السابق** ، ص 499.

[5] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p.85

[6] جوزيف كي-زيربو: **المرجع السابق**، ص 321.

[7] المرجع نفسه: ص 320.

في هَدْمِ الإسلام[1]. في هذه الفترة كان الأوربيون يؤمنون بأسطورة نجاشي الحبشة و هو "القديس يوحنا"، الذي اعتقدوا بأنه ملك مسيحي يحكم بلاد الشرق، و بدأوا بالبحث عنه في كل مكان قصد الوصول إليه. كان الأمير هنري من المؤمنين بهذا الاعتقاد، فأراد ضم قوى أوربا المسيحية إلى قوى هذا القديس[2]، و كان الأمير يبحث عن أي حاكم أو ملك مسيحي يسانده في القضاء على الكفَّار – أي المسلمين حسب اعتقاده – الذين اعتبر القضاء عليهم واجب مقدس، و كان يؤكِّد لرجاله بأن خلاص نفوس الوثنيين هو هدف من أهداف العمل الكشفي[3]. في (8 شوال 845هـ/19 فبراير 1442م)، حصل هنري الملاح على براءة من البابا ضمنت الغفران:"...لكل المسيحيين الذين سيساهمون في هذا المجهود الجديد ضد المسلمين تحت راية جماعة المسيح..."[4]، و و في السنة نفسها أرسل الأمير هنري مجموعة من العبيد كهدية إلى البابا مارتن الخامس[5].

من جهة أخرى، كان هذا الأمير رجل أعمال يرجو تحقيق فوائد مادية من الكشوف، و إن كانت طبيعة هذه الفوائد غامضة في البداية، لكنها اتضحت مع وصول أول دفعة من العبيد سَباها مبعوثُه "نونيو تريستاو Nuno Tristao" (سنة 845هـ/1441م)، و هذا ما أفرَحَ الأمير كثيراً، لأنه بدأ يجني ثمار جهوده الاستكشافية[6]، و يُذكر في هذا السياق أنَّه تحصَّل على خُمس فوائد جميع الرحلات التي أرسلها إلى جنوب رأس بوجدور★[7].

و لا يُمكن إنكارُ النزعة العلمية للأمير هنري، و شغفه بالاكتشافات العلمية، و تقديره للعلماء و الباحثين، الذين جَمعهم في مدرسة زاغرس، و قام بجمع الكثير من الخرائط الجغرافية الدقيقة و المعلومات الوافية عن الأجرام السماوية و الطرق البحرية و حركات الرياح. كل هذا كان يحتاج إلى أموال طائلة أنفقها في هذا الميدان، حتى أتعبته الديون التي بقيت تُسدَّد حتى عام

---

[1] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p.85

[2] جوزيف كي-زيربو: **المرجع السابق**، ص 320

[3] زاهر رياض: **الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا و أثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء**، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر: ب.ت، ص 154.

[4] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 71.

[5] Wilson, Leighton :**Western Africa : Its History, Condition and Prospects**, Sampson Low, Son and Co., London, 1856, p.35

[6] كَرَفجال مارمول: **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي و آخرون، الجزء الأول، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب: 1984، ص 123.

★ – رأس ساحلي يقع في الصحراء الغربية (GDEL, Tome 2, p.1327)

[7] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p.85

(927هـ/1521م) على الأقل[1]، و تحمُّله لصبرٍ شديد حتى رأى نتائج جهوده، إذ تطلَّب منه الوصول إلى رأس بوجدور حوالي اثنا عشرة (12) سنة من المحاولات الفاشلة[2].

في عام (817هـ/1414م) قام هنري الملاح بالاستيلاء على مدينة سبتة[3] على الساحل المتوسطي للمغرب الأقصى، فعينه أبوه ملك البرتغال حاكماً عليها سنة (818هـ/1415م). كانت للأمير رغبة شديدة في طرد المسلمين من المغرب، غير أن هذه الرغبة سرعان ما تلاشت مع إخفاقه في احتلال مدينة طنجة عام (840هـ/1436م)[4]، فتحول اهتمامه نحو السواحل الأطلسية الأطلسية المغربية، ثم بعدها السواحل الإفريقية الغربية.هذا التحوُّل كان منعرجاً حاسماً في تاريخ الكشوف الجغرافية البرتغالية، بالنظر إلى كثرة الاكتشافات التي نتجت عنه، حيث تمَّ اكتشاف جميع سواحل إفريقيا الغربية و الجزر المقابلة لها، ثم تحقيق الحلم الأوربي الكبير و هو الدوران حول إفريقيا و الوصول إلى الهند مصدر التوابل، و جميع المنتوجات الشرقية التي كان يحتاجها الأوربيون.

وقد أتى هذا التحرك الأوربي في الوقت الذي كانت فيه ممالك المغرب تعاني الضعف، باستثناء البعض منها مثل الدولتين السعدية و الحفصية.أضف إلى ذلك أن المغرب استفاد اقتصادياً من ذهب السودان عن طرق القوافل العابرة للصحراء، و بالتالي لم يُعِرْ ملوكُهُ و لا تُجَّارُهُ أي اهتمام في القرنين الرابع عشر و الخامس عشر الميلاديين (14-15م) لمنافسة الأوربيين على البحر[5].

رغم أنَّ هنري الملاح استطاع السيطرة على سبتة فقط من الأراضي المغربية، إلاَّ أنَّ هذا قد مَنَحَ فرصة للبرتغاليين في الاقتراب من السواحل الإفريقية الأطلسية و الجزر القريبة منها، و بالتالي سهَّلَ عملية استكشافها.ما بين (821-823هـ/1418-1420م)، اكتشف البرتغاليون جزر "ماديرا Madeira" ، ثم اكتشفوا جزر "الآزور Les Açores" عام (834هـ/1431م)[6].

---

[1] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 66.

[2] المرجع نفسه: ص 61.

[3] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 76.

[4] المكان نفسه، ص 76.

[5] اليونسكو: **المرجع السابق**، ص 660

[6] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 76.

و نظراً لأهمية هذه الجزر من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، فإن البرتغاليين لم يكتفوا فقط باكتشافها، بل احتلوها بداية بجزر "الكناري Les Canaris" سنة (827هـ/1424م)، ثم جزر ماديرا في (833هـ/1430م)، و أخيراً جزر الآزور عام (843هـ/1439م)[1].

إن احتلال هذه الأرخبيلات الثلاثة، و التنقل بينها قد ساعد بوضوح في دفع حركة الاستكشاف.فمن جهة كانت بمثابة محطَّات يرتاح فيها البحارة، و يتزودون فيها بما يحتاجون إليه من مؤن، خاصة جزر الكناري، التي لا تبعد عن الساحل المغربي إلا بمائة وستين كيلومتراً (160كم) ، و هي نقطة عبور رئيسة للسفن الإيبيرية المتوجهة إلى السواحل الإفريقية الغربية و قارة أمريكا[2].

و بالإضافة إلى ما سبق، فإن المسافة بين هذه الأرخبيلات الثلاثة، و البالغة حوالي ألفين و مائتين كيلومتر (2200كم)[3]، جعلت البحارة الإيبيريين يتعودون بشكل جيد على الملاحة في المحيط الأطلسي، و يتخلصون من الكثير من المخاوف التي كانت تنتابهم إزاء هذا المحيط.

لكن البداية الحقيقية للكشوف الجغرافية على ساحل إفريقيا الغربي، كانت بعد اكتشاف رأس بوجدور الذي يسميه الأوربيون رأس بوجادور Bojador سنة (837هـ/1434م)، بواسطة أحد خُدَّام هنري الملاح، و هو "جيل ايانسGil Eanes"، الذي عاد من أرض تقع جنوب هذا الرأس[4]، مُحقِّقاً اكتشافاً جغرافياً هاماً.تكمن أهمية هذا الاكتشاف في كون الوصول إلى الرأس تطلَّب إثنا عشرة (12) سنة من المحاولات، و هو يقع في الساحل الغربي لإفريقيا على مسافة بعيدة من السواحل البرتغالية.كما أنَّ بلوغه بَدَّدَ اعتقادات الأوربيين بوجود مخلوقات غريبة تواجه الملاحين في هذه المنطقة[5].

في سنة (845هـ/1441م) دخلت سفينة الكارافيل الخدمة لأول مرة في عهد هنري الملاح[6]، فقدَّمت خدمة كبيرة للملاحين من حيث سلاستها في الإبحار، و أعطتهم دفعة معنوية

---

[1] س هوارد: **أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا**، ترجمة عبد الرحمان عبد الفتاح الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر: 1996، ص 5.

[2] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 70.

[3] المكان نفسه، ص 70.

[4] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص 153.

[5] المرجع نفسه: ص 149.

[6] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 71.

إضافية على الدفعة التي أعطاها إياهم الوصول إلى رأس بوجدور.و نتيجة لهذا، توالت الكشوف بوتيرة أسرع.ففي سنة (848هـ/1444م) وصل "نونيو تريستاو" إلى مصب نهر السنغال[1]، و تمكَّن "كاداموستو Ca'adamosto" عام (854هـ/1450م) من بلوغ شواطئ السنغال و الكازامنس و غينيا[2]، مما قرَّب البرتغاليين من بلاد السودان الغنية بالذهب و أوصلهم إلى بلاد الزنوج[3]، و في سنة (860هـ/1456م)[4] وصل "دينيس دياز Dinis Dias" إلى جزر الرأس الأخضر[5].

استمرت حركة الاستكشاف الجغرافي بعد وفاة هنري الملاح سنة (864هـ/1460م)، لأن الهدف الأهم لهذه الحركة الاستكشافية، و هو الوصول إلى الهند، لم يتحقق بعد، و لأن خلفاء هنري أرادوا استكمال ما بدأه بسبب دوافع مختلفة.و كانت المحطة التالية في الاكتشافات هي "سيراليون" التي وصل إليها البرتغاليون سنة (865هـ/1461م)[6]، و بعدها رأس "سانت كاترين" جنوب خط الاستواء سنة (876هـ/1471م)[7]، ثم جزر "فرناندو★" سنة (877هـ/1472م)[8]، و في سنة (887هـ/1482م) اكتشف دييغو كاو Diego Cao مصب نهر نهر الكونغو[9].و أخيراً جاء أكبر انجاز في تاريخ استكشاف الساحل الغربي لإفريقيا، و هو اكتشاف رأس الرجاء الصالح كما سماه ملك البرتغال يوحنا الثاني (886-900هـ/1481-1495م)[10]، على يد أحد رواد المستكشفين البرتغاليين، و هو "بارثُلُميو دياز Bartholomew

---

[1] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص71.

[2] جوزيف كي-زيربو: **المرجع السابق**، ص 322.

[3] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص 155.

[4] جاسم محمد ظاهر: **المرجع السابق**، ص 100.

[5] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 77.

[6] فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق**، ص 14.

[7] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 77.

★ - إسمها الحالي هو بيوكو Bioco، في غينيا الاستوائية (GDEL, Tome 4, p.4213)

[8] فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق**، ص 14.

[9] صالح رمضان محمد: **الاستكشافات الجغرافية لإفريقيا**، مجلة المؤرخ العربي، العدد31السنة12، المركز الوطني للدراسات التاريخية، وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر: 1987، ص 17.

[10] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 77.

Dias" عام (892هـ/1487م)[1] .هذا الاكتشاف الهام فتح آفاقاً جديدة و واسعة أمام البرتغاليين، البرتغاليين، و جعلهم يتحفزون أكثر لبلوغ الهند.

بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح توقفت حركة الاستكشاف البرتغالية لعدة عوامل، مادية و تقنية و سياسية.كما لم يَعُدْ البرتغاليون وحدهم الذين ينشطون في مجال استكشاف المحيط الأطلسي، بعد دخول الاسبان عالم الإبحار، فأضحَوا منافسين أقوياء لهم، و هم لا يَقِلُّونَ مستوى عن نظرائهم البرتغاليين، و ذلك ما يؤكده الاكتشاف الهام الآخر الذي حقَّقُوه على يد كريستوف كولومبوس سنة (898هـ/1492م)، عندما اكتشف قارة أمريكا، أو ما عُرِفَ بعد ذلك بالعالم الجديد.هذه المنافسة بين البرتغاليين و الإسبان قد أدَّت إلى تصادم في المصالح، ثم إلى نزاع كاد أن يؤدي إلى نشوب حرب بينهما.و بما أن الكنيسة كان لها نفوذ عند حكام هاتين الإمبراطوريتين الناشئتين، و مصلحة في الاكتشافات الجغرافية، فقد تدخَّلت و حسمت النزاع بين الطرفين مرات عديد، على غرار ما حدث في معاهدة طليطلة الموقعة يوم (24 ذي الحجة 884هـ/6 مارس 1480م)، التي تنازل فيها البرتغال عن المطالبة بجزء من جزر الكناري مقابل تنازل الاسبان له عن المغرب و سواحل إفريقيا؛ و معاهدة "توردوسيلاس Tordesillas" في (3 رمضان 899 هـ/7 جوان 1494م)، و فيها تقاسم البَلدان العالم، حيث حصلت إسبانيا على حرية التحرك في جزئه الغربي، بينما حصل البرتغاليون على حرية التحرك في الجزء الشرقي[2].

و في منتصف العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، أصبحت الظروف مهيأة أمام البرتغال لمواصلة مشروع الاستكشاف، بعد التخلص من المنافسة الإسبانية، و مجيء الملك عمانويل الأول (900-927هـ/1495-1521م)، الذي أصدر أمراً باستئناف الكشوف، و كلَّف فاسكو دو غاما سنة (902هـ/1497م) بالتوجه إلى الهند[3]، فانطلقت رحلة فاسكو دو غاما من لشبونة يوم (7 ذو القعدة 902هـ/8 جويلية 1497م)[4]، و اجتازت رأس الرجاء الصالح في بداية سنة (903هـ/1498م).

---

[1] جوزيف كي-زيربو: **المرجع السابق**، ص 322.

[2] أحمد بوشرب: **المرجع السابق**، ص 67.

[3] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق**، ص 78.

[4] BOUCHARB, Ahmed :op.cit, p.27

و في مارس من نفس السنة رسا دو غاما في الموزمبيق[1]، ثم وصل إلى ممبسا★ Mombasa [2] الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا.و قد كوَّن دو غاما صداقة مع أحد ملوك المنطقة، و هو ملك ماليندي★★ Malinde، الذي ساعده في بلوغ الهند، عندما أرسل معه ملاحاً عربياً خبيراً هو "شهاب الدين أحمد بن ماجد★★★"، مكنه من الوصول إلى مبتغاه دون عناء، عندما رسا في ساحل الهند في (22 رمضان 903هـ/14 ماي 1498م)[3].و بعد وصوله إلى الهند، قضَّى دو غاما ثلاثة أشهر في مدينة "كلكيتا Calcutta★★★★" الهندية، ثم عاد إلى لشبونة في نهاية صيف (905هـ/1499م)، بعد أن فَقَدَ نصف سفنه و أكثر من نصف رجاله بسبب طول الرحلة[4].

إن الوصول إلى الهند لم يكن حدثاً برتغالياً فقط، بل كان حدثا أوربياً، لِما يحمله من معاني كثيرة.فهو أولاً انجاز جاء ليعلن الانفتاح و التقدم اللذين بلغتهما القارة الأوربية، و ثانياً مكَّن أوربا المسيحية من كسر الحصار الإسلامي الذي عانت منه لعدة قرون، خاصة ما يتعلق بتجارة التوابل و الحرير، و ثالثاً هو أن الوصول إلى الهند و الالتفاف حول المسلمين، استغله الغرب المسيحي، فيما بعد، في توجيه طعنات إلى ظهر العالم الإسلامي، مما ساهم في إضعافه شيئاً فشيئاً أمام نمو و تطور أوربا.

---

[1] صالح رمضان محمد: **المرجع السابق**، ص 18.

★ – ميناء في كينيا على جزيرة صغيرة قريبة جداً من الساحل، كانت محطة تجارية هامة أيام الحكم العربي للمنطقة قبل القرن 15م (GDEL, Tome 7, p.7031)

[2] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق**، ص 78.

★★ – مدينة في كينيا تطل على المحيط الهندي و تقع شمال ممباسا، سقطت في حكم سلطنة عُمان سنة 1698م (GDEL, Tome 6, p.6584)

★★★ – ملاح عربي وُلد في الجزيرة العربية، التقى بفاسكو دي غاما في ماليندي عام 1498م، ألف ثلاثين كتاباً في البحرية بين عامي 1462م و 1490م أشهرها "الفوائد في أصول علم البحر و القواعد"(صلاواتي (ياسين): الموسوعة العربية الميسرة و الموسعة، الجزء الأول، ص 123)

[3] صالح رمضان محمد: **المرجع السابق**، ص 18.

★★★★ – مدينة في شرق الهند على خليج البنغال، كانت عاصمة الهند البريطانية ما بين 1773م و 1911م (الموسوعة العربية، المجلد 16، ص 347)

[4] جان بيرنجيه و آخرون: **المرجع السابق**، ص ص 206،205.

و يجدر بالباحث أن يذكر شيئاً مهماً ارتبط ارتباطاً وطيداً بهذه الكشوف، و ساهم في تشويه صورتها، و الإنقاص من قيمتها العلمية و الحضارية، ألا و هو تجارة العبيد، حيث تذكر المصادر و المراجع أن البرتغاليين لما خرجوا لاستكشاف سواحل إفريقيا كان هدفهم واضحاً و هو الوصول إلى الهند، و لكنهم كانوا يجهلون ما سيجدونه على السواحل الإفريقية[1].

خرجوا من أجل الوصول إلى الهند، مصدر تجارة التوابل، فإذا بهم وجدوا سلعة ذات فائدة تجارية تفوق فائدة التوابل، و هي العبيد. كانت أول عملية بيع للرقيق في قارة أوربا يوم (23 ربيع الثاني 848هـ/8 أوت 1444م)، في مدينة "الاغوس Lagos" جنوب البرتغال[2]، في عهد هنري الملاح الذي فَرِح كثيراً لذلك كما سبق ذكره، لأن هذه التجارة بَدَتْ له خلاصاً من الديون التي تراكمت عليه بسبب إنفاقه الكبير على الكشوف، غير أن الأمير لم يستفد استفادة كبيرة من هذه التجارة، لأنها كانت ما زالت في بدايتها قبل وفاته.

لكن هذه التجارة التي بدأت محتشمة، سرعان ما ازدهرت، و أصبحت المحرِّك الأساس للكشوف. ففي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي (ق 15م)، نُقل مائة وخمسين ألف (150000) من العبيد إلى شبه جزيرة إيبيريا[3]، و في القرن الموالي، كانت هذه التجارة السبب في بداية التنافس الأوربي على السواحل الإفريقية من أجل الحصول على العبيد، لسد النقص الذي كانت تعانيه أوربا في اليد العاملة أولاً، و مِن بعده تسخيرهم في استغلال أراضي و خيرات المناطق المكتشفة في العالم الجديد. و لتأمين هذه التجارة، لجأت الدول الأوربية إلى بناء الحصون على طول هذه السواحل، و أولها البرتغال الذي شيد حصن "سان جورج دو لامين★ Elmina" في عهد الملك البرتغالي "يوحنا الثاني"[4].

بعد الوصول إلى الهند، تحقَّق الهدف الأسمى، الذي بدأت من أجله الكشوف الجغرافية على يد الأمير هنري الملاح، و هو الأمر الذي أدى إلى تراجع الحركة الكشفية في إفريقيا من نهاية القرن الخامس عشر (15م) حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي(18م)[5]، و هذا بالرغم من أن

---

[1] جوزيف كي–زيربو: **المرجع السابق**، ص 319.

[2] Découvertes Européennes toute nouvelle vision du monde 1492-1992, Publications de la Sorbonne, Paris,1994, p.129

[3] Ibid, p.129

★ تقع حالياً على بُعد 170كم غرب مدينة أكرا (محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: المرجع السابق، ص 156)

[4] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op.cit, p. 110

[5] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص 16.

حركة الاستكشاف في العالم الجديد كانت ما زالت في بداية عمرها بقيادة إسبانيا، التي حققت انجازاً كشفياً يضاهي اكتشاف البرتغاليين للهند، و هو الالتفاف حول أمريكا الجنوبية جنوباً و الوصول إلى ما كان يسميه الأوربيون جزر الهند الغربية في جنوب شرق آسيا بعد عبور محيط جديد هو المحيط الهادي، و كان صاحب هذا الانجاز الهام البحارُ البرتغالي "ماجلان"، الذي كان يعمل لصالح المِلَكِيَّة الإسبانية، غير أن البرتغال لم يكن معنياً بهذا الجزء من العالم وفقاً لِما نصَّت عليه معاهدة توردوسيلاس السابقة الذكر.

لقد اقتصر الوجود البرتغالي في غرب إفريقيا على النشاط التجاري فقط، و هو النشاط الذي تركَّز في المناطق الساحلية، التي أقام عليها البرتغاليون العديد من الحصون، التي كان لها دور عسكري يتمثل في تأمين هذا الوجود، و دور تجاري حيث كانت تستخدم كمرافئ تُشحن منها السلع لتُنقل إلى البرتغال و أوربا، خاصة الرقيق الثروة المربِحة آنذاك.و ظل البرتغاليون أسياد التجارة في غرب إفريقيا طيلة القرن السادس عشر (16م) تقريباً.

و الحقيقة هي أن بقية الدول الأوربية الأخرى لم تُبْدِ رغبة في التجارة بهذه المنطقة، عكس الحماس الذي ميَّز الدولة البرتغالية.غير أن كميات الذهب التي جلبها البرتغاليون إلى بلادهم مع نهاية القرن الخامس عشر (15م) و بداية القرن السادس عشر (16م) قد غيَّرت ذلك الواقع و النظرة الأوربية[1]، حيث جعلت المنطقة محط أنظار بقية الدول الأوربية، التي بدأت شيئاً فشيئاً بالتوغل فيها .

لقد كانت أول دولة أوربية اهتمت بغرب إفريقيا بعد البرتغال، هي إسبانيا التي كانت تتوفر على الدوافع و الخصائص المشابهة تقريباً لتلك التي حوَّلت البرتغال إلى رائد الكشوف الجغرافية.لقد ظهرت المنافسة بين الدولتين منذ الخطوات الأولى لحركة الاستكشاف الجغرافي غير أن البرتغال كانت أقوى و أكثر تأهيلاً و تقدماً لخوض هذه المغامرة.و قد بدأ عهد إسبانيا بالمنطقة إلى احتلالها جزر الكناري سنة (881هـ/1476م)[2]، و لكن سرعان ما تحوَّل الاهتمام الإسباني عن الساحل الإفريقي إلى القارة الأمريكية بعد اكتشافها، و لأن الساحل الإفريقي أصبح خارج اختصاص الدولة الاسبانية وفقاً لمقررات معاهدة توردوسيلاس المذكورة سابقاً.إن هذا الواقع الجديد الذي فرضته معاهدة توردوسيلاس جعل البرتغاليين يواصلون اكتشافاتهم، و يُنمُّون تجارتهم دون

---

[1] WILSON, Leighton: op.cit, p.45

[2] س هوارد: **المرجع السابق**، ص 4.

عناء خلال الجزء الأكبر من القرن السادس عشر (16م)، ما عدا بعض الصعوبات التي واجهوها ابتداءاً من منتصف هذا القرن، على يد الانجليز.و قد استمرت الحالة هذه حتى نهاية القرن السادس عشر (16م) حيث انتقلت جل الممتلكات و المصالح البرتغالية إلى إسبانيا بعد احتلالها للبرتغال سنة (988هـ/1580م)[1] حتى عام (1050هـ/1640م)[2]، عندما استعاد البرتغال استقلاله وسيادته على تلك الممتلكات و المصالح.

و يلاحظ الباحث أنه في الوقت الذي أفل فيه تفوق البرتغال مع نهاية القرن السادس عشر (16م)، برزت قوة جديدة على الساحة الأوربية، هي هولندا، التي تخلّصت من الهيمنة الإسبانية بعد ثورتها سنة (980هـ/1572م)[3]، و أصبحت مع مطلع القرن السابع عشر (17م) دولة بحرية قوية و متفوقة، ففي وثيقة تعود إلى سنة (1016هـ/1607م)، كان الأسطول الهولندي يضم حوالي خمسمائة (500) سفينة، و في (1060هـ/1650م) بلغ عدد الهولنديين العاملين في قطاع الملاحة مائتين وخمسين ألف شخص، في حين كان عدد السكان يبلغ مليون و نصف نسمة فقط في الفترة ذاتها[4]. أصبحت التجارة في غرب إفريقيا واسعة بشكل جلب انتباه الحكومات و الأوساط التجارية في أوربا[5]، و من ثمة أبدَت هولندا اهتماماً واضحاً بمنطقة غرب إفريقيا، و كانت بداية الاهتمام عندما اشترى الهولنديون "غوري★ Gorée" من أحد حكام المنطقة[6] سنة (1016هـ/1617م)[7]، أين أقاموا أول حصن لهم، كان قاعدة الانطلاق للوصول نحو بقية المناطق في الغرب الإفريقي.

و هكذا و استغلالاً لضعف البرتغال، شرع الهولنديون في السيطرة على الموانئ التجارية و الحصون البرتغالية، بداية من حصن سان جورج دو لامين، الذي أحكموا السيطرة عليه سنة (1047هـ/1637م)[8]، و بسبب أهمية هذا الحصن في التجارة البرتغالية، فإنَّه قد سمح للهولنديين بالتحكم تدريجياً في تجارة في ساحل غينيا، و هنا برز دور شركة الهند الغربية الهولندية.و يبدو أنَّ

---

[1] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 142

[2] كولين ماكيفيدي: **أطلس التاريخ الإفريقي**، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر: 1987، ص 141.

[3] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 143

[4] جان بيرنجيه و آخرون: **المرجع السابق**، ص 457.

[5] Wilson, Leighton : op.cit, p.51

★ – جزيرة ساحلية في السنغال مقابل العاصمة دكار (GDEL, Tome5, p.4862)

[6] Wilson, Leighton: op.cit, p. 55

[7] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 143

[8] Ibid, p.143

الهولنديين من خلال سيطرتهم على الحصون البرتغالية أرادوا الانتقام من إسبانيا، التي كانت تسيطر على البرتغال كما سلف الذكر، لما عانوه من الظلم أثناء الحكم الإسباني لبلادهم[1].و لم يكتف الهولنديون بساحل غينيا، بل تعدُّوه حتى وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح سنة (1062هـ/1652م)[2].

و في نهاية القرن السابع عشر (17م)، أصبحت بريطانيا تهدِّد سيادة الهولنديين على ساحل غينيا، مع أنَّ الوجود البريطاني في ساحل إفريقيا الغربية سبق تلك الفترة بكثير، فأول سفينة انجليزية وصلت المنطقة كانت في منتصف القرن السادس عشر (16م) بقيادة "توماس ويندهام Thomas Wyndham"، و الذي أعاد السفر ثانية إلى المنطقة سنة (960هـ/1553م) بتكليف من شركة تجارية لندنية و مات هناك[3].و في مطلع النصف الثاني من نفس القرن قام "جون هوكينز John Hawkins" برحلات تجارية إلى ساحل غينيا[4]، حيث جلب في الأولى منها ثلاثمائة (300) عبداً، قام ببيعهم في قارة أمريكا[5].

و مع بداية القرن السابع عشر (17م)، أصبحت هناك رغبة شديدة لدى الانجليز في استكشاف داخل إفريقيا الغربية، أملاً في الوصول إلى مناجم الذهب التي تحدَّث عنها "الحسن الوزان" (ليون الإفريقي) و "الإدريسي"[6].ففي عام (1028هـ/1619م)، تمكَّن الإنجليزي "تومسون Thomson" من الوصول إلى مصب نهر غامبيا و التوغل في النهر لمسافة ستمائة و ثلاثة و أربعين (643) كيلومتر[7]، لكن هذه الرغبة اصطدمت بعدة عقبات، سيأتي تفصيلها في المبحث الأول من الفصل القادم.

و الحقيقة أنه في نهاية القرن السابع عشر (17م) و خلال القرن الثامن عشر (18م)، تمكَّنت بريطانيا في حروبها ضد هولندا و فرنسا من احتلال مناطق إستراتيجية في غمبيا، سنغامبيا،

---

[1] WILSON,Leighton : op.cit, p.57
[2] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 143
[3] WILSON,Leighton : op.cit, p.46-47
[4] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 87.
[5] WILSON,Leighton : op.cit, p.50-51
[6] Ibid, p.52
[7] يسري عبد الرازق الجوهري: **الكشوف الجغرافية دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية و لتطور الفكر الجغرافي**، دار النهضة العربية، العربية، بيروت، لبنان: 1984، ص 207.

ساحل الذهب، مصب نهر سيراليون و ساحل العاج[1]، و أصبحت سيِّدة التجارة في كامل المنطقة، في معظم فترات القرن الثامن عشر (18م) الميلادي[2].ففي مطلع هذا القرن مثلاً، كانت الشركة الملكية الإفريقية الانجليزية تملِك خمسة عشر (15) حصناً في غرب إفريقيا[3]، و كان نصف نصف تجارة العبيد تحت سيطرة الإنجليز[4].

أما الفرنسيون فقد وصلوا إلى غرب إفريقيا متأخرين مقارنة بالهولنديين و الانجليز[5]، و بدأ وجودهم في المنطقة سنة (1048هـ/1638م) عندما شيَّدوا أول و أهم مركز لهم في المنطقة، و هو مركز "سان لويس Saint-Louis"، و الذي قاموا بتحصينه بعد خمس (5) سنوات من ذلك التاريخ[6].و يقع هذا المركز بالقرب من مصب نهر السنغال، و هو ما سهَّل عليهم فيما بعد عملية استكشاف الأراضي الداخلية لغرب إفريقيا.و مع مرور الزمن تعزَّز الوجود الفرنسي في المنطقة، خاصة بعد أن ضعفت هولندا، و أصبحت فرنسا تستحوذ على ربع تجارة الرقيق الإفريقي[7].

و المُلاحظ أنه رغم الطابع التجاري الذي ميَّز الوجود الأوربي في غرب إفريقيا في هذه الفترة، إلاَّ أن ذلك قد ساعد أوربا في زيادة رصيدها الجغرافي و المعرفي حول المنطقة.فالعديد من المشتغلين بالتجارة تركوا كتابات حول جغرافية المنطقة و ثرواتها و أحوال سكانها، و على سبيل المثال نذكر كتاب "التجارة الذهبية The Golden Trade" لصاحبه "ريتشارد جوبسون R.Jobson" و الصادر سنة (1032هـ/1623م)[8]، و كتاب "وصف جديد و دقيق لمنطقة ساحل غينيا" للرحالة الهولندي "وليام بوسمان William Bosman" و الصادر سنة (1117هـ/1705م)[9]، و كتاب "وصف جديد لإفريقيا الغربية Nouvelle Relation de l'Afrique Occidentale" الصادر عام (1140هـ/1728م) لصاحبه "ج.ب لابا J.B

[1] محمد محمد صالح: **استعمار إفريقيا و تقسيم القارة الافريقية في مؤتمر برلين 1884–1885**، مجلة المؤرخ العربي، المركز الوطني للدراسات التاريخية، وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر: 1987، ص 118.

[2] WILSON,Leighton : op.cit, p.63

[3] Ibid, p.60

[4] محمد محمد صالح: **المرجع السابق**، ص 118.

[5] صلاح أحمد هريدي علي و آخرون: **المرجع السابق** ، ص 87.

[6] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 143

[7] محمد محمد صالح: **المرجع السابق**، ص 118.

[8] س هوارد: **المرجع السابق**، ص 37.

[9] المرجع نفسه: ص 51.

Labat"[1].و بغض النظر عن ما احتوته هذه الكتب و مدى دقة المعلومات الواردة فيها، فإنَّ تجار العبيد عموماً بسبب جشعهم، و معهم المبشرين بلا مبالاتهم، لم يكونوا مؤهَّلين لدراسة و فهم الشعوب الإفريقية[2].

و هكذا فإن الكشوف الجغرافية التي بدأت محتشمة في بداية القرن الخامس عشر (15م)، بسبب تواضع الإمكانيات و ضعف التكنولوجيا و الخوف من المجهول، سرعان ما استطاعت قبل نهاية القرن تحقيق الهدف الذي بدأت من أجله، متغلبة عل كل الصعاب، و مُحدِثة تغيراً كبيراً في الواقع الأوربي و في تفكير الإنسان الأوربي.

المبحث الثالث : ظهور الجمعيات الجغرافية في أوربا.

شهدت أوربا خلال القرن الثامن عشر (18م) تحولات كبرى، كانت انعكاساً للنهضة التي عرفتها هذه القارة.فقد عرفت تقدماً علمياً و فكرياً كبيراً، جعلت العقل الأوربي ينفتح على الغير، و أصبحت معرفة الجديد و حب العلوم راسخين عند إنسان القرن الثامن عشر (18م)، و أصبح ذلك الإنسان يسخر من الخرافات و الأساطير[3] التي ظل يؤمن بِها لفترة طويلة.كما أصبحت الطبقة المثقفة ذات تأثير عميق في المجتمعات الأوربية، بل حتى في الحكومات، و من أوجه هذا التأثير الحملة التي خاضها المثقفون و من بعدهم بعضُ السياسيين ضد تجارة الرقيق، التي اعتبروها وصمة عار في جبين الدول الأوربية التي كانت تدعي الحضارة و اتخذت منها شعاراً.و كانت نتيجة تلك الحملة هي إلغاء تجارة الرقيق في المستعمرات البريطانية أولاً سنة (1249هـ/1833م)، و بعدها في المستعمرات الفرنسية سنة (1264هـ/1848م)[4].و يدخل في هذا الإطار أيضاً الحملة الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت و التي تمخضت عنها نتائج علمية مهمة[5].

قامت الثورة الصناعية بأوربا في نهاية القرن الثامن عشر (18م) الميلادي، مما عزَّز الفضول العلمي و قوَّاه و زوَّدهُ بكل الوسائل اللازمة، لكن هذه الثورة، في الوقت نفسه، غيَّرت الواقع الاقتصادي في قارة أوربا، حيث أصبحت هناك حاجة ماسة إلى المواد الأولية و منافذ تجارية

[1] يسري عبد الرازق الجوهري: **المرجع السابق**، ص 208.

[2] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 145

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, pp313-314

[4] Ibid, p.315

[5] Cornevin, Robert : Histoire de l’Afrique, Tome 2, Payot, Paris, 1966, p.475-476

جديدة[1] تعوّض تجارة الرقيق المحتضِرة.و هكذا تهيأت ظروف جديدة اقتصادية و علمية، أعطت الحركة الاستكشافية الجغرافية دفعة جديدة، بعد الركود الذي عرفته في مطلع القرن السادس عشر (16م) الميلادي.

في خضم هذه الظروف و التحولات التي كانت عرفتها أوربا، ظهرت الجمعيات الجغرافية الأوربية في الكثير من الدول الأوربية، و هي الجمعيات التي كان لها دور بارز في دفع الحركة الاستكشافية، و الاهتمام و تطوير علم الجغرافيا الحديثة قبل أن تهتم بِها الجامعات و الدراسات الأكاديمية في تلك الدول[2].و كانت أول الجمعيات التي ظهرت جمعية "كوزموجرافية" الألمانية و "الجمعية الهولندية الجغرافية" اللتان تأسَّستا في القرن الثامن عشر الميلادي (ق 18م)، لكنهما توقفتا بعد فترة قصيرة نتيجة الظروف السياسية لبلديهما[3].

و في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م) تأسَّست "الجمعية الإفريقية African Association" البريطانية، رائدة الجمعيات الجغرافية الأوربية.و قد ظهرت هذه الجمعية بفضل جهود "السير جوزيف بانكس★ Sir Joseph Banks" المؤيد الأول لحركة الكشوفات الجغرافية البريطانية، و الذي كانت له رحلة بحرية مع البحار البريطاني المشهور "جيمس كوك★★ James Cook"[4]، و الذي كان متعطشاً بشدة لتحقيق اكتشافات جغرافية جديدة[5].

أسَّسَ بانكس مع اثني عشرة (12) من زملائه الأثرياء نادياً، توسَّع مع مرور الزمن ليرقى إلى جمعية تأسست في اجتماع عُقِد في (3 رمضان 1202هـ/9 جوان 1788م)[6]، و سرعان ما زاد عدد أعضائها حيث بلغ عددهم خمسة وتسعين (95) عضواً سنة (1204هـ/1790م)[7]، من

---

[1] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p. 225

[2] صلاح الدين علي الشامي : **المرجع السابق**، ص 210.

[3] المرجع نفسه: ص 212.

★ - (1743-1820) عالم طبيعة انجليزي، رحل مع البحارة المشهور كوك في رحلته الأولى إلى أستراليا و نيوزيلندا ما بين 1768 و 1771 (GDEL, Tome 1, p.1025)

★★ - (1728-1779) بحار انجليزي قام بعدة رحلات قادته إلى أستراليا و نيوزيلندا و المحيطين الأطلسي و الهادي (GDEL, Tome 3, p.2597)

[4] جوزفين كام: **المستكشفون في إفريقيا**، الطبعة الأولى، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، مصر: 1983،ص86.

[5] Les Grands Explorateurs, Larousse, Octobre 2006, p.181

[6] س هوارد: **المرجع السابق**، ص 65.

[7] Dumont, Jean (ed.) :op.cit, p.331

من الأثرياء و المثقفين و على رأسهم جوزيف بانكس[1].تعتبر الجمعية أقدم هيئة علمية بريطانية وكان اسمها الكامل عند تأسيسها "جمعية ترقية اكتشاف الأراضي الداخلية لإفريقيا Association for promoting the discovery of the inland districts of Africa"[2].و من التسمية يتضح هدف هذه الجمعية، و هو استكشاف الأراضي الداخلية لإفريقيا، و رغم أنَّ هدفها الأساس كان علمياً محضاً، لكن كانت لها أهداف أخرى تُحرِّكها، مثل خلق روابط تجارية بين بريطانيا و غرب إفريقيا[3] و منع تجارة الرقيق و تنصير السكان[4].ففي (1204هـ/1790م)، نشرت الجمعية أول مطبوعة لها حول داخل إفريقيا، استندت فيها على المعلومات المستقاة من تجار الرقيق و القناصل الذين كانوا يعملون هناك[5].

في عام 1235هـ/1820م توفي بانكس و خلفه رجل آخر معروف بحماسه للكشوف الجغرافية و هو السير "جون بارو John Barrow"[6].و بعد ذلك تبنّت الحكومة البريطانية هذه الجمعية فأصبحت تُسمى "الجمعية الجغرافية الملكية Royal Geographical Society"[7].

و من الجمعيات الجغرافية الرائدة في أوربا خلال القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، إلى جانب الجمعية الإفريقية البريطانية، نجد جمعية فرنسية كانت تُسمَّى "الجمعية الجغرافية بباريس La Société de Géographie de Paris" التي تأسَّسَتْ سنة (1236هـ/1821م)[8].أدَّت هذه هذه الجمعية دوراً مميزاً في بعث حركة الاستكشاف في فرنسا، و كانت وراء معظم الكشوفات الفرنسية التي تمَّت في ذلك القرن، و يُعتبر اكتشاف مدينة تمبكتو الأسطورية بالنسبة إلى الأوربيين، على يد المستكشف الفرنسي "روني كاييه"، من أهم انجازات هذه الجمعية بسبب ما بذلته من جهودٍ في سبيل الوصول إلى هذه المدينة الصحراوية، حيث خصَّصَّت سنة (1242هـ/1827م) جائزة بقيمة عشرة آلاف (10000) فرنك فرنسي لأول رحَّالة يصل إلى تمبكتو[9].

---

[1] WILSON, Leighton : op.cit, p.65

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص 86.

[3] المكان نفسه، ص 86.

[4] Dumont, Jean(ed.): op.cit, p.331

[5] Ibid, p.331

[6] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص124.

[7] Les Grands Explorateurs, p.181

[8] صلاح الدين علي الشامي: **المرجع السابق**، ص 213.

[9] **الرحالة العرب و المسلمون: اكتشاف الآخر: المغرب منطلقاً و موئلاً**، الطبعة الأولى، أعمال ندوة، وزارة الثقافة المغربية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المملكة المغربية: نوفمبر 2003، ص 161.

و يعتبر القرن التاسع عشر (19م) الميلادي، قرن الجمعيات الجغرافية بوضوح، نتيجة العدد الكبير للجمعيات التي عرَفَها، و حجم الانجازات و الاكتشافات الجغرافية التي حققتها خاصة في قارة إفريقيا.ففي الفترة الممتدة ما بين (1235-1287هـ/1820-1870م)، نشأت خمسة عشر (15) جمعية جغرافية أوربية ناجحة[1].

و بغض النظر عن الدوافع التي حرَّكت هذه الجمعيات، إلا أنّها قدّمت خدمة بارزة لعلم الجغرافيا، بالنظر إلى الكم الهائل من المعلومات التي جمعتها حول طبيعة و ثروات و شعوب مختلف مناطق العا لم.

و منذ تأسيسها صبَّت الجمعية اهتمامها الكلي على نهر النيجر الذي كان ما زال مجهولاً لدى الأوربيين، و يلفُّه غموض كبير، حتى كان يعتقد البعض بأنَّه نهر النيل.ولم تكن معرفة البريطانيين في غرب إفريقيا آنذاك تتعدى أنهار السنغال و غامبيا، أو أنهار الزيت التي تصب في خليج غينيا[2].و لهذا كانت الحاجة آنذاك ملحة لإيجاد المتطوعين الذين يمكنهم استكشاف النهر، و الذين يجب أن تتوفر فيهم جملة من الشروط كالشجاعة و التحمل مثلاً لانجاز المهمة.و من الطبيعي أن تكون المحاولات الأولى للجمعية فاشلة بسبب نقص الخبرة و العتاد، أوَّلُها رحلة "ليديارد Ledyard"، و بعدها رحلة "لوكاس Lucas"، ثم رحلة "هوفتون Houghton"، و هي رحلات كانت كلها في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (ق 18م)، و كلَّفت الأولى و الثانية منها مائتين وسبعة و ثلاثين (237)، و أربعمائة (400) جنيه إسترليني على التوالي[3].و سيأتي تفصيل هذه الرحلات الثلاث في بداية المبحث الثاني من الفصل القادم.

لقد أخرجت هذه الجمعيات الكشوف الجغرافية، و لو جزئياً، من الإطار الديني و التجاري الذي غلب عليها إلى الإطار العلمي المتخصِّص و المنظم، مما زاد في فعَّاليتها و جعل انعكاساتها مفيدة جداً لأوربا.

مع مجيء منتصف القرن السادس عشر الميلادي (16م)، أصبحت أوربا سيِّدة البحار و المحيطات و استطاعت إضعاف الخطر الإسلامي بشكل واضح، فتطلعت إلى بسط هيمنتها على المناطق الساحلية التي اكتشفتها، و هو أمر تطلَّب منها جهوداً كبيرة استغرقت حوالي ثلاثة

[1] صلاح الدين علي الشامي: **المرجع السابق**، ص 212.

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق** ، ص 86.

[3] Dumont, Jean (ed.): op.cit, p.333

قرون.و في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، فرضَتْ الثورة الصناعية على أوربا البحث عن الموارد الطبيعية مما أدى إلى إطلاق موجة جديدة من الكشوف التي استهدفت الوصول إلى الأراضي الداخلية لمختلف القارات و منها إفريقيا.

الفصل الثالث: الأوربيون يستكشفون داخل غرب إفريقيا

المبحث الأول: الانتقال الأوربي من السواحل الإفريقية إلى داخل غرب إفريقيا

المبحث الثاني: المستكشفون المنطلقون من ساحل غرب إفريقيا

المبحث الثالث: المستكشفون المنطلقون من ساحل البحر المتوسط

كانت معرفة الأوربيين بقارة إفريقيا، خاصة في الأراضي الداخلية، حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي (ق19م) محدودة جداً، رغم أن التواجد الأوربي في سواحلها كان قبل ذلك بحوالي أربعة قرون.يقول "مونتسكيو[1] Montesquieu" في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي (18م) : " اليوم نعرف جيداً السواحل ... و لكننا نجهل الداخل "، و ظلَّ حسن الوزان المصدر النموذجي الوحيد للأوربيين في ما يخص بلاد السودان.و كانت العلاقة طيلة هذه الفترة تنحصر في التجارة، خاصة منها تجارة العبيد، و إلى جانبها نشاط المبشرين. هذه العلاقة حكمتها مجموعة من العوامل الاقتصادية، و السياسية و الطبيعية، أدَّت إلى عدم انتباه الأوربيين إلى الداخل الإفريقي حتى بداية القرن المذكور الذي نشطت فيه الجمعيات الجغرافية، و سخرت كل الوسائل من أجل اكتشاف الأجزاء الداخلية للقارة الإفريقية ، و مع نهاية هذا القرن تمكن الأوربيون من التعرف و إزالة الغموض عن كامل الأراضي الإفريقية، لتتغير طبيعة العلاقة بين الطرفين، حيث أصبحت إفريقيا مجالا للتنافس الأوربي من جديد، كما حدث في القرن الخامس عشر الميلادي (ق15م)، بعد اكتشاف السواحل الإفريقية.

المبحث الأول: الانتقال الأوربي من السواحل الإفريقية إلى داخل غرب إفريقيا

رأينا سابقاً بأن الحضور الأوربي في إفريقيا بدأ من السواحل الغربية للقارة منذ القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، عندما بدأت الحركة الاستكشافية الأوربية بقيادة البرتغال، لكن الأوربيين عند وصولهم إلى السواحل الإفريقية ، لم يعتبروها أكثر من أنها مجرد محطات و نقاط توقف فقط في طريقهم إلى الهند، الوجهة التي حركتهم و دفعتهم إلى المبادرة للاستكشاف.غير أنه و مع مرور الزمن، و بعد الوصول إلى الهند سنة 903هـ/1498م على يد فاسكو داغاما، تطور الحضور الأوربي على السواحل الإفريقية، حيث شيد الأوربيون عشرات المراكز و الحصون و المرافئ على طول هذه السواحل خاصة الغربية منها بسبب قربها و أهميتها الاقتصادية من خلال تجارة الرقيق.فبعدما كان البرتغاليون و معهم الأوربيين يبحثون عن الوصول إلى بهارات الهند، وجدوا سلعا و بضائع ذات أهمية تجارية أكبر منها على حواف القارة السمراء، لتتحول السواحل الإفريقية من مجرد نقاط عبور نحو الهند، إلى فضاء تجاري ذرَّ على الأوربيين أرباحاً طائلة على مدى قرون عدة، خاصة عن طريق تجارة الرقيق.

---

[1] COQUERY-VIDROVITCH, Catherine : op. cit, p.219

طيلة أربعة قرون من التواجد على السواحل الإفريقية، غاب أي دافع قوي لدى الأوربيين من أجل التوغل في الأراضي الداخلية الإفريقية، و بالنظر إلى المدة التي قضاها هذا التواجد، فإنه لمن المثير للاهتمام ،معرفة الأسباب التي جعلت الأوربيين يديرون ظهورهم للداخل الأفريقي، رغم الجشع الذي ميز التجار الأوربيين الذين تعدوا حدود التجارة، إلى الاستغلال في أبشع صوره، حينما أجبروا الملايين من خيرة أبناء إفريقيا على الانتقال عبيداً إلى أوربا و القارة الأمريكية للعمل في المزارع والأعمال الشاقة، وسط صمت شِبه مُطبِق لدى رجال الدين، و السياسيين و بعدهم المثقفين في القرون المتأخرة.لكن الحديث عن غياب الاهتمام الأوربي بالداخل الأفريقي، لا ينفي وجود محاولات أوربية لسبر أغوار هذا الداخل، و محاولة البحث عن فرص ربط علاقات معه، في إطار الكسب المادي، بعيداً عن أية أهداف إنسانية سامية. ففي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي (15م) ، حاول تاجر من إمارة جنوة، و هو "أنطونيو ملفانتي Antonio Melfante"، اختراق الصحراء الكبرى من أجل الوصول إلى مصادر الذهب في السودان حتى وصل إلى توات، لكنه لم يبلُغ مراده[1] .

و في سنة (875هـ/1470)م وصلت أخبار إلى أوربا عن رجل أعمال من فلورنسا إسمه "بينيديتو دَي Benedetto Dei" كان يمارس تجارة الأقمشة في مدينة تمبكتو[2].

و بعد وصول البرتغاليين إلى سواحل إفريقيا، و ازدهار التجارة فيها، حاول بعضهم الوصول إلى تمبكتو التي كانت رمز الازدهار و تجارة الذهب لدى الأوربيين حسبما كانوا يقرأون عنها في الكتب، و تذكر بعض المصادر بأنهم وصلوها سنة (892 هـ/1487م)[3].و خلال القرن السابع عشر الميلادي (17م)، كانت هناك عدة محاولات للتوغل في الأراضي الغربية لإفريقيا، على غرار رحلة "بول أمبير Paul Imbert" التي قام بها إلى تمبكتو عن طريق مراكش عام (1027هـ/1618م)، و رحلة الانجليزي "بارثولوميو ستيبس Bartholomew Stibbs) الذي توغل في نهر غامبيا سنة (1032هـ/1623م) حتى وصل إلى منابعه تقريباً، و اكتشف بأن هذا النهر لا

[1] زاهر رياض: **المرجع السابق** ، ص151.

[2] المكان نفسه، ص 151.

[3] حلمي محروس إسماعيل: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية**، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر: 2004، ص10.

يوجد له أي ارتباط مع نهر النيجر[1].و يُضاف إلى ذلك رِحلتَي "أندري برو André Brüe" إلى المجرى الأعلى لنهر السنغال عام (1108هـ/1697م) [2].و خلال القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، و قبل بداية عهد الكشوفات الجغرافية العلمية الكبرى، كانت هناك سلسلة من الرحلات الاستكشافية في غرب إفريقيا، نذكر منها رحلة "ميشال أدانسون Michel Adanson" عام (1123هـ/1750م) في نهر غامبيا و الوصول إلى بلاد الماندينغ، و رحلة "روبير نوريس Robert Norris" عام (1186هـ/1772م) في بلاد الأبومي★ Abomey، و أخيراً رحلة "ليونارد ديران Léonard Durand" إلى بلاد السنغال عام (1199هـ/1785م)[3].

غير أن هذه المحاولات الأوربية الأولى كانت عبارة عن مبادرات فردية منعزلة، و ليست رحلات كشف منظمة تقف وراءها هيئات و حكومات أوربية، فلذلك كانت نتائجها متواضعة، و لم تغير من واقع الحال في طبيعة التواجد الأوربي على السواحل الغربية لإفريقيا. و الأكيد أن هذا الانشغال الأوربي عن الداخل الإفريقي لقرابة الأربعة قرون لم يكن اختيارا أو إستراتيجية أوربية مخطط لها، و إنما كان واقعاً فرضته مجموعة من الظروف و العوامل المختلفة هي:

1. وجود الحاجز الإسلامي في الجهة الشمالية لإفريقيا، مما منع محاولات التوغل الأوربي إلى منطقة غرب إفريقيا[4]. هذا الحاجز الذي حرم أوربا لفترة طويلة من الوصول المباشر إلى الهند، ظل صامداً رغم انسحاب المسلمين من بلاد الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، و محاولات البرتغاليين طردهم من شمال إفريقيا، بعد احتلالهم لمدينة سبتة المغربية كما سلف الذكر في الفصل السابق.
2. إلى جانب هذا الحاجز الشمالي يوجد حاجز أخر من الجهة نفسها، وهو وجود الصحراء الكبرى المترامية الأطراف، و التي كان الأوربيون غير معتادين عليها و التنقل فيها، هذا عكس القوافل العربية التي ظلت تتنقل في الصحراء الكبرى طيلة الفترة التي إزدهرت فيها التجارة العربية و الإسلامية بين بلاد السودان الغربي و شمال إفريقيا.

---

[1] يسري عبد الرزاقالجوهري: **المرجع السابق** ، ص208.

[2] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص10.

★ – مدينة تقع حالياً في البنين، و هي عاصمة ولاية زو (GDEL, Tome 1, p.22)

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome 4, pp.317-319

[4] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1987، ص9.

و الحقيقة أن بعض الأوربيين حاول استغلال هذه القوافل للتنقل معها و بلوغ المناطق المتوجهة إليها، لكنهم لم يفلحوا بسبب رفض رؤساء القوافل لذلك، إما لأنهم ليسوا مسلمين أو خوفاً من اكتشافهم لأسرار التجارة المزدهرة.هذا الأمر ينطبق على كامل الفترة الممتدة من بداية عهد الاكتشافات الأوربية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م) حيث تمكن العديد من الرحالة الأوربيين من مرافقة القوافل التجارية، و استطاع بعضهم تحقيق مبتغاه، و هذا بسب تراجع التجارة العربية مع بلاد السودان الغربي، وكذلك تناقص الحماس الديني في شمال إفريقيا و تراجع دور الكنيسة التي كانت تحرِّض على كُرِهِ المسلمين في أوربا.

3. و كما كان هناك حاجز أمام الأوربيين من الناحية الشمالية، فإن الجهة الجنوبية و الغربية لم تكونا أحسن استضافة للأوربيين مقارنة بالجهة الأولى، خاصة من الناحية الطبيعية.فالسواحل قليلة التعرج أولاً، و بالتالي فهي لا تساعد على تشييد المرافئ بسبب قلة الخلجان، فإذا أخذنا مثلاً الساحل الممتد بين سيراليون و خليج البنين على مسافة ألفين و أربعمائة و أربعة عشر كيلومتراً (2414 كم) ، فإنه لا وجود لخليج واحد يُمكن أن يحمي سفينة من الرياح و التيارات القوية للمحيط مهما كان حجمها، و كان على السفن البقاء على بُعد ثلاثة كيلومترات (3كم) من الساحل تقريباً و كانت عملية الشحن و التفريغ تتم عن طريق القوارب[1].بالإضافة إلى ذلك نجد قلة في الجزر القريبة من الساحل الغربي الإفريقي[2] ، يمكن اتخاذها كنقاط انطلاق نحو اكتشاف الداخل.

4. و على المناطق الساحلية المطلة على خليج غينيا خاصة يسود مناخ قاس يمتاز بالارتفاع الشديد للحرارة و الرطوبة[3]، لم يعتد عليه الرجل الأوربي و وجد صعوبة في التأقلم معه لما له من تأثير على عملية التنفس، و تعود قساوة المناخ إلى وقوعِ هذه المناطق بين خط الاستواء و مدار السرطان.كما أن هذا المناخ ساعد على نمو بعض الأمراض القاتلة التي أودت بحياة الكثير من الأوربيين تجارًا و مبشرين و مستكشفين

---

[1] Wilson, Leighton: op.cit, pp.26-27

[2] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق** ، ص9.

[3] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ص8.

حتى كان خليج غينيا يُوصف بأنه مقبرة الرجل الأبيض[1]، في ظل غياب العلاجات اللازمة لها حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي (19م).و من هذه الأمراض القاتلة، مرض الملاريا الذي ظل يفتِك بالأوربيين، حتى إكتشف أحد الأطباء العاملين بالأسطول البريطاني سنة (1263هـ/1847م) بأن تناول جرعة يومية من مشروب "الكينين Quinine" تُكسِب الإنسان المناعة ضد الملاريا، و هو ما تأكد سنة (1270هـ/1854م) عندما عاد الجنود الاثني عشر الذين أبحروا على متن قارب في أعالي نهر النيجر و نهر بنوي سالمين في أحد الرحلات الاستكشافية[2].

5. هذا المناخ أيضاً أدى إلى نمو غطاء نباتي كثيف على طول سواحل إفريقيا الغربية، يبدأ بالغابات و الأدغال الكثيفة التي تشكل حزاماً يبلغ امتداده العرضي مئات الكيلومترات[3]، ليتدرج إلى السفانا باتجاه الداخل، و إن كثافة هذا الغطاء عرقلت أي محاولة أوربية لبلوغ الداخل لغياب السكان، و وجود أصناف من الحيوانات المفترسة كالأسود، و الحشرات الضارة مثل دبابة التسي التسي[4].
6. يزيد ارتفاع الأراضي بالاتجاه من السواحل نحو الداخل، حيث يغلب الطابع الهضابي على أراضي غرب أفريقيا التي تنتهي فجأة بسهول ساحلية ضيقة[5]، و تتخلل هذه الهضاب مجموعة من الجبال تشكل حداً طبيعياً بين المناطق الداخلية و المناطق الساحلية[6]. إن وجود هذه المرتفعات، جعل عمليات الاستكشاف في داخل غرب إفريقيا صعباً، حيث قيدت تحركات المستكشفين و فرضت عليهم الانطلاق من نقاط معينة على الساحل و تتبع مسالك عادةً ما تكون صعبة بسبب وجود الغابات أو الحيوانات المفترسة أو وجود الأنهار غير القابلة للملاحة.

---

[1] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص188.

[2] كولين ماكيفيدي: **المرجع السابق**، ص186.

[3] Wilson, Leighton: op.cit, p.27

[4] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق** ، ص126.

[5] المرجع نفسه: ص ص119،120.

[6] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص8.

7. و من العقبات الأخرى كذلك التي أعاقت التقدم الأوربي في أراضي غرب أفريقيا، نجد الأنهار التي تكثر في المنطقة، و يصب معظمها في المحيط الأطلسي، مثل السنغال ، غامبيا ، ريوغراندي، سيراليون، و النيجر.هذه الأنهار، و رغم فائدتها الهامة التي قدَّمتها للمستكشفين من خلال إرشادهم في المناطق التي عبروها، هي أنهار غير صالحة للملاحة في أجزاء طويلة من مجاريها —كما ذكرت سابقاً— و ذلك بسبب وجود الشلالات و الجداول، و تنتهي في مصباتها إما بدلتات أو مستنقعات أو شلالات يصعب الإبحار فيها إلى الداخل[1]، ناهيك عن أنها تمر وسط الغابات الكثيفة التي سبق التطرق إليها[2].

فنهر النيجر الذي سحَر المستكشفين عجز كل المستكشفين عن اختراقه من جهة المصب لأنه ينتهي بدلتا كثيرة الفروع و في منطقة قاسية المناخ[3].و لهذا السبب فإن أغلب هذه الأنهار تم كشفها بالطرق البرية المجاورة لها[4].

8. و أمام كل هذه الصعوبات التي واجهها الأوربيون، لم تكن الوسائل التي استخدموها في التنقل عبر أراضي غرب إفريقيا في مستوى هذه التحديات الطبيعية التي صادفوها، مما صعَّب عملية الاستكشاف و أبطأها.فجل المستكشفين قد اعتمدوا في تنقلاتهم على البغال و الحمير و الأحصنة التي هي حيوانات قوية فعلاً و أفادتهم كثيراً في تحقيق أهدافهم، لكنها لا يمكن أن تتحمل السير لمسافات طويلة، و كم من قافلة شكلها المستكشفون، انتهت بموت جل الدواب المكونة لها قبل أن يبلغ المستكشفون أهدافهم.أضف إلى ذلك، أن غياب وسائل التبريد و الأغذية المحفوظة صعب من مهمة المستكشفين[5]، الذين كان عليهم التنقل لمسافات بعيدة و لوقت طويل، وفي مناطق تنعدم فيها كل أشكال الغذاء الذي يحتاج إليه الإنسان، مما حوَّل الرحلة الاستكشافية إلى مغامرة محفوفة بالمخاطر.

---

[1] إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص25.

[2] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص23.

[3] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق**، ص124.

[4] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ص8.

[5] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص12.

9. إلى جانب كل العوامل السابقة التي أخَّرت الاهتمام الأوربي بالداخل الإفريقي، يوجد عامل آخر و هو أن سياسة الأوربيين اتجاه القارة، منذ اكتشافات القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، لم تكن تستهدف في البداية إفريقيا في حد ذاتها، و إنما كان الغرض منها هو الوصول إلى أسواق الشرق الأقصى، لأنهم كانوا يجهلون القارة الإفريقية تماماً، و كان انشغالهم الأساس هو تجارة التوابل الهندية، أي أن إفريقيا بالنسبة للأوربيين كانت عبارة عن محطة عبور إلى الشرق الأقصى.

10. بعد اكتشاف القارة الأمريكية استحوذت هذه الأخيرة على اهتمام الأوربيين، لأنها كانت سهلة بالمقارنة مع القارة الإفريقية، و الحقيقة أن مصير إفريقيا أصبح مرتبطاً بمصير أمريكا. فالوجود الأوربي في العالم الجديد كان بحاجة ماسة إلى اليد العاملة، لإعمار تلك البلاد و استغلال ثرواتها، و بذلك أصبحت إفريقيا مطمعاً مباشراً للأوربيين – ليس في ثرواتها و أسواقها للأسف – و إنما في خيرة أبنائها الذين تم نقلهم قسراً كعبيد إلى أمريكا.فأصبحت تجارة العبيد الذين أطلق عليهم اسم " العاج الأسود"[1] النشاط الاقتصادي الأوربي الأول بامتياز على سواحل إفريقيا.
إن هذه التجارة المربحة لم تتطلب من الأوربيين البحث عن التوغل داخل القارة، لأنهم كانوا يحصلون عل العبيد في السواحل من الحكام و شيوخ القبائل و تجار الرقيق الأفارقة، الذين استفادوا هم كذلك من الوافد الجديد – أي الأوربي– لأنهم وجدوا بوساطته رواجاً لبضاعاتهم من العبيد.لكن هذه المنفعة المتبادلة بين تجار الرقيق الأوربيين و الأفارقة، لم تشفع للرجل الأبيض بأن يلقى ترحيباً عند السكان الأصليين في إفريقيا، الذين كانوا يضمُرون عداءاً شديداً له[2]، و هذا رغم محاولات الأوربيين تحسين صورتهم في نظر هؤلاء السكان المحليين، و الجهود التي بذلها المبشرون في إقناعهم بالرسالة الحضارية للرجل الأبيض كما كانوا يدَّعون.و لما كان الأوربيين يلهثون وراء المكاسب المادية من تجارة الرقيق، فإنهم كانوا يجهلون حجم الثروات الهائلة التي

[1] ثريا شرف: **المرجع السابق،** ص189.
[2] فتحي محمد أبو عيانة: **المرجع السابق،** ص12.

تحتويها القارة الإفريقية مقارنة بالأمريكيتين[1]، و استمر الحال هكذا حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، حيث ستظهر معطيات جديدة غيَّرت جذرياً طبيعة الوجود الأوربي في إفريقيا.

في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، عرفت أوربا نضجاً فكرياً و علمياً كانت نتيجته حركة واسعة من البحث العلمي، و التطلع لمعرفة كل ما هو جديد. و من العلوم التي استحوذت عل اهتمام شريحة واسعة من الناس و العلماء، علم الجغرافيا و كل ما له علاقة بالاستكشافات الجغرافية، لأن هذه الاستكشافات فتحت آفاقاً جديدة و واسعة أمام مختلف العلماء كالجغرافيين، المؤرخين، الجيولوجيين، علماء الآثار، علماء النبات و آخرين لتوسيع أبحاثهم و تحقيق اكتشافات جديدة، و الوصول إلى حقائق كانت مجهولة أو تحتاج إلى تأكيد، كلٌ في مجال اختصاصه.و من الأدلة على ذلك أن عدداً كثيراً من الرحَّالة و المستكشفين في القرن التاسع عشر الميلادي (19م) كانوا علماء و أصحاب مكانة من الناحية العلمية و الأكاديمية.

و نتيجة لهذا التفتح الأوربي، ظهرت "الجمعية الإفريقية" في بريطانيا، و التي كان لها أثر بالغ في مسيرة استكشاف الداخل الإفريقي، بفضل جهودها و رعايتها للمستكشفين الذين برز العديد منهم استطاعوا أن يكتشفوا أراضي مجهولة واسعة و جديدة، قدَّموا حولها دراسات جغرافية و إثنية و دينية و سياسية و اقتصادية أضافت الكثير للمعرفة الإنسانية عن القارة السمراء.و بعد تأسيسها مباشرة سنة (1202هـ /1788م)، شرعت الجمعية في أعمال الاستكشاف الجغرافي في إفريقيا، و ركَّزت جل جهودها في البداية على نهر النيجر، الذي كان يلفه غموض كبير من حيث المناطق التي ينبع فيها و الاتجاه الذي يسلكه و مصبه في النهاية.لقد تضاربت الآراء، حتى عند كبار الجغرافيين، حول مجرى هذا النهر حيث اعتقد الكثيرون أن النيجر يجري من الشرق إلى الغرب ، و أنه يصب في ثلاثة مجارٍ هي غامبيا، السنغال و ريوغراندي[2].و نظراً لأهمية هذا النهر من خلال مجراه الطويل، و اختراقه للأراضي الغنية بالثروات خاصة الذهب، و مروره بأهم حواضر غرب إفريقيا آنذاك أو بالقرب منها مثل تمبكتو، فإن الجمعية الإفريقية أرادت أن تفك لغزه، لأن ذلك يعتبر انجازاً لا يقل في أهميته عن الوصول إلى الهند و القارة الأمريكية، علاوة على الفائدة

---

[1] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص9.

[2] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص191.

الاقتصادية الكبيرة التي ستنجر عن معرفته و معرفة الأراضي التي يجري فيها و الشعوب التي تعتمد عليه.

اقتنعت الجمعية الإفريقية في البداية أن الوصول إلى نهر النيجر يكون عن طريق عبور الصحراء الكبرى، باستغلال القوافل التجارية التي كانت في تنقل دائم بين بلاد السودان و بلاد شمال إفريقيا.لهذا السبب انطلقت الرحلات الاستكشافية الأولى، التي رعتها الجمعية، من الساحل الإفريقي الشمالي.و هذه المحاولات الأولى باءت كلها بالفشل، بسبب انعدام الخبرة اللازمة عند المستكشفين، و الصعوبات الجمة التي صادفوها.

كانت أول رحلة أشرفت عليها الجمعية الإفريقية، بقيادة متطوع أمريكي اسمه "جون ليديارد John Ledyard"[1] ابن السبعة و الثلاثين عاماً[2]، و تمثلت مهمته حسب تعليمات الجمعية الإفريقية، في الوصول إلى السنغال انطلاقا من مصر عبر الصحراء الكبرى، غير أن هذا المتطوع مات قبل أن يغادر القاهرة متأثراً بالحُمى التي أصابته هناك[3].

مباشرة بعد وفاة ليديارد، و في نفس السنة، اختارت الجمعية الإفريقية متطوعاً أخر هو الانجليزي "وليام لوكاس William Lucas"[4]، و كانت التعليمات الموجهة إليه هي البحث عن إمكانية الوصول إلى نهر النيجر عبر فزان في ليبيا[5].كان لوكاس على معرفة حسنة باللغة العربية و التقاليد العربية[6].غادر انجلترا في شهر (ذي القعدة 1202هـ/أوت 1788م)، و في شهر (محرم 1203هـ/اكتوبر1788م) وصل إلى طرابلس، و بدأ رحلته منها في (4 جمادى الأولى 1203هـ/01 فبراير 1789م) متوجهاً نحو مصراته التي وصلها في اليوم الخامس[7]، غير أنه لم يُكمل رحلته

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p332

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص87.

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p332

[4] أتيليو موري: **الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع ق19م حتى الاحتلال الإيطالي**، الطبعة الثانية، تعريب خليفة محمد التليسي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلا ن، طرابلس، ليبيا: 1984، ص8.

[5] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص39.

[6] أتيليو موري: **المرجع السابق** ، ص9.

[7] المكان نفسه، ص9.

بسبب فشله في تنظيم قافلة لنفسه[1]، و عاد مباشرة إلى لندن، نظراً للصعوبات التي واجهته ، مكتفياً بجمع معلومات حول الصحراء و إقليم فزان.[2]

بعد محاولة لوكاس الفاشلة، اختارت الجمعية الإفريقية شاباً ألمانياً يدعى "فردريك هورنمان Frederick Horneman" و ذلك سنة (1203 هـ/1789م)[3]، و هذا لإتمام العمل الذي كان قد قد بدأه لوكاس[4].بدأ هورنمان رحلته من القاهرة في نفس السنة، بالانضمام إلى قافلة اتجهت إلى "سيوه" و بعدها اتجهت إلى مرزوق في فزان[5]، و نجح في الوصول إلى "بورنو" الواقعة على نهر النيجر، لكنه لقي حتفه هناك[6].و لا يُعرف الكثير حول رحلة هورنمان إلى بورنو[7]، غير أن مذكراته مذكراته تُعتبر مرجعاً هاماً في ما يخص المناطق الصحراوية التي كانت تعبرها القوافل التجارية من مصر و ليبيا إلى بلاد السودان[8]، و كان وصفه لهذه المناطق وصفاً دقيقاً خاصة في مجال الجغرافيا الطبيعية حسب ما ذكرته المراجع، و للإشارة فإن هورنمان هو أول أوربي تمكن من عبور الصحراء الكبرى[9]، و هذا يُعتبر انجازاً مهماً بالنظر إلى طول المسافة التي قطعها و قساوة الطبيعة في هذه الصحراء.

و بسبب فشل هذه المحاولات الثلاث في بلوغ نهر النيجر عبر الصحراء الكبرى، قرَّرت الجمعية أن تكون الرحلة هذه المرة من الغرب انطلاقاً من سواحل غرب إفريقيا[10].ففي عام 1205هـ/1791م، أرسلت الجمعية الإفريقية ضابطاً صاحب خبرة إلى السنغال، هو "الميجَر دانيال هوفتون Major Daniel Houghton"[11].بدأ رحلته بالإبحار في نهر غامبيا[12] حتى وصل إلى مدينة "بيزانيا Pisania" الواقعة على مسافة مائة و خمسين كيلومتر (150كم) إلى الداخل، ثم

---

[1] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق**، ص196.

[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p332

[3] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص87.

[4] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق** ، ص197.

[5] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص40.

[6] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق**، ص196.

[7] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص29.

[8] علي إبراهيم (عيسى) : **المرجع السابق**، ص196.

[9] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص29.

[10] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص269.

[11] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p332

[12] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص88.

توجه بعدها براً نحو تمبكتو[1]، و وصل بعيداً إلى "مدينه* Médine" على نهر السنغال[2].و بعد عبوره لنهر فاليمي Falémé[3]، فقَدَ حياته بعد اغتياله من طرف قبائل المنطقة[4].كانت آخر رسالة رسالة بعث بها، إلى أحد الأوربيين المتواجدين في مدينة بيزانيا مؤرخة بتاريخ (13 محرم 1207هـ/ 01 سبتمبر1792م)، و بعدها انقطعت أخباره إلى أن علِم المستكشف "مونجو بارك Mungo Park" بأنه قتل[5].

و هكذا، بعدما غاب الاهتمام الأوربي عن داخل غرب إفريقيا، اضطراراً و ليس اختياراً ، في مقابل وجودٍ دام أربعة قرون في المناطق الساحلية، أصبحت غرب أفريقيا بوتقة كل المجهودات الاستكشافية الأوربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، حيث عرفت حركة الاستكشاف تسارعاً مذهلاً، كانت نتيجته التعرف على جل أراضي غرب إفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

المبحث الثاني: المستكشفون المنطلقون من ساحل غرب إفريقيا.

إن فشل رحلات ليديارد، لوكاس ، هورنمان و هوفتون في الوصول إلى نهر النيجر، لم يُثنِ من عزيمة "جوزيف بانكس" و رفاقه في الجمعية الإفريقية لتكرار محاولات أخرى من أجل استكشاف نهر النيجر، حتى استطاعت تحقيق هذا الهدف الذي كان واحداً من أهدافها الرئيسة عند تأسيسها، و كان ذلك في ظل الانتقادات الحادة التي تعرَّضت لها في بريطانيا، حول تضحياتها بأرواح الأشخاص في عملية الكشف الجغرافي، لكن الجمعية برئاسة بانكس كانت ترى دائماً بأن الانجازات العلمية لا تتحقق بدون أن تكون هناك تضحيات[6].

لقد شكَّل نهر النيجر تحدياً للمستكشفين، و حظيت مشكلة هذا النهر باهتمام هام في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)[7]. فإلى غاية هذه الفترة كانت المعلومات حوله غامضة و

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p332

* – مدينة على ضفاف نهر السنغال، و ابتداءاً منها يصبح هذا النهر غير صالح للملاحة (Soleillet, Paul : Voyage à Ségou, 1878-1879, par Gabriel Gravier, Challamel ainé , Paris, 1887, p.VII)

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص88.

[3] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص269.

[4] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص88.

[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p332

[6] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص98.

[7] س هوارد: **المرجع السابق**، ص63

قليلة جداً في ما يتعلق بمجراه و مصبه، كما كثُرت الافتراضات الخاطئة في شأنه حيث كان يعتقد البعض أن هناك ارتباطاً بينه و بين نهر النيل[1]، كما تضاربت الآراء حول اتجاهه إنْ كان يتوجه نحو الشرق أو الغرب، مع أن ابن بطوطة عام (754هـ/1353م) ذكر بأنه يسير باتجاه الشرق[2].و يبدو أن الأوربيين و رغم إعجابهم بابن بطوطة الذي زار المنطقة و الذي اعتبروه لفترة طويلة كمصدر مهم في معرفة منطقة السودان الغربي، لم يُسلِّموا بسهولة بفرضية اتجاهه نحو الشرق، حيث توافرت حقائق جغرافية جديدة غابت عن الرحالة العربي، و زادت الغموض حول النيجر.

في تلك الفترة، اتصل السير جوزيف بانكس بطبيب اسكتلندي شاب كان يعمل على متن إحدى السفن التي أبحر فيها هو شخصياً، و هذا الطبيب هو مونجو بارك Mungo Park[3]، الذي أصبح أحد رموز الاستكشاف الجغرافي في إفريقيا[4] كما سيتضح لنا خلال هذا المبحث.لقد المبحث.لقد كان بارك يجمع كل المواصفات التي يجب أن تتوفر في المستكشف، فقد كان يمتلك بنية جسدية قوية، و حسن التعامل مع الآخرين[5]، و كان طموحاً و محباً للاستطلاع و فضولياً و و ذو ملاحظة دقيقة[6] و كان شغوفاً بالاستكشاف الجغرافي، و هذه المواصفات مكَّنت هذا الطبيب الشاب من تحقيق ما عجز عنه سابقوه، أي الوصول إلى نهر النيجر، فكان بذلك أول أوربي يصل إلى هذا النهر و يشاهد حوضه[7].و يبدو أن بارك كان مولعاً بإفريقيا إلى درجة أنه قام برحلتين استكشافيتين إلى غرب إفريقيا، رغم أنه واجه مصاعب و مخاطر في الرحلة الأولى، و بذل كل ما في وسعه للتوغل في النيجر إلى أبعد نقطة ممكنة، و لعل ما يؤكد هذا الإصرار هو ما نجده في الرسالة التي بعث بها إلى وزارة المستعمرات البريطانية عندما وصل إلى ضفاف نهر النيجر قال فيها: " أنا متجه نحو الشرق، واهباً نفسي للنيجر، مع الإصرار التام للكشف عن مصبه.كل

---

[1] Les grands explorateurs, op. cit, p.180

[2] أحمد نجم الدين فليجة: **إفريقيا دراسة عامة وإقليمية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر: د.ت، ص59.

[3] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص88.

[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p.333

[5] Ibid, p.334

[6] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص88.

[7] Les grands explorateurs, op.cit, p180

الذين كانوا معي ماتوا، و أنا كنت نصف ميت. سأواصل رحلتي، و إذا لم أبلغ هدفي، فعلى الأقل سيكون النيجر قبراً لي"[1].

غادر بارك انجلترا في رحلته الأولى سنة (1209هـ/1795م)، من ميناء "بورتسموث Portsmouth"، و عمره أربعة و عشرون عاماً، متوجهاً نحو ساحل إفريقيا الغربية، و بالضبط نحو مصب نهر غامبيا[2].و مباشرة بدأ صعود نهر غامبيا ملاحة يوم (14 ذي القعدة 1209هـ/21 ماي 1795م) حتى بلغ بيسانيا، حيث مكث عند أحد الأوربيين الموجودين فيها لتعلم لغة الماندينغ، و هي لغة أهل المنطقة، و اضطر إلى المكوث في هذه المدينة شهوراً عدة بسبب الحُمى التي أصابته[3]، و في ديسمبر من نفس السنة غادر بيسانيا[4] قاصداً نهر السنغال الذي عبره باتجاه نهر النيجر[5]، و في شهر ذي الحجة (1210هـ/يوليو 1796م) وصل إلى بلدة "سيجو Ségou" المطلة على نهر النيجر، و الواقعة على بعد ستمائة و ثلاثة و أربعين كيلومتر (643كم) من منبعه[6].و بالوصول إلى بلدة سيجو يكون قد رأى نهر النيجر لأول مرة، و هناك غمرته فرحة شديدة عبَّر عنها قائلاً: " و أنا أنظر أمامي، رأيت و أنا تغمرني سعادة كبرى الهدف الأكبر لمهمتي و هو نهر النيجر العظيم الذي كُنت أبحث عنه منذ مدة طويلة ... كان يلمع بأشعة الشمس و يجري ببطء باتجاه الشرق.جريتُ إليه و شربت من مياهه، و رفعت يديَّ إلى السماء شاكراً الرب على تتويج مجهوداتي بهذا النجاح الكبير "[7].

بعد سيجو توجه نحو مدينة "سيلا Sila" الواقعة شمال شرق المدينة الأولى ، و كان ذلك بمساعدة ملك مدينة سيجو، لكن و بسبب المصاعب التي واجهته، و هي الجوع و الأمراض و عداء سكان المنطقة له و لكل الغرباء، قرر بارك وضع حدٍ لرحلته و العودة من حيث جاء أي بيسانيا التي دخلها في شهر (ذي القعدة 1211هـ/ماي 1797م)[8]، بصحبة قافلة للرقيق تابعة

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p338

[2] أحمد نجم الدين فليجة: **المرجع السابق**، ص59.

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p334

[4] س هوارد: **المرجع السابق**، ص73.

[5] أحمد نجم الدين فليجة: **المرجع السابق**، ص59.

[6] جي دي فيج: **المرجع السابق**، ص245.

[7] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4; p335

[8] Ibid, p335

لتاجر مسلم.و قد مكث بارك في ضيافة هذا التاجر مدة سبعة شهور حتى شُفي من الحمى التي ألمت به[1]، و بعدها غادر إلى انجلترا.

رغم أن الرحلة الأولى لبارك لم تحقق الأهداف التي سُطرت لها في البداية، و هي اكتشاف منابع و مجاري الأنهار الثلاثة الكبرى في إفريقيا الغربية ألا و هي نهر النيجر، نهر السنغال، و نهر غامبيا، و كذلك معرفة الموقع الدقيق لمدينة تمبكتو[2]، غير أنَّ هذه الرحلة كانت على أهمية كبرى حيث برهن بارك بأن نهر النيجر يتجه فعلاً نحو الشرق، و بأن الأنهار الثلاثة المذكورة ليست متصلة ببعضها البعض[3].

لدى عودته إلى انجلترا، قررت الجمعية الإفريقية إبقائه في خدمتها حتى ينتهي من كتابة مذكراته[4]، و في انتظار ذلك عاد بارك إلى اسكتلندا، حيث تزوج و كوَّن عائلة من ثلاثة أطفال، و في سنة (1214هـ/1799م) أصدر بارك كتابه،تحت عنوان "رحلات في الأقاليم الداخلية من إفريقيا Travels in the Interior Districts of Africa"،سرد فيه مشاهداته حول كل المناطق التي زارها، مقدماً وصفاً دقيقاً للسكان و عاداتهم، و للمناخ، و التجارة، و كل الصعوبات و المخاطر التي واجهها في رحلته.و الحقيقة لقد لقي كتابه رواجاً كبيراً[5]، و أصبح من المصادر المهمة المهمة في تاريخ الكشف الجغرافي لإفريقيا إلى يومنا هذا.

على الرغم من أهمية انجازات "مونجو بارك" و الإضافة التي حققتها للمعرفة الجغرافية، إلا أن الجمعية الإفريقية أرادت مواصلة مجهودات الاستكشاف من أجل حل لغز مصب نهر النيجر.و لذلك اتصل جوزيف بانكس بالمستكشف مونجو بارك ثانية من أجل القيام برحلة أخرى إلى النيجر، و بعد تردد، وافق بارك على المغامرة ثانية مؤكداً بذلك عشقه لإفريقيا و طموحه الزائد و حبه للاستكشاف.

---

[1] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص ص 95،96.

[2] De La Richarderie, G.Boucher : Bibliothèque universelle des voyages, Tome 4, Slatkine Reprints, Genève, Suisse, 1970, p.189

[3] إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص22.

[4] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص96.

[5] المكان نفسه، ص96

انطلق بارك في رحلته الثانية، و هذه المرة على نفقة وزارة المستعمرات البريطانية و ليس الجمعية الإفريقية[1]، و كان الهدف هذه المرة، حسب ما ورد في الرسالة التي تلقاها بارك من ملك بريطانيا في (1 شوال 1219هـ/2 يناير1805م)[2]، هو استكشاف المناطق الداخلية من إفريقيا الغربية، و البحث عن فرص ربط علاقات تجارية مع سكانها.و قد وصل بارك إلى شبه جزيرة غوري عند ساحل السنغال على متن سفينة حربية[3]، و عبر نهر السنغال ثم نهر غامبيا، حيث سينطلق إلى نهر النيجر من بيسانيا في شهر صفر (1220هـ/ماي 1805م)[4] كما فعل في رحلته الأولى.

اصطحب المستكشف معه في رحلته ستة و أربعين جندياً مزودين بالبنادق[5].و بسبب موسم الأمطار و انتشار الحمى، مات جل أفراد البعثة و لم يبق سوى سبعة منهم من بينهم بارك عند الوصول إلى نهر النيجر[6].بعدها توغل بارك و رفاقه في النيجر لمسافة بلغت ألف وستمائة كيلومتر (1600كم) تقريباً حتى وصلوا إلى مدينة "بوسا★ Boussa"، و هناك قتل على يد الوثنيين الذين اعتقدوا بأنه و جنوده من المسلمين الذين يريدون غزو بلادهم[7].و كان بارك قبل نزوله في نهر النيجر قد منح مذكراته إلى أحد مرشديه المحليين، و الذي أوصلها إلى بيسانيا،و أما قصة وفاته فقد روى جزءاً منها أحد الناجين من قتلة بارك، كان من المحليين و يعمل مرشداً له، و اسمه "أحمدي فطومة Amadi Fatouma"[8].

مات بارك و هو على بعد ألف و مائة و ثمانية و خمسين كيلومتر (1158كم) من مصب نهر النيجر[9]، دون أن يحل اللغز المحير للجغرافيين، و مع ذلك فإن رحلته أضافت قدراً كبيراً من

---

[1] جي دي فيج: **المرجع السابق**، ص245.

[2] س هوارد: **المرجع السابق**، ص128.

[3] p.193 De La Richarderie ,G,Boucher : op. cit,

[4] Park, Mungo: The journal of a mission in the interior of Africa in the year 1805,John Murray, London, 1815, p.8

[5] كولين ماكيفيدي: **المرجع السابق**، ص158.

[6] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.337

★ – في شمال نيجيريا، أغرقها السد الذي بُني في ستينيات القرن 20م و الذي يبعد عنها بـ 15كم (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.334)

[7] كولين ماكيفيدي: **المرجع السابق**، ص158.

[8] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.338

[9] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص103.

المعلومات لدى الأوربيين حول المناطق التي جال فيها[1]، و ألهمت الكثير من المستكشفين الذين جاؤوا بعده و أبرزهم المستكشف "بارث Barth"، الذي قال أثناء رحلته بعد وفاة رفيقيه في الرحلة : "وجدت قوايا تتضاعف فشعرت بأنني عملاقاً كبيراً و كُنت غارقاً في أحلام تحقيق النجاح في مهمة بارك، المستكشف الوحيد الذي أُكِنُّ له إعجاباً غير محدود"[2].

بعد وفاة بارك ، توقفت الرحلات الاستكشافية في غرب إفريقيا مؤقتاً بسبب الخسائر البشرية التي إنجرت عنها، و لكن في هذه الأثناء كانت مذكرات بارك قد ألهمت الكثير من المستكشفين الأوربيين، الذين أرادوا أن يكملوا ما كان قد بدأه و لذلك ستعود الرحلات الاستكشافية من جديد حتى تم الكشف عن كل أسرار النهر المجهول.

عام (1231هـ/1816م) أرسلت الجمعية الإفريقية رحلة إلى نهر النيجر ذات اتجاهين ، الأول عن طريق نهر الكونغو بقيادة الكابتن "تكي Tucky"،و الآخر من الساحل الغربي لإفريقيا بقيادة الكابتن "كامبل Campbell"، لكن الرحلة لقيت فشلاً ذريعاً لأن كل أفرادها فُقدوا و لم يعودوا[3].و في عام (1233هـ/1818م) نجح الرحالة الفرنسي "جاسبار موليان Gaspard Mollien" من كشف منابع نهر "السنغال" ، و نهر "غامبيا" و نهر "ريوغراندي"[4].

بعد ذلك جاء المستكشف "هوغ كلابيرتون Hugh clapperton"، الذي حاول الوصول إلى نهر النيجر انطلاقاً من ساحل المتوسط، لكنه فشل في رحلته الأولى هذه، و عاد للمحاولة ثانية لكن هذه المرة انطلاقاً من الساحل الجنوبي المطل على خليج غينيا.ففي رحلته الأولى التقى بأحد الملوك المحليين، و هو ملك "الفولاني" و اسمه "محمد بيللو"، الذي أعرب له عن رغبته في ربط علاقات تجارية مع الانجليز، و ادعى بأن نفوذه يمتد من الأراضي التي يوجد عليها إلى مدينين ساحليتين مطلتين على خليج غينيا، و هو ما يمكنه المساعدة في توثيق هذه العلاقة التجارية[5].تحمس كلابيرتون لهذا الاقتراح، و جعله يطلب مساعدة الحكومة البريطانية لتحقيق هذا الهدف، فوافقت على ذلك، و كلَّفته رسمياً بأداء المهمة بإشراف من وزارة المستعمرات البريطانية.

[1] جي دي فبج: **المرجع السابق**، ص246.

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص 180..

[3] يسرى عبد الرزاق الجوهري: **المرجع السابق**، ص218.

[4] جي دي فبج: **المرجع السابق**، ص249.

[5] BARON, Auguste : Aventures en Afrique, Eugène ARDANT et G.THIBAUT, Limoges, 1867, p.78

انطلق كلابيرتون من انجلترا يوم (12 محرم 1241هـ/27 أوت 1825م)، و وصل إلى "باداجرى★ Badagry" يوم (18 ربيع الثاني /29 نوفمبر) من نفس السنة[1] و كان كلابيرتون برفقة مجموعة من الأوربيين بينهم خادمه "ريتشارد لاندر"[2]. بعد الانتهاء من جميع الاستعدادات، انطلق الجميع يوم (26 ربيع الثاني /7 ديسمبر)، و في (13 جمادى الثانية 1241هـ/22 يناير1826م) دخلوا مدينة "كاتونجا Katanga"، عاصمة "اليوروبا"، و في (14 ذي الحجة /20 يناير) من نفس السنة دخلوا "كانو★★ Kano"[3]، و بعد كانو توجه كلابيرتون و رفاقه إلى "سوكوتو★★★ Sokoto"، و هناك مرِض كلابيرتون و مات يوم (16 رمضان 1242هـ/13 أبريل 1827م)[4]، بسبب "الدوزنتاريا La Dysenterie"[5].

بعد وفاة كلابيرتون، عاد خادمه ريتشارد لاندر إلى مدينة كانو، و منها رحل إلى فندة Fenda النقطة التي يلتقي عندها نهر بنوي بنهر النيجر، و ذلك أملاً في تتبع نهر النيجر حتى مصبه، لكنه مُنِع من مواصلة سيره[6]، فعاد إلى باداجرى و منها إلى انجلترا التي وصلها يوم 15 شوال 1243هـ/30 أبريل 1828م[7]، حاملاً معه مذكرات سيِّده التي سلمها إلى وزراة المستعمرات البريطانية[8].و رغم أن كلابيرتون لم يستطع التعرف على المجرى الكامل لنهر النيجر و مصبه ، إلا أنه تمكن من زيارة مناطق عديدة من حوض النيجر، و كان أول أوربي يصل إلى السودان الغربي انطلاقاً من ساحل غينيا[9].

في الفترة التي توفي فيها كلابيرتون، كان مستكشف آخر يسعى للوصول إلى نهر النيجر و مدينة "تمبكتو"، و هو الفرنسي "روني كاييه René Caillié" -كما سبق لنا و أن ذكرنا- و قد

★ - تقع حالياً على ساحل البنين (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.371)

[1] Baron, Auguste : op.cit, p.79

[2] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص ص275،276.

★★ - في شمال نيجيريا حالياً (GDEL, Tome 6, p.5947)

[3] BARON, Auguste : op. cit, p.90

★★★ - في الشمال الغربي من نيجيريا على نهر سوكوتو (GDEL, Tome 9, p.9665)

[4] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص13.

[5] Les grands explorateurs, op. cit, p.199

[6] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص276.

[7] BARON, Auguste : op. cit, p.107

[8] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص13.

[9] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص276.

حمسه لتلك المغامرة المكافأة المهمة التي وعدت بها الجمعية الجغرافية الفرنسية لصالح أول أوربي يصل إلى تمبكتو، و يجلب عنها المعلومات الكافية، و هو الحماس الذي يعبر عنه "كاييه" عند حديثه عن مدينة "تمبكتو": "حياً أو ميتاً، سأصل إليها "[1].

كان كاييه قد شارك قبل ذلك في حملة استكشافية بقيادة "وليام غري William Gray" و الدكتور "دوشار Dr.Dochard" و ذلك سنة (1233هـ/1818م)[2] أكسبته قليلاً من الخبرة.في الخبرة.في سنة (1239هـ/1824م) توجه نحو السنغال، حيث مكث حوالي ثلاث سنوات، تعلم فيها اللغة العربية[3] و عادات السكان المحليين، و هذا تحضيراً لرحلته باتجاه تمبكتو. و خوفاً من انكشاف هويته، كان قد لفَّق قصة خيالية لحياته، حيث ادعى بأنه مصري مسلم اختُطِف و هو طفل في الإسكندرية، على يد جنود بونابرت أيام الحملة الفرنسية على مصر، و أنه نُقل عبداً إلى السنغال حيث بقي هناك حتى كَبُرَ، و هو يرغب في الحج إلى مدينة "تمبكتو" المقدسة ، و هذا الادعاء استغله كذلك في تبرير ترددهالصعوبة التي كان يجدها في نطق اللغة العربية[4].و من خلال هذه الرواية يتضح لنا مدى الاصرار الذي ميَّز الأوربيين في هذه المرحلة من أجل اختراق القارة الافريقية و استكشافها.

بعد أن تعلم اللغة العربية و مبادئ الإسلام، توجه عام (1242هـ/1827م) إلى "ريو نونَز Rio Nuńez"[5]، إذ سيحضر لرحلته في الأراضي الداخلية من غرب إفريقيا. لم يكن "كاييه" يملك من المال ما يكفيه لشراء كل ما يلزمه لانجاح رحلته من عتاد و دواب و استئجارٍ للمرشدين، و قد رفضت الحكومتان الفرنسية و البريطانية تقديم المساعدة اللازمة له، و لهذا اعتمد على المبلغ الضئيل الذي استطاع ادخاره من عمله في فرنسا، و هو ألفين فرنك فقط[6]. انطلقت بعثة "كاييه" من مصب نهر "ريو نونَز" يوم (23 رمضان 1242هـ/20 أبريل 1827م) و في (11 شوال/8 ماي) كان الوصول إلى ضفاف نهر السنغال، و في (10 محرم 1243هـ/13 أوت 1827م)

---

[1] Caillié, René : Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale, Tome 1, l'Imprimerie royale, Paris, 1830, p.1

[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.365

[3] عيسى علي إبراهيم: **المرجع السابق**، ص207.

[4] Les grands explorateurs : op.cit, p.198

[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.366

[6] Ibid, p.366

وصل "كاييه" إلى مدينة "تيمي* Timé" التي قضَّى فيها قرابة ستة أشهر بسبب المرض، ليغادرها في (22 جمادى الثانية 1243هـ/10 يناير1828م) متوجهاً نحو مدينة "جِني** Jenné"[1]. بعد الوصول إلى مدينة جني، توجه المستكشف الفرنسي نحو مدينة "تمبكتو"، و في (4 شوال 1243هـ/19 ابريل 1828م) حطَّ في "كابرا Kabra"، و هي ميناء مدينة تمبكتو على نهر النيجر، و في (5 شوال /20 أبريل) دخل مدينة تمبكتو عند غروب الشمس[2]، بعد سنة على انطلاقه من السنغال قطع فيها حوالي ألفين و أربعمائة كيلومتر (2400كم) منها ألف و ستمائة مشياً على الأقدام[3].

عند وصوله إلى تمبكتو أصيب روني كاييه بخيبة أمل كبيرة لأن ما رآه فيها لم يكن ينطبق مع الصورة التي كان يتصورها عنها، و لا الشهرة التي حظيت بها لدى الأوربيين، فهو يقول عن المدينة: " أنها لا تمثل سوى كَومة من المنازل المبنية بالطين بطريقة سيئة، و في كل الاتجاهات لا نرى إلا سهولاً رملية واسعة جرداء... السماء ذات لون أحمر باهت في الأفق ، كل شيء في الطبيعة حزين، هناك صمت مطبق، لا تُسمَع فيه تغريدة طائر واحد "[4].و لكن في نفس الوقت، أبدى إعجابه بالمدينة من حيث المكان الذي بُنيت فيه، فيقول : "و لكن يوجد شيء يثير الإعجاب، في رؤية مدينة كبيرة في وسط الرمال..."[5].

مكث كاييه في تمبكتو وقتاً قصيراً، حيث غادرها يوم (19 شوال 1243هـ/4 ماي 1828م) متوجها نحو الشمال بصحبة قافلة كانت تضم 1400 جمل و400 شخص[6]، و قاصداً المغرب، فمرَّ بـ "أروان" و "تغازى" و "تافيلالت"[7]، حتى وصل إلى مدينة فاس في (محرَّم 1244هـ/أوت 1828م)، و منها إلى طنجة التي غادرها في (18 ربيع الأول 1244هـ/28 سبتمبر1828م) قاصداً

---

* - تقع حالياً في حدود مالي مع كوت ديفوار (Larousse, Les grands explorateurs, p.181)

** - تقع حالياً في مالي بالقرب من نهر النيجر (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.367)

[1] Baron, Auguste : op.cit, pp110-118

[2] Les grands explorateurs, op.cit, p198

[3] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص 146.

[4] Caillié, René : op. cit, Tome 2, p301

[5] Ibid, p301

[6] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.369

[7] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص278.

فرنسا[1]، بمساعدة القنصل الفرنسي فيها، و عضو الجمعية الجغرافية الفرنسية، و اسمه "دولابورت Delaporte"[2].

عند الوصول إلى فرنسا، خُصص للمستكشف كاييه استقبالاً حاراً، و منحته الجمعية الجغرافية الفرنسية الميدالية الذهبية و تسعة آلاف فرنك[3]، أما وزارة الحرب الفرنسية فمنحته ثلاثة آلاف فرنك، و كافأه الملك شارل العاشر بمنحه وسام شرف الدولة الفرنسية Le décor de la légion d'honneur[4].

تلك كانت نهاية رحلةِ أول أوربي زار تمبكتو و عاد منها حيا[5]، استطاع كاييه من خلالها الإجابة على كثير من الأسئلة التي طالما طرحها الأوربيون حول مدينة تمبكتو، و ساهم بذلك في إعطاء وصف دقيق لكل المناطق و المدن و البلدات التي مر بها في غرب إفريقيا، و ذلك من خلال إصداره لمذكراته في كتاب من ثلاثة أجزاء، حمل عنوان "يوميات رحلة إلى تمبكتو و جني في الصحراء الوسطى Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans le Sahara central".

بعد وصول الأوربيين إلى تمبكتو و معرفتهم بها، لم يبق أمام المستكشفين سوى التعرف مجرى نهر النيجر و مصبه، بعد أن بقي مستعصياً أمام كل المحاولات الاستكشافية الأوربية السابقة، و تسبب في وفاة العديد من المستكشفين كما ذكرنا سابقاً، و أبرزهم "مونجو بارك" و "هوغ كلابيرتون".لكن عزيمة الجمعية الجغرافية الملكية و الحكومة البريطانية و معهما عزيمة المستكشفين كانت أقوى من كل التحديات التي وضعها نهر النيجر خاصة في مجراه الأدنى المؤدي إلى مصبه ، و ما هي إلا سنتين بعد وصول كاييه إلى تمبكتو، حتى تمكن المستكشف الانجليزي "ريتشارد لاندر Richard Lander" رفقة أخيه "جون John"، من الوصول إلى مصب النهر الأسطوري.

كنا قد تحدثنا في رحلة كلا بيرتون الثانية عن نجاة خادمه و رفيقه في الرحلة "ريتشارد لاندر" من الموت، و عودته إلى انجلترا حاملا معه أوراق و مذكرات سيِّده المدفون في إفريقيا.و

---

[1] Baron, Auguste :op.cit, p.137
[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.369
[3] Ibid, p.370
[4] Les grands explorateurs : op.cit, p.198

[5] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص148.

رغم الوفاة التي لحِقت بسيِّده و نجاته من الموت هو كذلك، أبى "لاندر" إلا أن يعود إلى القارة السمراء، التي كان شغوفا بها[1]، رغبةً منه في استكمال العمل الذي كان قد بدأه سيده "كلابيرتون".و قد استطاع لاندر إقناع المكتب الاستعماري، التابع لوزارة المستعمرات البريطانية بتمويل رحلة جديدة يرأسها هو لتعقب مجرى نهر النيجر[2]، لكنه وجد صعوبة في التمويل، حيث منحته الحكومة البريطانية معونة متواضعة جداً بلغت مائة جنيه[3]، و وعدته بتخصيص مرتب لزوجته يبلغ خمسة و عشرين جنيهاً خلال فترة غيابه[4].

انطلق "ريتشارد لاندر" و أخيه "جون" من انجلترا يوم (13 رجب 1245هـ/9 يناير1830م)، و وصلا إلى ساحل غرب إفريقيا يوم (27 شعبان هـ/22 فبراير) عند أهم مركز انجليزي في ساحل الذهب، اسمه "كوست كاسل Coast castle"[5]، و منه توجها نحو مدينة "باداجري" التي وصلاها يوم (23 رمضان/19 مارس)[6].بعد ذلك توجهت بعثة لاندر إلى مدينة "بوسا" الواقعة على ضفاف نهر النيجر، و التي مات عندها مونجو بارك، فوصلتها بعد ستة أشهر تقريباً من البداية، يوم 25 ذي الحجة/17 جوان[7]، و منها أبحر الأخوان "لاندر" في نهر النيجر، بعدما زودهما ملك "بوسا" بقارب لهذا الغرض[8]، و في أثناء عملية الإبحار تعرض المستكشفان للأسر على يد أفرادٍ من قبائل "الايبو" المعادية للأجانب، لكن أطلق سراحهما، و واصلا مسيرتهما حتى بلغا مصب النيجر بعد شهرين من مغادرتهما "بوسا".

عاد الأخوان "لاندر" إلى انجلترا في (ذي الحجة 1246هـ/جوان1831م)[9] ، فحصلا على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية[10]كمكافأة على جهودهما و اكتشافهما لمصب نهر النيجر، و في سنة 1248هـ/1832م قام الأخوان لاندر بإصدار مذكراتهما[11] في كتاب حمل عنوان

---

[1] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص277.

[2] جي دي فيج: **المرجع السابق**، ص248.

[3] Les grands explorateurs : op.cit, p.199

[4] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص277.

[5] Lander, Richard and John: Journal d'une expédition entreprise dans le but d'explorer le cours et l'embouchure du Niger ,Poulin,Paris, 1852, p.53

[6] Ibid ,p.57

[7] Ibid ,p.350

[8] Les grands explorateurs : op.cit, p.199

[9] Ibid, p.200

[10] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص156.

[11] أحمد نجم الدين فليجة: **المرجع السابق**، ص61.

"يوميات رحلة لكشف مجرى و مصب نهر النيجر Journal of an expedtion to explore the course and termination of the Niger".

على الرغم من أن تمبكتو و مصب نهر النيجر أصبحا معروفين لدى الأوربيين، لم تتوقف الرحلات الاستكشافية في منطقة غرب إفريقيا، فقد كانت هناك مناطق واسعة تحتاج إلى الاستكشاف، و حتى الأنهار التي عُرفت مصباتها و منابعها مثل نهر النيجر، بقيت مجاريها غير معروفة معرفة دقيقة لأنها أنهار طويلة تمر بمناطق مختلفة تضم الهضاب و السهول و الجبال، تغطيها الغابات و السافانا ، و هذا كله بحاجة إلى استكشاف.هذا من جهة و من جهة أخرى فإن المستكشفين الذين ذكرناهم و رغم أنهم قدَّموا إضافة هامة للدراسة الجغرافية و الإثنية لهذه المناطق ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الإحاطة بكل شيء، لأن التعب و الصعوبات التي واجهوها أثناء رحلاتهم أخذت الكثير من تركيزهم و لم تسمح لهم بتسجيل كل الملاحظات.علاوة على ذلك فإن المستكشفين ركّزوا في رحلاتهم أكثر على الأهداف التي كانوا يسعون ورائها، كما أنه لا يمكن لرحلات استكشافية معدودة، أن تميط اللثام عن مناطق في غرب إفريقيا تبلغ مساحاتها ملايين الكيلومترات.

بعد عامين من رحلة الأخوين لاندر، قام الانجليزي "ماكغريغور ليرد MacGregor Laird" بصحبة تسعة و ثمانين رجلاً من بينهم ريتشارد لاندر، بصعود نهر النيجر على متن سفينتين تجاريتين، غير أن البعثة لم تستطع الوصول حتى إلى مدينة بوسا ، و ذلك بسبب الحمى التي قَضَت على نصف رجال البعثة تقريبا[1].و في عام (1249هـ /1833م) قام الدكتور "أولدفيلد Dr.Oldfield"، رفقة ريتشارد لاندر، بتتبع طريق البعثة الأولى و تمكنا من الوصول إلى مدينة "رباح Rabbah" بالقرب من بلدة "بوسا"، و في أثناء العودة مات لاندر بعد أن هوجم من طرف أحد السكان المحليين، و ذلك في شهر (شوال 1249هـ/فبراير1843م)[2].

بعد ذلك و في سنة (1263هـ/1847م)، كلَّفت وزارة البحرية الفرنسية المستكشف الفرنسي "آن رفانل Anne Raffanel" بمهمة لبلوغ مصر انطلاقا من السنغال، و قدمت له معونة هامة، غير أن هذا المستكشف لم يستطع تجاوز مدينة "سيجو" على نهر النيجر[3].

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome4, p.372
[2] Ibid ,p.372
[3] Ibid ,p.374

لم تكن رحلة رفانل هي الأخيرة في سلسلة الرحلات الاستكشافية الموجهة لمعرفة الأنهار، و إنما تلتها رحلات أخرى، لكن هذه المرة ليس لأهداف علمية خالصة و إنما تمهيدًا لتغلغل الاستعمار الأوربي في منطقة غرب إفريقيا كما سيأتي في الفصل الرابع من هذا البحث.

المبحث الثالث:المستكشفون المنطلقون من ساحل البحر المتوسط

إن الاهتمام الأوربي بمنطقة غرب إفريقيا و محاولة كشف أغوارها لم يتوقف عند محاولة ركوب الأنهار فقط، بل تعداه إلى محاولة عبور الصحراء الكبرى كذلك من أجل الوصول إلى الأنهار خاصة نهر النيجر، و كذلك من أجل معرفة أسرار القوافل التجارية التي كانت تجوب تلك الصحراء ما بين شمال إفريقيا و بلاد السودان.و لهذا نجد مجموعة كبيرة من المستكشفين الأوربيين الذين قاموا بذلك.

و قد كانت الرحلات الاستكشافية في الصحراء الكبرى في بدايتها مرتبطة ارتباطاً كلياً بمشكلة نهر النيجر الذي كان يمثل تحدياً لأغلبية المستكشفين الأوربيين الوافدين إلى المنطقة، بمعنى أن المستكشفين الذين عبروا المناطق الصحراوية، كان هدفهم الوصول إلى نهر النيجر و استكشاف المناطق المحيطة به.لكن هذا لا يعني أن هذه المناطق الصحراوية لم تكن مهمة لهؤلاء المستكشفين، بل بالعكس فإنهم كتبوا عنها تقارير حملت دراسات و أوصاف دقيقة حول طرق القوافل التجارية المختلفة، و المدن، و الواحات، و كل الشعوب التي شاهدوها، و ما يتعلق بها من لغات و عادات و دين و لباس و أنشطة اقتصادية و تجمعات سكانية و أنظمة سياسية و إمكانات عسكرية.

لقد كانت مدينة طرابلس الليبية هي نقطة الانطلاق لمعظم هذه الرحلات، بسبب وقوعها في وسط الساحل المتوسطي، كما أنها كانت منطلق القوافل العابرة للصحراء[1].هذه القوافل هيأت الطريق أمام المستكشفين للتوغل في الصحراء، لأنها كانت مرشداً لهم و كانت توفر لهم الحماية و الأمان في مسالك الصحراء المحفوفة بالمخاطر المختلفة كالحرارة العالية و كثرة قُطاع الطرق.و لذلك لم نجد مستكشفاً واحداً خاطر بحياته للتوغل في الصحراء دون أن يرافق هذه القوافل التجارية، و في أغلب الأحيان كان متنكراً.

[1] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص211.

عندما أرادت الجمعيات الجغرافية الأوربية، و في مقدمتها الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، الوصول إلى نهر النيجر فإنها اختارت أن تكون نقطة الانطلاق للرحلات الاستكشافية هي الساحل المتوسطي، و نقصد بهذه الرحلات تلك التي سبق لنا التعرض لها في بداية المبحث الثاني أي رحلات ليديارد و لوكاس و هورنمان.لكن بعد رحلة مونجو بارك الأولى سنة (1209هـ/1795م) التي استطاع فيها الوصول إلى نهر النيجر، و رحلته الثانية سنة (1220هـ/1805م) التي استطاع فيها التقدم أكثر في هذا النهر إلى غاية مدينة بوسا، فإن الرحلات الاستكشافية المستهدِفة لنهر النيجر ستكون قاعدة انطلاقها هي ساحل غرب إفريقيا، و استمر هذا الوضع حتى حدود العشرينيات من القرن التاسع عشر الميلادي (19م) حيث ستعود الرحلات الاستكشافية إلى الانطلاق من جديد من ساحل المتوسط.

كانت أول رحلة تنطلق من ساحل المتوسط خلال القرن التاسع عشر الميلادي (19م) تحت قيادة طبيب شاب كان نائباً للقنصل البريطاني في فزان الليبية يدعى "جوزيف ريتشي Joseph ritchie" برفقة الضابط البحري "جورج ليون George Lyon[1]" بتكليف من الجمعية الإفريقية في لندن[2]، و كان الهدف منها هو الوصول إلى نهر النيجر و القيام ببعض الأرصاد الفلكية.انطلق ريتشي و رفيقه ليون من طرابلس حتى بلغا مدينة مرزوق مروراً بمدينة غريان و واحتي سوكنة و سبها[3]، غير أن ريتشي مرِض في سبها و توفي فيها بسبب الحُمَّى[4] بعد ستة أشهر من بداية الرحلة[5].هذا الحادث لم يُمكِّن ليون من استكمال رحلته و بلوغ النيجر، و اكتفى باستكشاف جنوب فزان في ليبيا ،و بعدها عاد إلى طرابلس و منها إلى انجلترا[6].

بعد رحلة ريتشي و ليون جاءت رحلة من أبرز الرحلات التي عرفتها الصحراء الكبرى، و تألفت من ثلاثة مستكشفين هم "والتر اودني Walter Oudney" و "هوغ كلابيرتون Hugh Clapperton" و "ديكسون دنهام Dixon Denham"، لتُبرِزْ مدى إصرار الحكومة البريطانية و الجمعية الإفريقية على استكشاف نهر النيجر.و قد ترأس البعثة الطبيب الاسكتلندي "أودني" ابن

---

[1] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص122.

[2] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص212.

[3] المرجع نفسه، ص212.

[4] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص122.

[5] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص213.

[6] يسرى عبد الرازق الجوهري: **المرجع السابق**، ص229.

الواحد و الثلاثين عاماً، و المهتم بالكشوف و التاريخ الطبيعي، أما رفيقيه الاسكتلنديين كلابيرتون و دنهام، فكان الأول يعمل في الأسطول الملكي البريطاني و كان يملك تجربة في الرحلات البحرية حيث أبحر حول العالم من الشرق إلى جزر الهند الغربية وكندا، و أما الثاني فكان ملازماً في الجيش البريطاني، و كانت له مقابلة مع المستكشف ليون الذي حمَّسه على القيام برحلة استكشافية في إفريقيا[1].

انطلقت رحلة الثلاثي الاسكتلندي من طرابلس في مطلع سنة (1237هـ/ 1822م)، و وصلت إلى مرزوق يوم (15 رجب /08 أبريل) من نفس السنة مروراً بـ "بني وليد" و "سوكنة" في ليبيا[2]، و كانت البعثة قد تأخّرت في "مرزوق" بسبب صعوبات واجهتها أثناء التحضير و الاستعداد للرحلة و منها توفير ما يلزم من الحراس لمرافقتها، اضطرت "دنهام" للسفر إلى طرابلس لطلب الحراسة ثم عاد إليها يوم (15 صفر 1238هـ/30 اكتوبر1822م)[3].و في أثناء ذلك كان زميلاه "كلابيرتون" و "اودني" قد قاما بجولة إلى واحة "غات Ghat" اكدت صحة الكثير من المعلومات التي نقلها المستكشف الذي سبقهم إليها و هو "ليون"[4].

بعد ذلك انطلقت البعثة نحو مبتغاها عابرة الصحراء فوصلت إلى "بيلما★ Bilma" في بداية سنة (1238هـ/1823م)، و فيها استراحت تحضيراً لبقية المشوار[5] و تعويضا على ما عانته طول المسافة ما بين مرزوق و هذه المدينة، من الحرارة الشديدة و العواصف الرملية العنيفة و نقص في المياه[6].

بعدها انطلقت البعثة من جديد نحو الجنوب حتى بلغت بحيرة تشاد في شهر (جمادى الثانية 1238هـ/فبراير1823م)، و منها انطلقت و دخلت مدينة "كوكا Kouka" عاصمة "البورنو

---

[1] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص ص 125،126.

[2] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص26.

[3] المكان نفسه، ص26.

[4] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص213.

★ – واحة تقع حالياً في شرق النيجر (GDEL, Tome 2, p.1250)

[5] إبراهيم مياسي: **الاهتمام الفرنسي بالصحراء** ، أشغال ندوة تحت عنوان طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان و التاريخ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لليونسكو، الجزائر: 2001، ص82.

[6] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص196.

Bornou"[1]. في "كوكا" فارق "دينهام" زميليه و توجه نحو جنوب بحيرة تشاد مع مجموعة من جنود البورنو و سرعان ما عاد حينما اكتشف بأنهم ذهبوا لأسر العبيد[2]، أما أودني و كلابيرتون فتوجها نحو الجنوب الشرقي و تمكنا من اكتشاف نهر "شاري Chari" و أثبتا بأنه لا يتصل بنهر النيجر[3]، ثم توجها نحو الغرب قاصدين مدينة "كانو Kano"" لكن أودني مات في الطريق مطلع سنة (1239هـ/1824م)[4] بعد إصابته بالسُل[5]. هذا الحادث المحزن لم يثن رفيقه كلابيرتون عن مواصلة طريقه، فوصل بعد فترة قصيرة إلى مدينة كانو التي خيبت آماله حيث وجدها مُقفرة عكس ما كان ينتظره من إزدهار[6]، و في (14 رجب 1239هـ/16 مارس1824م) وصل إلى "سوكوتو Sokoto" عاصمة "الفولاني"[7]، فوجدها مدينة مهجورة قليلة السكان مثل مدينة "كانو" لأن هؤلاء السكان كانوا يخافون الوقوع في الأسر ثم البيع في أسواق الرقيق[8]. في سوكوتو استُقبل كلابيرتون من طرف السلطان "محمد بيلو"[9] الزعيم الروحي لحكام الهاوسا من الفولاني[10] و أصبحت العلاقة بينهما ودية إلى درجة أن هذا المستكشف عاد لزيارة هذا السلطان –كما رأينا سابقاً– في رحلته الثانية التي انطلقت من خليج غينيا. لكن رغم هذه العلاقة الودية إلا أن السلطان "محمد بيلو" رفض أن يسمح لـ "كلابيرتون" بالتقدم أكثر في مجرى نهر النيجر، مما اضطر المستكشف إلى التوجه شرقاً عائداً إلى مدينة "كوكا"، حيث كان ينتظره رفيقه "دنهام"، و منها عادا أدراجهما حتى وصلا إلى انجلترا في منتصف سنة (1240هـ/1825م)[11].

---

[1] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق** ، ص82.
[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص127.
[3] المرجع نفسه، ص127.
[4] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص82.
[5] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص128.
[6] المرجع نفسه، ص128.
[7] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص82.
[8] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص129.
[9] جي دي فيج: **المرجع السابق**، ص237.
[10] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص275.
[11] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص130.

تعتبر هذه الرحلة من أهم الرحلات في تاريخ الاكتشافات الإفريقية بالنظر إلى النتائج القيِّمة التي حققتها[1].فقد تمكنت من اكتشاف بحيرة تشاد، و نَفَت الاتصال بينها و بين نهر النيجر، كما أنها عرَّفت بالعديد من الشعوب و البلاد و المدن المكتشفة و الطرق التجارية، و أغنت الجغرافيين الأوربيين عن الاعتماد على كتاب حسن الوزان الذي كان إلى ذلك الوقت المصدر الأساس حول تلك البلاد.هذه المعلومات و الحقائق الجديدة ضمَّنها "ديكسون دنهام" في الكتاب الذي ألَّفه، و الذي حمل العنوان "سرد للرحلات و الاكتشافات في شمال نيجيريا "narrative of Travels and Discoveris in Northern Nigeria"[2].

قبل عودة "دنهام" و "كلابيرتون"، و في الوقت الذي كان فيه روني كاييه متجها نحو تمبكتو، كان مستكشف اسكتلندي آخر هو "غوردن لينج Gordon Laing" قد انطلق من ساحل المتوسط قاصداً هو الآخر مدينة تمبكتو الأسطورية، و كان "لينج" ينتمي إلى صفوف الجيش البريطاني الذي أُرسل لعقد معاهدات سلام مع قادة القبائل في تلك المنطقة في سيراليون سنة 1235هـ/1820م[3]، و من ثمة أصبح "لينج" مهتماً بالكشوف الإفريقية[4]، و استطاع تحديد تحديد منابع نهر النيجر عام (1237هـ/1822م)[5].قبل نهاية عام (1240هـ/1824م) كلَّفه وزير المستعمرات البريطانية آنذاك "اللورد باترست Lord Batturst" بمهمة الوصول إلى مدينة تمبكتو عن طريق طرابلس و منها الوصول إلى مجرى نهر النيجر.و قد أشرفت على رحلة "لينج" الجمعية الإفريقية، التي طلبت منه الالتحاق بتمبكتو ثم الانضمام إلى بعثة "كلابيرتون" في مدينة "سوكوتو"[6].

و قد غادر لينج انجلترا متوجهاً نحو طرابلس يوم (16 جمادى الثانية 1240هـ/5 فبراير1825م)، مصطحباً معه زنجياً كان خادما له في سيراليون و إفريقيين آخرين خبيرين في صناعة القوارب[7]، وهذا من أجل مساعدته في بناء القوارب التي قد يحتاج إليها في حال بلوغه نهر

[1] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص27.
[2] جوزفين كام: **المرجع السابق** ، ص130.
[3] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص83.
[4] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص124.
[5] جي دي فيج: **المرجع السابق**، ص249.
[6] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص28.
[7] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص131.

نهر النيجر.و بعد يومين فقط من زواجه من ابنة صديقه القنصل الانجليزي في طرابلس "وارنجتن Warrington"، غادر لينج العاصمة الليبية رفقة شيخ مسلم كان قد وعده بإيصاله إلى تمبكتو خلال شهرين[1]، و كان ذلك يوم (27 ذو القعدة 1240هـ/14 جويلية 1825م)[2]، و ما هي إلا شهرين تقريباً حتى وصل لينج إلى "غدامس" يوم (29 محرم 1241هـ/13 سبتمبر1825م)، و فيها أقام حوالي شهرين و نصف[3]، فكان أول أوربي تطأ قدماه هذه المدينة[4].بعد "غدامس" توجه هذا هذا المستكشف إلى تمبكتو بصُحبة قافلة تجارية، إلا أن هذه القافلة هوجمت من طرف قطاع الطرق الطوارق، فأصيب لينج إصابات بليغة تمكن أحد مرافقيه المسلمين في القافلة من تقديم الإسعافات اللازمة له و حَمَله إلى قبيلة من أصل عربي مكث عندها "لينج" حوالي ثلاثة أشهر[5]، و تماثل للشفاء بعد أن قطع مسافة ستمائة و ثلاثة و ستين كيلومتراً (663كم)[6].بعد شفائه انطلق لينج إلى تمبكتو و تمكن من الوصول إليها يوم (8 محرم 1242هـ/13 أوت 1826م)، لتبلغ المسافة التي قطعها منذ بداية رحلته قرابة أربعة آلاف و مائتين و أربعة و ستين كيلومتراً (4264كم)[7]، و بذلك كان أول أوربي يصل إلى هذه المدينة و ليس كاييه كما يعتقد الكثيرون.لقد كان انطباع "لينج" حول هذه المدينة سيئاً، كما جاء في رسالة بعث بها إلى والد زوجته القنصل "وارنجتون"، إذ وصفها بالمدينة المِمِلة و الكئيبة ما عدا في مساجدها[8]، و هو نفس نفس الانطباع الذي رأيناه عند كاييه الذي وصل بعده إلى المدينة بفترة وجيزة.

و بسبب خوفه على حياته في تمبكتو، بعد أن أخبره أحد الغداميسيين بأن سكان هذه المدينة يكرهون الأوربيين[9]، و بسبب ملله ربما في هذه المدينة، غادر "لينج" مدينة تمبكتو التي كابد كابد و عانى الكثير من أجل الوصول إليها، متوجهاً رفقة قافلة إلى سيراليون[10] التي خدم فيها في

---

[1] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص28.
[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص131.
[3] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص28.
[4] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص 213.
[5] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص83.
[6] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص133.
[7] المرجع نفسه، ص134.
[8] المرجع نفسه، ص135.
[9] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص214.
[10] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص135.

الجيش البريطاني، لكن و بعد مسافة قريبة من تمبكتو قُتل هذا المستكشف الاسكتلندي على يد رئيس القافلة، و أُحرقت أوراقه و مُذكراته، و هذا خوفاً من تفشي عدوى المرض الذي كان قد أصابه إلى باقي أفراد القافلة[1].

و الحق أنه رغم الإنجاز الذي حقَّقه لينج بالوصول إلى تمبتكو، غير أن رحلته لم تُضف الكثير إلى المعرفة الجغرافية، و هذا بسبب عدم عودته و ضياع يومياته و مذكراته بعد وفاته، و مع ذلك يبقى هذا المستكشف من أشهر مستكشفي إفريقيا، لأنه كان أول من وصل من الأوربيين إلى تمبكتو ، و نتيجة للنهاية المأساوية التي لقيها في نهاية رحلته فإنه عرف تعاطفاً واسعاً معه في أوربا.

بعد وفاة "لينج" توقَّفت كشوف الصحراء الكبرى قرابة العشرين عاماً حتى جاءت رحلة أخرى بقيادة "ريتشاردسون"[2].

قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، عرف السودان الغربي واحدة من أهم الرحلات الجغرافية الاستكشافية، و هي الرحلة التي كانت بقيادة "جيمس ريتشاردسون James Richardson". كان ريتشاردسون متخصصاً في شؤون الكنيسة[3]، و عضواً فعالاً في جمعية مكافحة الرق بلندن[4] و سبق له أن قام برحلة إلى غدامس و غات و فزان ما بين عامي (1263هـ (1263هـ و 1264هـ/1847م و 1848م)[5].من أجل تحقيق أهدافه، عرض ريتشاردسون على الحكومة البريطانية مشروع رحلة نحو إفريقيا غرضها إنهاء تجارة الرقيق و إقامة علاقات تجارية مع المناطق المختلفة في غرب إفريقيا، و هو المشروع الذي وافقت عليه الحكومة[6]، خاصة و أنها كانت كانت تحذوها رغبة ملحة في ربط علاقات تجارية مع شيوخ القبائل بالمناطق المستكشفة و ذلك لتعويض تجارة الرقيق الممنوعة في بريطانيا، ولأنها أصبحت تُدرك جيداً فوائد التجارة الإفريقية الداخلية و غنى هذه القارة بالثروات المختلفة.

---

[1] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص83.

[2] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص30.

[3] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص176.

[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.173

[5] Ibid, p.173

[6] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص38.

كانت بعثة ريتشاردسون تضم عالماً ألمانياً هو "هاينريش بارث Heinrich Barth"، الذي التحق بالبعثة بِطلبٍ من العالم الجغرافي الألماني "كارل ريتر"[1]، و تَدخلٍ من سفير بروسيا لدى بريطانيا[2].و قد جاء هذا الانضمام بعد تردد كبير بسبب إلحاح والده بالعدول عن هذه الرحلة التي كان يرى بأنها ستكون محفوفة بالمخاطر[3].لقد كان بارث عالماً مثقفاً، و له دراية بأسرار اللغة العربية[4]، كما كانت له تجربة متواضعة في مجال الاستكشاف اكتسبها لما قام برحلة امتدت من طنجة المغربية إلى الإسكندرية في مصر، نشر عنها وصفاً مفصلاً[5].

إلى جانب بارث ، ضمت بعثة ريتشاردسون مستكشفاً ألمانياً آخر هو عالم الطبيعة و الجيولوجي "أدولف أوفرويج Adolf Overweg"، و كان انضمامه للبعثة بتزكية من الجمعية الجغرافية ببرلين[6].

إن انضمام هذين العالمين الألمانيين بارث و أوفرويج إلى هذه البعثة أضفى عليها طابعاً علمياً مهماً، و جعل نتائجها العلمية هامة جداً مقارنة بسابقاتها التي قادها عسكريون و أطباء و غيرهم، ممن لم تكن له دراية كافية بعلم الجغرافيا و الفلك و التاريخ و اللغات.

لقد غادرت بعثة "ريتشاردسون" مدينة طرابلس في (9 جمادي الأولى 1266هـ/24 مارس 1850م)، و في الشهر الموالي وصلت إلى "مرزوق"، و بعدها وصلت إلى مدينة "أغاديس" في شهر (ذي القعدة /أكتوبر)، فكان هؤلاء المستكشفين أول من زار هذه المدينة من الأوربيين[7].و بعد وصولهم إلى "بورنو" في شهر (ربيع الأول1267هـ/يناير1851م) افترق الرحالة الثلاثة[8]، حيث حيث توجه "ريتشاردسون" إلى "زندر★ Zinder" الواقعة شمال مدينة "كانو"، و توجه "بارث"

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p173

[2] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص38.

[3] المرجع نفسه، ص38.

[4] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص85.

[5] ثريا شرف: **المرجع السابق**، ص215.

[6] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص38.

[7] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.174

[8] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص85.

★ – تقع حالياً في وسط جنوب النيجر (محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: المرجع السابق، ص 301)

إلى "كـانو"، أمـا "أوفـرويج" فتوجـه إلى بحـيرة تشـاد، و كـان الثلاثـة قـد اتفقـوا علـى أن يكـون ملتقاهم في مدينة "كوكا" القريبة من بحيرة تشاد[1].

بعد وصوله إلى زندر يوم (1 ربيع الأول 1267هـ/4 يناير1851م) توفي "ريتشاردسون" بسبب المرض، أما رفيقيه فقد التقيا حسب الاتفاق في "كوكا"، ثم توجها نحو الجنوب حيث دخلا مدينة "يولا★ Yola"، و منها تقدما حتى بلغا منابع نهر "بنوي Bénoué"، ثم عادا مجدداً إلى "كوكا" و واصلا فحص بحيرة تشاد، و اكتشفا أثناء ذلك نهر "شاري"[2]. بعد ذلك توفي عضو ثانٍ من البعثة و هو "أوفرويج" في شهر (ذي القعدة 1268هـ/سبتمبر1852م)، و بقي "بارث" وحيداً، لكن و على الرغم من هذا الحادث المؤلم بالنسبة إليه واصل "بارث" استكشاف المناطق المجاورة، و ظل يبعث تقارير دقيقة بانتظام عن تفاصيل مشاهداته إلى الجمعية الجغرافية الملكية ببريطانيا[3].

بعد ذلك توجه بارث نحو الغرب قاصداً تمبكتو تنفيذاً لتعليمات جاءته من الجمعية الجغرافية الملكية ببريطانيا تدعوه إلى التقدم نحو هذه المدينة و في نفس الوقت أرسلت له معونة مالية لاكمال رحلته، فغادر "كوكا" و وصل إلى "سوكوتو"، حيث استقبله سلطانها و أكرم وفادته و رد بارث الجميل بتقديم هدايا قيّمة لهذا السلطان، و من سوكوتو توجه نحو بلدة "ساي★★ Say" ليصل أخيراً إلى تمبكتو[4] في (1 محرم 1270هـ/5 سبتمبر1853م)[5].لقد مكث المستكشف الألماني "بارث" في هذه المدينة حوالي ثمانية أشهر، في حماية أحد أعيان المدينة و هو "الشيخ البكاي"[6]، و هي فترة كانت كافية له للاستراحة جيداً من التعب الذي لحق به و الصعوبات الجمة التي واجهها طوال عامين و نصف تقريباً من الترحال في تلك المناطق، و فقدانه

---

[1] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص178.

★ – تقع اليوم في شرق نيجيريا قرب الحدود مع الكاميرون (باري محمد فاضل علي و كريدية سعيد إبراهيم: المرجع السابق، ص 194)

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص ص 179،180.

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.174

★★ – تقع حالياً في النيجر جنوب العاصمة نيامي على نهر النيجر (باري محمد فاضل علي و كريدية سعيد إبراهيم: المرجع السابق، ص160)

[4] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص181.

[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.175

[6] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص ص 181،182.

لزميليه "ريتشاردسون" و "أوفرويج". كما أن هذه الاستراحة كانت فرصة مواتية له للتعرف أكثر على مدينة تمبكتو و كل المناطق المجاورة لها من حيث جغرافيتها، سكانها و تاريخها، فاستطاع جمع معلومات كثيرة و قيِّمة حول الدول و الشعوب و القبائل في تلك المناطق، جمعها في كتاب قيِّم يتكون من خمسة أجزاء، قام بنشره بعد عودته إلى إنجلترا، تحت عنوان "رحلات و اكتشافات في إفريقيا الشمالية و الوسطى Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale". هذا الكتاب هو الوحيد من كتب الرحلات، حسب حدود معرفتنا و بحثنا، الذي يضم هذا العدد من الأجزاء، مما يدل على الكم الهائل من المعلومات التي استطاع بارث جمعها خلال رحلته الطويلة.

و بعد هذه الاستراحة الطويلة، غادر بارث تمبكتو متوجهاً شرقاً و سالكاً نفس الطريق التي جاء منها، فوصل إلى مدينة "ساي" مبحراً مع نهر النيجر، و براً التحق بـ "سوكوتو" ثم "بورنو"[1] ثم "كانو" التي التقى فيها بالمستكشف الألماني "ادوارد فوجل Edouard Vogel"، الذي أرسلته الجمعية الجغرافية الملكية لمرافقته خلفاً لأوفرويج[2]. و من مدينة "كانو" انتقل إلى "كوكا" و منها إلى طرابلس التي وصلها في (7 ذي الحجة 1271هـ/21 أوت1855م)[3]، و منها أبحر إلى انجلترا التي وصلها في شهر (ذي الحجة 1271هـ/سبتمبر1855م)[4].

بعد خمس سنوات من الغياب، عاد بارث أخيراً إلى انجلترا، ليُستقبل استقبال الأبطال، حيث كافأته الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بميداليتها "Patron's medal" و كان ذلك في سنة (1272هـ/1856م)[5]، كما أنه استقبل من طرف الملكة البريطانية فيكتوريا و إمبراطور بروسيا آنذاك[6]، و استحق أن يُنتخَب رئيساً للجمعية الجغرافية ببرلين خلفاً للعالم الجغرافي الألماني "كارل ريتر Karl Ritter" المتوفى[7].

---

[1] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص182.

[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.177

[3] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص41.

[4] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص282.

[5] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص184.

[6] الحواضر الإسلامية بإقليم تنجوارين، توات وحوض النيجر من ق15م إلى ق19م، التقرير العلمي الأولي الرابع، كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية ، الجامعة الإفريقية ، أدرار، الجزائر، الموسم الجامعي 2008/2007، ص189.

[7] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, pp178-179

ترك بارث تراثاً علمياً واسعاً تضمَّنه كتابه المذكور آنفاً، و الذي سجل فيه كل الملاحظات و النتائج و الحقائق التي شاهدها و توصل إليها خلال نصف عقد من التجوال عبر البحار و الصحاري و الحمادات و الأنهار، شاهد فيها شعوبا و قبائل متعددة، بعادات و تقاليد و معتقدات متنوعة.هذا الكتاب يعتبر من أوسع و أكمل الأعمال التي يفخر بها أدب الاكتشافات الجغرافية في القارة الإفريقية، و قد طُبع عدة طبعات، و ترجم إلى عدة لغات[1]، و جعل من "بارث" واحداً من أكبر المستكشفين العلميين للقارة السمراء[2].كما أنه أول من اكتشف نهر "بنوي الأعلى"، و أول من وصف النيجر الأوسط، و وصف بدقة متناهية أنهاراً و جبالاً و مدناً كانت في أغلبها غير معروفة إلى ذلك الوقت[3].إضافة إلى اكتشافه الهام، و هو التعريف بأحد أهم أهم مصادر تاريخ السودان الغربي في العصر الحديث، و هو كتاب "تاريخ السودان★"، الذي عثر عليه في بلدة "غواندو" عندما كان في طريقه إلى مدينة تمبكتو[4].

أما زميليه في الرحلة، أي ريتشاردسون و أوفرويج، فقدُ نشِرت مذكرات رحلتيهما على يد العالم الجغرافي الألماني الشهير "أوغست بيترمان Auguste Peterman" الذي كان يقيم في لندن[5].لكن هذه المذكرات لم تلق نفس الصدى الذي لقيته منشورات "بارث"، و يعود ذلك حسب رأينا إلى فشلهما في إتمام المهمة الاستكشافية، و قلة اكتشافاتهما مقارنة بـ "بارث".

و من المستكشفين كذلك الذين تجولوا في الصحراء الكبرى و حقَّقُّوا اكتشافات فيها، نذكر الألماني "إدوارد فوجل Edouard Vogel"، الذي مرَّت علينا في هذا البحث قصة التقاءه بمواطنه المستكشف "بارث" في مدينة "كانو" و هذا عندما أرسلته الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية لخلافة "أوفرويج" عقب وفاته.انطلق "فوجل" من انجلترا و وصل طرابلس[6] برفقة

[1] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص42.

[2] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق** ، ص85.

[3] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص283.

★ – ألفه عبد الرحمان السعدي بن الحاج المتوكل، و هو يغطي حوادث الفترة السابقة للحكم المغربي بالمنطقة، و هو من أهم المصادر الأساسية عن تاريخ السودان الغربي (عبد القادر زبادية: الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، ص56)

[4] زاهر رياض: **المرجع السابق**، ص280.

[5] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص42.

[6] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص43.

جنديين بريطانيين كُلفا بحراسته[1]، و مكث في طرابلس عدة شهور، حيث كان ينتظِر قافلة لأحد أبناء عم سلطان "بورنو" من أجل مرافقتها، لكنه أُجبِر على السفر دونها بعد أن علم بمقتل "أوفرويج"[2]، و كان ذلك في (20 رمضان 1269هـ/28 جوان 1853م)[3].و بعد التقائه مع "بارث" في مدينة "كانو"، اتجه جنوب بحيرة تشاد لاستكمال عملية الاستكشاف التي كان قد بدأها هذا الأخير في تلك المناطق[4].غير أنَّ فوجل لم يُكمِل رحلته حيث قُتل في "واداي Wadai" سنة (1272هـ/1856م)[5]، بأمر من سلطان تلك البلاد[6].و بعد وفاته و غياب الأخبار الأخبار عنه، تمَّ إرسال سبع بعثات للبحث عنه، لكن تلك البعثات فشلت في بلوغ "واداي"، ما عدا تلك التي كانت بقيادة الألماني "موريس فون بورمان Maurice Vonbeurman"، الذي لَقِي نفس مصير مواطنه "فوجل" سنة (1280هـ/1863م)[7].

بعد فوجل جاء مستكشف ألماني آخر هو "غرهارد رولفس Gerhard Rohlfs".كان "رولفس" منتمياً إلى "الكتيبة الأجنبية La légion étrangère" المشهورة و التابعة للجيش الفرنسي العاملة في الجزائر[8]، و عُرِفَ بشغفه بالشعوب الإسلامية[9] و بحوثه في اللغة العربية[10].انطلق "رولفس" من طرابلس سنة (1282هـ/1865م)، و عَبَر الصحراء حتى وصل إلى "بورنو"، و منها أبحر في نهر "بنوي" حتى النقطة التي يلتقي فيها مع نهر النيجر، و من هناك توجه إلى بلاد اليوروبا Yorouba حتى وصل إلى مدينة "لاغوس" الواقعة على خليج غينيا[11]، و

---

[1] ثريا شرف: **المرجع السابق** ، ص215.

[2] المرجع نفسه، ص ص 215،216.

[3] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص44.

[4] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص183.

[5] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق** ، ص31.

[6] أتيليو موري: **المرجع السابق**، ص44.

[7] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص183.

[8] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص89.

[9] Les grands explorateurs : op.cit ,p.225

[10] ثريا شرف: **المرجع السابق** ، ص217

[11] فتحي محمد أبوعيانة: **المرجع السابق**، ص32.

بـذلك يعتـبر رولفـس أول أوربي يـنجح في الوصـول إلى خلـيج غينيـا انطلاقـا مـن سـاحل البحـر المتوسط[1].

بعـد "رولفـس" جـاء مستكشـف آخـر هـو الألمـاني "غوسـتاف ناختيغـال Gustave Nachtigal. كانت رحلة هذا المستكشف قد بدأت من طرابلس و انتهت في القاهرة بمصر مروراً ببحيرة تشاد، و ما يهمنا من رحلته هو ذكر مروره ببلاد "بورنو" التي هي جزء من منطقة غرب إفريقيـا الـتي يدرسـها بحثنـا هـذا. غادر ناختيغـال طـرابلس في مطلـع سـنة (1285هـ/1869م)، و في (ربيع الأول 1286هـ/جويلية 1869م) وصـل إلى مدينـة "كوكـا" حيـث لقـي استقبالاً حـافلاً مـن طـرف سـلطانها الـذي تلقـى بـدوره هـدايا قيمـة مـن ضـيفه أرسـلها لـه إمبراطـور بروسـيا "غليـوم الأول★". مكث ناختيغال في "كوكا" قرابة الثلاث سنوات، و اتخذها قاعدة خلفية لكل رحلاته في البلاد المجاورة التي مكنته من جمع معلومات كثيرة و ذات قيمة علمية حولها، و بعد "كوكا" واصل مسيرته باتجاه الشرق حتى وصل إلى القاهرة[2]. نشر هذا المستكشف مذكراته في كتاب بعنوان بعنوان "الصحراء و السودان Sahara and Sudan"، و هو يتكون من ثلاثة أجزاء.

و هكذا مما سبق يتضح لنا بأن المستكشفين الذين تجولوا في الصحراء الكبرى قد حققوا الكثير من الاكتشافات الجغرافية لا تقل أهمية عن تلك التي حققها مستكشفو الأنهار، و هذا رغم الصعوبات التي واجهوها في رحلاتهم التي كانت في أراضٍ واسعة جرداء شبه خالية من الحياة و ذات مناخٍ قاسٍ. و هنا لا يمكن لأحد إلا أن يُكن لهم التقدير و الاعتراف بنتائجهم العلمية المتنوعة المجالات و الفائدة، مع الاعتراف لهم كذلك بالإرادة و الشجاعة و المغامرة و تحدي الصعاب حباً في العلم و خدمة مصالح بلدانهم الأوربية. كما يجب علينا الأخذ بمنهجهم في تحدي صعوبات البحث العلمي و الوصول إلى تحقيق الأهداف.

---

[1] يسرى عبد الرزاق الجوهري: **المرجع السابق**، ص231.

★ – وصل إلى العرش في بروسيا سنة 1861، و في 18 يناير 1871 عُين إمبراطوراً لألمانيا الموحدة (: Dumont, Jean (ed.) op.cit, Tome5, p.180)

[2] Les grands explorateurs : op.cit, p.225

الفصل الرابع: المستكشفون الأوربيون في غرب إفريقيا بين الاستكشاف و الاستعمار

المبحث الأول: من الاستكشاف العلمي إلى الاستكشاف الاستعماري

المبحث الثاني: الاستعمار الأوربي في غرب إفريقيا

المبحث الثالث: المستكشف بول صوليه نموذجاً

يرى الكثير من المؤرخين بأن الاستكشاف و الاستعمار هما وجهان لعملة واحدة، و استنتجوا ذلك من النتيجة التي أدت إليها الكشوف الجغرافية في إفريقيا نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، و هي سقوط أغلب الأراضي الإفريقية تحت نير الاستعمار.و نحن سنحاول في هذا الفصل الرابع، إبراز مدى صحة هذا الرأي من خلال دراسة التداخل الذي حدث بين العمليات الاستكشافية و العمليات الاستعمارية.

المبحث الأول: من الاستكشاف العلمي إلى الاستكشاف الاستعماري.

تندرج الحركة الكشفية التي عرفتها أوربا اتجاه القارة السمراء في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي (19م) تحت إطار النهضة الفكرية التي كانت تعرفها أوربا في هذه الفترة، لكن هذا لا يُثبت بأن هذه الحركة كانت حركة علمية خالصة، على الأقل بالنظر إلى النتائج التي تمخضت عنها.فإذا كان بعض المستكشفين ينتمون إلى دوائر البحث العلمي و من الطامحين إلى الوصول إلى نتائج علمية كلٌ في تخصُّصه، فإن الرحلات العلمية التي قاموا بها استحوذت على اهتمام الجامعيين و الأكاديميين و السياسيين والعسكريين على حد سواء، ناهيك عن بقية فئات الشعب الأخرى.و الحقيقة لقد لقيت مذكرات وكتب هؤلاء الرحالة رواجاً واسعاً في أوربا بسبب تعطشها للمعرفة العلمية و الرغبة في معرفة مختلف أنحاء العالم، كما أنها تُرجمت إلى مختلف اللغات الأوربية في الوقت الذي كان فيه نمو الشعور القومي واضحاً، خاصة لدى الشباب الذي أصبح ينظر إلى الرحلات الاستكشافية على أنها مغامرات و تحديات أصبحت تمجد التاريخ القومي و التفوق العلمي للقوميات الأوربية التي كان ينتمي إليها المستكشفون، بمعنى آخر أصبحت الرحلة الكشفية وجهاً من أوجه الصراع بين تلك القوميات و البلدان في أوربا.

و إذا كانت الرحلة قد أخذت طابعاً علمياً و قومياً، فإنها أخذت كذلك طابعاً مادياً، حيث لم تخلو الرحلات الاستكشافية من الفوائد المادية الجمة التي عادت بها على أوربا، و هي الفوائد التي فاقت ربما في حجمها توقعات المستكشفين و الجهات الداعمة لهم، و أثارت انتباه السياسيين و الحكومات في أوربا.و هكذا فإن النتائج التي توصلت إليها الرحلات الاستكشافية الأولى في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، قد دفعت بعض الحكومات الأوربية إلى تبني الرحلات الاستكشافية التي جاءت في القرن الموالي، و هو ما جعل عددها يتزايد بشكل لافت للانتباه، و بتزايد عدد الرحلات الاستكشافية زادت النتائج إبهاراً و شداً لانتباه الحكومات

الأوربية، حيث استطاعت في ظرف أقل من قرن تقريباً أن تشرِّح القارة الإفريقية و تُبرز ما تكتنزه من ثروات و ما توفره من فرص اقتصادية هائلة.غير أنَّ تبني الحكومات الأوربية لحركة الاستكشاف كان قد جرَّد الرحلات الاستكشافية من طابعها العلمي الخالص، و جعلها تتحلَّى بطابع المنفعة المادية و خدمة المصالح السياسية و الاقتصادية للدول، فبقدر ما كنت لهذه الحركة نتائج علمية قيمة بقدر ما كانت لها نتائج سياسية، أبرزها تواصل معاناة الشعوب الإفريقية من الرجل الأبيض عند سقوطها فريسة للاستعمار الأوربي، و هي المعاناة التي كانت قد بدأت مع أولى الكشوف الجغرافية الأوربية على الساحل الإفريقي في القرن الخامس عشر الميلادي (15م) و ظهور تجارة الرقيق.

في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، عرفت أوربا ثورة صناعية، كانت قد أدَّت إلى البحث عن أسواق جديدة من أجل تصريف المنتجات الصناعية الأوربية، و في نفس الوقت الحصول على ما يلزم من مواد أولية لهذه الصناعة الأوربية المتنامية.

و إذا كان ظهور الحركة الكشفية الأوربية و تطورها قد تزامن مع ظهور و تطور الثورة الصناعية، فإنه قد أدى إلى أن جعل الكشف الجغرافي أداة من الأدوات التي سخرتها أوربا لتحقيق أهدافها التوسعية و الاستعمارية.فقد سعت البرجوازية الأوربية إلى البحث عن قارة أقرب إلى أوربا من أجل الحصول على الثروات و المنتجات التي أصبح الحصول عليها من الهند يتطلب وقتاً طويلاً و يكلِّف كثيراً، و من هذه المنتجات الشاي، البن، الكاكاو، التبغ، السكر و التوابل[1].

و لما كانت إفريقيا هي القارة الأقرب، فإنها أصبحت تستحوذ على اهتمام البرجوازية التي بدأت تدعم الحركة الكشفية الجغرافية بكل الوسائل المادية و البشرية و التقنية، أحياناً باسم العلم كما حدث مع "الجمعية الإفريقية" البريطانية التي تأسست نهاية القرن الثامن عشر (18م)، و أحياناً أخرى باسم السياسة كما حدث مع تأسيس "المكتب الاستعماري" في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي (19م).

و من خلال ما سبق تناوله، فإنه يصعُب على الباحث التمييز في هذه الفترة بين الحركة الجغرافية التي استهدفت استكشاف إفريقيا، و الحركة الاستعمارية التي كان هدفها الوصول إلى ثروات القارة ذاتها، و إن كانت المؤشرات المساقة سابقاً تُرجِّح أن كليهما كان وجهين لعملة

[1] Cornevin, Robert: op.cit, p.475

واحدة.و مع ذلك فإنه يُمكن التمييز بين مرحلتين من الاستكشاف الجغرافي في الفترة الزمنية التي يتناولها بحثُنا أي من نهاية القرن الثامن عشر (18م) حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي(19م):

1- مرحلة الاستكشاف الجغرافي العلمي الذي استهدف التعرف على إفريقيا في تضاريسها، أنهارها، غاباتها و حيواناتها، و دراسة شعوبها في معتقداتها، عاداتها، تقاليدها و نشاطاتها المختلفة. هذه المرحلة امتدت تقريباً من نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م) إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (19م) ، و فيها كانت للاستكشاف دوافع علمية فعلاً ، حيث تمكَّن المستكشفون من جمع كميات هائلة من المعلومات الجغرافية و السياسية و الاقتصادية و الثقافية عن إفريقيا و سكانها.لكن النتائج العلمية البارزة لهذه المرحلة ليست دليلاً على الطابع العلمي الخالص لهذا الاستكشاف و غياب الدوافع الاقتصادية و التجارية من وراءه.

2- مرحلة الاستكشاف الجغرافي الذي غابَت عنه الدوافع العليمة بوضوح، و تحكَّمت فيه الدوافع الاستعمارية و الإمبريالية، و كانت هذه المرحلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م) و تحديداً بعد رحلة المستكشف الألماني بارث حسب بعض المؤرخين الذين رأوا بأن المستكشفين الذين جاءوا بعده لم يكونوا كسابقيهم، بل كانوا يُعِدُّون للاستعمار[1].كانت نتيجة هذا الاستكشاف هي التغلغل الأوربي في أرجاء القارة الإفريقية و استعمارها و استعباد أبنائها.

هذا التقسيم العام لحركة الاستكشاف الجغرافي في إفريقيا عموماً، و غرب إفريقيا خصوصاً، يقوم أساساً على طبيعة المستكشفين الذين زاروا المنطقة، حيث كان المستكشفون الأوائل عموماً من ذوي التكوين العلمي و الأكاديمي، أما الذين جاءوا من بعدهم فكانوا من أصحاب التكوين العسكري.لقد استفاد المستكشفون العسكريون كثيراً من المستكشفين الذين سبقوهم، حيث مهَّدوا لهم الطريق و كانوا السبب في نجاحهم مستفيدين في ذلك من تجاربهم و الاكتشافات التي وصلوا إليها، كما كانوا لهم أمثلة اقتدوا بهم و تأثروا بمغامراتهم منذ طفولتهم.

إن استكشاف غرب إفريقيا كانت له أهداف علمية تحقق منها الكثير —كما ذكرنا ذلك سابقاً- لكن في نفس الوقت كانت له أهداف اقتصادية و تجارية و عسكرية.و كثيرٌ هم المستكشفون الذين كانت تحذوهم المغامرة في رحلاتهم، و تحقيق السبق في مجال الاستكشاف

[1] جي دي فيج: **المرجع السابق**، ص250.

الجغرافي، لكن هؤلاء المستكشفين لم يتمكَّنوا من التجرد من خدمة الأغراض المادية، و المصالح الاقتصادية لبلدانهم، عن قصد أو عن غير قصد، بل هناك من أعلن عن تلك النية صراحة كما سيتبين لاحقاً.و مهما تعدَّدت الآراء و الأحكام في ما يخص نوايا مستكشفي هذه المرحلة، فإن هناك عدة إشارات و حقائق تستحق الذكر، تُبرِز مساهمة هؤلاء المستكشفين في لفت انتباه الأوربيين، و الطبقة البرجوازية في أوربا، إلى هذه القارة العذراء و ثرواتها، و هذه الطبقة هي التي دعمت هؤلاء المستكشفين، و من بعدهم، لم تدَّخِر جُهداً في خدمة الإمبريالية[1].

أول هذه الإشارات هي أنَّ الرحلات الاستكشافية كانت تحت رعاية الحكومات الأوربية التي تبنَّت المستكشفين، و يتضح ذلك جلياً في الحكومة البريطانية ممثلة في "المكتب الاستعماري The Colonial Office"، التي و إبتداءاً من الرحلة الثانية لـ"مونجو بارك" سنة (1220هـ/1805م)، أخذت على عاتقها التكفل برحلات الاستكشاف التي كانت بيد الجمعية الجغرافية الإفريقية[2].لقد كانت هذه الحكومات تمول المستكشفين، و تزودهم بالعتاد اللازم، و تتكفل بنقلهم إلى مناطق الاستكشاف، كما كانت تبعث بتوصياتها إلى قناصلها في مختلف المناطق من أجل استقبال و إرشاد المستكشفين كما رأينا في الفصل الثالث مع القنصل البريطاني في طرابلس "وارنغتون".علاوة على ذلك أنها وفَّرت الحماية لبعض المستكشفين، عن طريق إرسال الجنود لمرافقتهم، و مثال ذلك اصطحاب مونجو بارك لخمسة و ثلاثين جندياً بريطانياً معه من أجل حمايته و إنجاح مهمته في رحلته الثانية.و هكذا يمكن تفسير هذا الدعم الذي وفَّرته الحكومات البريطانية المتتالية للمستكشفين بأملها في أن تحقق لها هذه الرحلات الاستكشافية مكاسب اقتصادية مهمة.و يبدو أن المستكشفين كانوا على عِلم بنوايا الحكومات الداعمة لهم، و مع ذلك فقد تقبلوا هذا الدعم بصدر رحب، لأنهم كانوا بأمس الحاجة إليه خاصة أمام عجز الجمعيات الجغرافية عن توفيره، و تقبَّلوه فانساقوا وراء سياسات هذه الحكومات.و يبقى لنا أن نذكر بأنَّ رعاية الحكومات لحركة الاستكشاف، لا يعني تخلي الجمعيات الجغرافية عنها، بل تواصل دورها الذي تمثل في الإشراف العلمي على عمليات الاستكشاف بجانب الحكومات.

الإشارة الثانية هي ما تضمنته الكتب و المذكرات التي أَلَّفها جُلُّ المستكشفين، حيث كانوا يُبرزون خلال كتاباتهم حجم الثروات الطبيعية التي تزخر بها منطقة غرب إفريقيا، و الفرص

[1] Cornevin, Robert: op.cit, p.474
[2] Ibid, p.476

التي يمكن أن توفرها للاقتصاد الأوربي، لأن غالبية المستكشفين عند الاستعداد لرحلاتهم كانوا يتلقون تعليمات بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حول ثروات تلك المناطق التي ينزلون فيها قبل التوجه إلى إفريقيا. كما أن هؤلاء المستكشفين ضمَّنوا كتبَهُم الكثيرَ من المعلومات التي أفادت الحكومات الأوربية فيما بعد من بسط نفوذها الاقتصادي و السياسي على المنطقة. فمثلاً قدَّم المستكشف الفرنسي "روني كاييه" للمصالح المختصة بالتوسع الاستعماري في بلده، معلومات جغرافية و حضارية دقيقة عن المناطق التي زارها مما سهَّل على فرنسا عمليات التوسع في الصحراء الإفريقية[1].

الإشارة الثالثة هي أن بعض المستكشفين، عند استكمال رحلاتهم و عودتهم إلى أوربا، دعوا البلدان الأوربية إلى ضرورة ربط علاقات سياسية و اقتصادية مع شيوخ المناطق التي استكشفوها، لما في ذلك من فائدة لبلدانهم، و كان أولهم صاحب أول رحلة استكشافية ناجحة في غرب إفريقيا و هو "مونجو بارك" نهاية القرن الثامن عشر (18م) بعدما تمكن من الوصول لأول مرة إلى نهر النيجر[2]. و كان بعض المستكشفين الآخرين أكثر تطرفاً حينما دعوا إلى ضرورة احتلال هذه المناطق من أجل الاستفادة منها تجارياً، و على رأسهم الألماني "بارث" الذي كتب حول تمبكتو يقول: (إن الوضعية السيئة لتمبكتو ستبقى بدون حل حتى تنتزع قوةٌ حازمةٌ و مُنوَّرة أعالي النيجر من "الفولبي★ Les Foulbés" المتعصبين. حينئذ سنتمكن من الاستفادة من الوضعية التجارية الجيدة لتمبكتو)[3].

الإشارة الرابعة، و هي مهمة، تتمثل في النصائح و الإرشادات القيِّمة التي قدَّمها هؤلاء المستكشفين للدوائر الاستعمارية في الدول الأوربية فيما يتعلق بكيفية التعامل مع أهالي غرب إفريقيا و شيوخ القبائل، حتى تسهل عليهم عملية السيطرة على هذه المنطقة. و إذا ما تتبعنا أسلوب التوغل الاستعماري الأوربي في غرب إفريقيا، نكتشف بأن نصائح و توصيات هؤلاء المستكشفين كانت فعلاً بمثابة معالم أنارت الطريق لهذا التوغل، فمثلاً: اتبع الضباط العسكريون الذين كانوا يقودون العلميات العسكرية أسلوب التقرُّب من شيوخ القبائل لتسهيل تقدمهم مثلما كان يفعل المستكشفون. في مقال لـ"هاينريش بارث"، نشرته الجمعية الجغرافية بباريس في (شعبان

---

[1] إبراهيم مياسي: **المرجع السابق**، ص ص 84،85.

[2] Cornevin, Robert: op.cit, p.481

★ – شعب حكم مدينة تمبكتو منذ سنة 1827م (محمد بن عمر التونسي: المرجع السابق، ص 134)

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.177

1281هـ/يناير1885م)، أي قبل وفاته بقليل، حث هذا المستكشف فرنسا على القيام بعمل واسع في الصحراء الإفريقية كي تربطها بالجزائر، و عليها أن تفهم عقلية سكان تلك المناطق، و أن تحترم معتقداتهم خاصة الإسلام، و أن تستعمل معهم أساليب متعددة منها أن تُحسِن اختيار روادها لهذا المهمة، و أن تحمل السيف و البندقية في يد و الكتاب و القلم في يد أخرى، و بذلك يمكن لها أن تحصل على نتائج مفيدة لها في هذا المجال[1].

الإشارة الخامسة هي أن بعض المستكشفين البارزين، بعد عودتهم من رحلاتهم الاستكشافية و الاكتشافات المهمة التي حققوها، اندمجوا في خدمة الأطماع الاستعمارية لبلدانهم، عن طريق المسؤوليات التي تقلدوها، أو المهمات السياسية التي قبلوها من حكوماتهم. فمثلاً: عيَّنت الحكومة الألمانية المستكشف جيرهارد رولفس، الذي كان أول أوربي يصل إلى توات و يعبر إفريقيا من ساحل المتوسط إلى ساحل خليج غينيا، عيَّنته قنصلاً في "زنجبار" عام (1302هـ/1885م)، و هو في سن الثالثة و الخمسين من عمره و بقي في المنصب يخدم مصالح ألمانيا حتى توفي عام (1313هـ/1896م)[2].و نفس الشيء حدث مع المستكشف الألماني الآخر و هو "غوستاف ناختيغال" حينما عيَّنه المستشار الألماني "بسمارك Bismarck"قنصلاً لـ"الرايش" الألماني في تونس عام (1229هـ/1882م)[3]، ثم كلَّفه بعد ذلك سنة (1301هـ/1884م) بمهمة تتمثل في الاستحواذ على أراضي في الطوغو، الكاميرون و جنوب غرب إفريقيا باسم ألمانيا[4].و تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هذين المستكشفَين الألمانيَين و معهما مواطنهما بارث، كانوا قد حثُّوا دولتهم ألمانيا على إقامة إمبراطورية استعمارية لها في إفريقيا[5]، بعدما أن تمكنت من استكمال وحدتها عام (1288هـ/1871م) على يد "بسمارك" و بدأت مجال التنافس على المجال الحيوي.

و الإشارة السادسة، هي أنَّ بعض المستكشفين لما عادوا من رحلاتهم، وجدوا استقبالاً حاراً في أوربا، و تكريماً من طرف الهيئات الرسمية و الحكام و الملوك مثل التكريم الذي يلقاه قادةُ الجيوشِ بعد احتلالهم لأراضٍ جديدة أو انتصارهم في المعارك.و كمثال على ذلك، ما لقيه الرحالة

---

[1] إبراهيم مياسي :**المرجع السابق**، ص85.

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق**، ص188.

[3] منير الفندري: **طبيب المحلة البلاد التونسية فيما بين 1863–1868 من خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف ناختيغال**، مركز النشر الجامعي، تونس: 2003، ص1.

[4] Les grands explorateurs: op.cit, p.225

[5] Ibid, p.225

الألماني "بارث" لدى عودته إلى بريطانيا حينما استقبلته الملكة "فيكتوريا"، و في بلاده استقبله ملك بروسيا، كما أشرنا من قبل في الفصل الثالث.

من خلال هذه الإشارات ، نستخلص بأن هؤلاء المستكشفين كانوا قد قدَّموا خدمات كبيرة للبلدان الأوربية في التعريف بداخل غرب إفريقيا، و تسهيل الوصول إليها، و إبراز إمكانياتها الضخمة من الناحية الاقتصادية، و هذه كلها عوامل ساعدت على استعمار هذه القارة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م).

هذه هي المرحلة الأولى من موجة الاستكشاف الجغرافي في غرب إفريقيا في الفترة الممتدة ما بين نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م) و منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريباً.أما المرحلة الثانية التي تليها حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فهي مرحلة يمكن تسميتها بمرحلة الاستكشاف الجغرافي الاستعماري بامتياز، حيث تجرَّدت الرحلات الاستكشافية من أية أهداف علمية، و سخَّرت نفسها لخدمة الأغراض الاستعمارية، و غاب فيها المستكشف العالم أو الطبيب أو الأكاديمي كما في المرحلة الأولى، و أصبح الاستكشاف من تخصُّص الضباط العسكريين عموماً.

إن أغلب هؤلاء المستكشفين الاستعماريين حسب ما يبدو كانوا من العسكريين الذين يخدُمون في جيوشهم بغرب إفريقيا، و خلال تواجدهم هناك اكتسبوا خبرة في التعامل مع السكان المحليين، وألموا ببعضٍ من عاداتهم و تقاليدهم، و تعلَّموا لغاتهم، و أصبحوا عارفين بجغرافية المنطقة و طبيعتها.و الحقيقة فأن هؤلاء المستكشفين قد كلفوا بعدة مهام، منها توقيع معاهدات الحماية أو معاهدات التجارة مع الزعماء المحليين، و استكشاف المناطق الداخلية بحثاً عن فرصٍ لمد الهيمنة الأوربية مع الزعماء المحليين و كذلك استكشاف المناطق الداخلية بحثاً عن فرص بسط الهيمنة الأوربية عليها سواء تجارياً أو سياسياً.كما كانت مهمة البعض الآخر التوغل في الداخل و محاولة التقرب من زعماء المقاومة الذين ثاروا ضد محاولات التوغل الأوربي.

و في معرض حديثنا عن هؤلاء المستكشفين، في بقية هذا المبحث، سنكتفي بالتطرق لأهم المستكشفين الذين ارتبط اسمهم بالاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا على اعتبار أن فرنسا كانت الدولة الأوربية التي استعمرت النصيب الأكبر من المناطق الداخلية لغرب إفريقيا، في حين أن بقية الدول الأوربية الاستعمارية بالمنطقة اقتصر وجودها على المناطق الساحلية فقط.كما أن فرنسا بعد احتلالها للجزائر و توطيد وجودها في السنغال، أرادت أن تربط مستعمراتها في شمال

إفريقيا بنظيراتها في الغرب مروراً بحوض النيجر، و هذا يشكل أراضٍ واسعة تتطلب مجهودات استكشافية كبيرة، خاصة مع ظهور فكرة مدِّ خطٍ للسكك الحديدية يربط بين هذه المناطق بهدف السيطرة على تجارة القوافل المزدهرة بين شمال إفريقيا و السودان الغربي.ففي سنة (1271هـ/1855م)، عرَضَت الجمعية الجغرافية في باريس جائزة قدرها ستة آلاف فرنك فرنسي للذي يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أو العكس ، بشرط المرور بتمبكتو، و أن يجمع معلومات جديدة و دقيقة حول القوافل التجارية التي تعبر الصحراء من حيث اتجاهها و أهميتها و مواعيد سفرها[1].و على الرغم من أن مشروع السكة الحديدية لم يتجسد، إلا أنه حرَّك السياسيين في فرنسا لإرسال البعثات الاستكشافية إلى مناطق مختلفة من أجل دراسة إمكانية تحقيقه، و أصبح حُلماً يراود الفرنسيين الذين قال أحدهم[2]: "عندما تبدأ القطارات في التنقل بين وهران ، إيغلي و تمبكتو ، سنكون أسياد شمال إفريقيا بكامله".

من هذه الرغبة الفرنسية في توسيع نفوذها في غرب إفريقيا، سخَّرت فرنسا مستكشفيها لاستكشاف أراضي هذه المنطقة الواسعة، خاصة مع مجيء الجنرال "فيدهيرب[★] Faidherbe" الذي عيّنته الحكومة الفرنسية حاكماً عاماً للسنغال سنة (1274هـ/1854م).فبعدما وطَّدت فرنسا وجودها في السنغال و أمَّنت مصالحها، توجَّهت السياسة الفرنسية في عهد فيدهيرب نحو العمل على ربط السنغال بحوض النيجر الذي طالما استهوى الأوربيين بثرواته و بنهرِه العظيم، و لذلك عرفت الحركة الاستكشافية نقلة نوعية بعد مجيء هذا الحاكِم، حيث تزايد عددها و أصبحت أكثر تنظيماً فأدت إلى نتائج هامة بالنسبة لفرنسا.و هكذا كانت أهداف جُل هذه الرحلات تتمثل في التوغل إلى الداخل و جمع المعلومات المختلفة و ربط علاقات سياسية و تجارية مع شيوخ المنطقة، و الحقيقة أنه، و رغم رحيل "فيدهيرب" و مجيء حُكامٍ آخرين، تواصلت السياسة الفرنسية في المنطقة على نفس المنهج الذي وضع "فيدهيرب" معالمه.

لقد حققت عمليات الاستكشاف هذه نجاحات مهمة بصفة عامة، حيث أن معظم المستكشفين الفرنسيين استطاعوا تنفيذ المهام التي كُلِّفوا بها و العودة أحياءً، و هذا عكس

---

[1] إبراهيم مياسي : **المرجع السابق**، ص86.

[2] Sonolet, Louis: L'Afrique occidentale Française,Hachette, Paris, 1912, p.2

★ – و اسمه الكامل لويس–ليون–سيزار فيدهرب (1818–1889م)، خدم في الجزائر ما بين سنتي 1842 و 1847م (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.252)

المستكشفين الأوائل الذين مات منهم الكثير أو فشلوا في بلوغ أهدافهم.و يُفسَّر هذا النجاح لدى المستكشفين الفرنسيين باستفادتهم من تجارب سابقيهم، و من التمزق السياسي الذي كانت تتخبط فيه دويلات و إمبراطوريات غرب إفريقيا مقابل تعاظم القوة الفرنسية بالمنطقة، كما أن هؤلاء المستكشفين كانت ترافقهم قوافل كبيرة من المرشدين و الجنود المسلَّحين بأسلحة حديثة لحمايتهم، و كانوا يتوفرون على لوازم و وسائل السفر و الاستكشاف المختلفة.

كما ذكرنا سابقاً، سنكتفي هنا باستعراض أهم المستكشفين الاستعماريين الفرنسيين الذين كانت بصماتهم واضحة في خدمة التغلغل الفرنسي بغرب إفريقيا.و هؤلاء المستكشفين، حسب الترتيب الكرونولوجي، هم :

1- ليوبولد بانيه Léopold Panet: كان هذا الضابط الفرنسي على معرفة باللغة العربية و بالموريين ، و استطاع اكتساب قليلاً من الخبرة في الاستكشاف، حيث كان قد رافق "آن رفانل" في رحلته إلى "كارتا Kaarta" سنة (1262هـ/1846م)، و جاء في الفترة التي كانت فيها فرنسا تريد تكوين مستعمرة واحدة تربط بين الجزائر و السنغال.

غادر "بانيه" مدينة "سان لويس" متجهاً نحو الشمال يوم (21 صفر 1266هـ/6 يناير 1850م)، برفقة قافلة للتجار و هو متنكر، و حفاظاً على حياته و خوفاً من انكشاف أمره كان قد ابتدع قصة تُشبه قصة مواطنه "روني كاييه"، و في (14 ربيع الأول /28 يناير) من نفس السنة بلغ "شنقيط" في جنوب شرق "وادي الذهب★ Rio de Oro"[1].في هذه المنطقة أبدى هذا المستكشف اهتماماً كبيراً بالفرص التجارية التي قد تمنحها المنطقة، فقد وصف التجارة في "شنقيط" بالمزدهرة، و اقترح على بلاده عقد اتفاق مع شيخ تلك المنطقة عن طريق دفع مبلغ مالي له سنوياً، يتراوح ما بين ألف و مائتين و ألفين و أربعمائة فرنك (مبلغ زهيد بالنسبة لفرنسا لكنه ثروة بالنسبة لملوك الصحراء)، و في المقابل يوفِّر هذا الشيخ الحماية و الأمن للتجار الفرنسيين في تلك المنطقة مما سيمكنهم من الحصول على الذهب، ريش النعام ، الجلود و الأصواف.كما أبدى في نفس الوقت إعجابه بكميات المِلح الوفيرة و نوعيته الجيدة في السبخة

★ – محمية اسبانية سابقة في الصحراء الغربية و عاصمتها الداخلة، و هي تقع جنوب إقليم الساقية الحمراء (GDEL, Tome 9, p.9019)

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, pp.170-171

الكبرى هناك[1].بعد ذلك و في (ربيع الثاني /فبراير) من نفس السنة غادر بانيه شنقيط متجهاً نحو المغرب، و في (12 رجب/25 ماي) وصل إلى مدينة "الساورة Mogador"، و بعدها بلغ "مارسيليا" في (11شعبان/22جوان) من السنة نفسها[2].

يلخِّص بانيه تفكيره، و ربما تفكير الساسة الفرنسيين و بقية المستكشفين، فيقول :" تحضير (من الحضارة) إفريقيا يعني فتح قنوات الاتصال بينها و بين بقية شعوب العالم، من أجل أن تُنتج لا بد من إيقاظ الصناعة لدى سكانها، و من أجل تكثيف العلاقات التجارية معها لا بد من نقل الرفاهية إليها.المهمة الأولى هي عمل إنساني و أخلاقي، الثانية هي ضرورية لصناعتنا، و الثالثة هي لتوسيع تجارتنا"[3].

2- إياسنت إيكار Hyacinthe Hecquard: تعتبر رحلة هذا المستكشفِ نقطة الانطلاق للتوغل الفرنسي بغرب إفريقيا في طابعه السياسي[4].كان إيكار ضابطاً في الجيش الفرنسي بالسنغال، فكلَّفه حاكم السنغال "بودان Baudin" بمهمة عبور منطقة "فوتا جالون" لإيصال هدية إلى شيخ تلك المنطقة، و منه التوجه نحو "سيجو" على نهر النيجر من أجل تبليغ رسالة إلى حاكم البلاد.

بدأت رحلة إياسنت إيكار يوم (12 شعبان 1266هـ/23 جوان 1850م)، من بلدة "سَدهيو★ Sed'hiou" في منطقة "الكازامنس"[5] بالسنغال، لكنَّه عجز عن بلوغ مدينة "سيجو" نتيجة الصعوبات المختلفة التي اعترضت طريقه، فعاد إلى مدينة "سان لويس" يوم (11 شوال 1267هـ/10أوت 1851م)[6].و رغم عدم بلوغ هدفه و قِصر الرحلة التي قام بها، إلا أنَّ

---

[1] Bunge, Ernest: De Paris à Tombouctou en huit jours, Société des anciens courtiers, Havre, 1895, pp16-17

[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, pp.171-172

[3] Ibid, p.169

[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.188

★ - تقع على الضفة اليمنى لنهر الكازامنس بالسنغال (GDEL, Tome 9, p.9452)

[5] Hyacinthe, Hecquard: Rapport sur un voyage d'exploration dans l'intérieur de l'afrique ,la revue coloniale, mars 1852, pp195-196

[6] Ibid , p221

هذا المستكشف استطاع وضع دراسة دقيقة و وافية لمجرى نهر السنغال في الجزء الأعلى منه، و تمكَّن من دراسة التنظيم السياسي و نمط الحُكم اللذين كانا متبعين في منطقة فوتا جالون[1].و بعد عودته إلى فرنسا، نشر تقرير رحلته في النشرة الاستعمارية الفرنسية، و كخلاصة لما كتبه يؤكد بأن الوصول إلى مدينة "سيجو" لم يعد أمراً مستحيلاً، و أن الوقت قد حان لإرسال الفرنسيين إلى المناطق التي زارها من أجل التعرف عليها أكثر جغرافياً و تجارياً، كما أكَّد على أن تلك المناطق يمكن أن تكون مركزاً تجارياً مزدهراً بالنسبة لفرنسا[2].

و يبدو أن السياسيين و العسكريين الفرنسيين تبنوا دعوة إيكار، حيث تصاعدت وتيرة الاستكشاف بعده مع مجيء فيدهيرب الذي عُيِّن حاكماً للسنغال سنتين بعد صدور تقرير إيكار في النشرة الاستعمارية.

3- أبدون-أوجين ماج Abdon-Eugène Mage(ولد 1837- توفي 1869):

يعتبر هذا الضابط المستكشف من أبرز المستكشفين الفرنسيين في السودان الغربي بالنظر إلى المدة الزمنية التي قضَّاها في أجزائه الداخلية، و الاكتشافات التي حققها، و بنظرياته الاستعمارية التي أصبحت من معالم السياسة الفرنسية خلال توسعها الاستعماري بالمنطقة.

في (شعبان 1279هـ/فبراير1863م)، تقدَّم "ماج" لوزير البحرية و المستعمرات الفرنسي بمشروع رحلة استكشافية إلى أعالي نهر النيجر، و في نفس السنة جاءه التكليف من حاكم السنغال "فيدهيرب".غادر مدينة "بوردو Bordeaux" بفرنسا على الفور يوم (8 محرّم 1280هـ/25 جوان 1863م)، و هو مليء بالحماس و الاعتزاز بخدمة بلده، بعد قراءته لكتب أشهر الرحالة في غرب إفريقيا و هم رفانل، كاييه، بارك و بارث[3].

كانت مهمة المستكشف ماج -حسب تعليمات فيدهيرب- هي استكشاف المناطق الواقعة بين السنغال و النيجر الأعلى[4]، و كذلك محاولة الاتصال بالحاج عمر من أجل الوصول إلى اتفاق معه[5]، و كان الحاج عمر قد كوَّن إمبراطورية بالمنطقة كانت تعرف توسعاً متزايداً، حيث

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.188
[2] Hyacinthe, Hecquard: op.cit, p222
[3] Mage, Eugéne: Voyage dans le Soudan occidental 1863-1866, le Tour du Monde Nouveau Journal des voyages, pp1-2
[4] Ibid, p2
[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.189

حيث سيطر على "سيجو" سنة (1279هـ/1861م)، و على "ماسينا★" و "تمبكتو" في السنة الموالية[1].

تمكَّن ماج سنة بعد بداية رحلته برفقة جراح فرنسي كان معه اسمه "كانتان Quintin" من الوصول إلى مدينة "سيجو"[2]، و هناك استقبلهما "أحمادو شيخو" أحد أبناء الحاج عمر، و حاول إخفاء خبر وفاة والده الذي اغتالته بعض قبائل "ماسينا" و هذا خوفاً من انتشار الفتنة في أرجاء إمبراطوريته الناشئة.بقي ماج و رفيقه شبه محتجزين مدة عامين في سيجو أملاً في رؤية الحاج عمر[3]، و خلال فترة الإقامة هذه، جمعا معلومات تاريخية و سياسية غنية جداً، و تمكنا في النهاية من توقيع معاهدة تجارية مع أحمادو شيخو[4].

في شهر (ذي الحجة 1282هـ/ماي 1866م) غادر "ماج" و "كانتان" مدينة سيجو [5]، عائدان إلى السنغال، و بذلك انتهت رحلتهما التي رأى الحاكم "فيدهيرب" بأنها كانت مثمرة مثمرة جداً[6].

نشر "ماج" سنة (1283هـ/1867م) يوميات رحلته[7]، و ترك عدة نظريات تنُمُّ عن فكره الاستعماري.من هذه النظريات، اقتراحه الداعي إلى مقايضة السلع الأوربية في سيجو بالعبيد، و بعدها يتم نقل هؤلاء العبيد إلى المناطق الساحلية و تحريرهم حتى يساهموا في زيادة الإنتاج بتلك المناطق و ازدهارها و بالتالي تنشيط التجارة فيها[8].كما رأى أنه إذا كانت فرنسا تريد تريد التوغل في السودان بشكل فعَّال، فإنه يتوجب عليها صعود نهر النيجر بالسفن، عن طريق إيجاد حل لعقبة شلالات بوسا التي تعيق توغل السفن في نهر النيجر، أو صناعة السفن في عين المكان وراء هذه الشلالات.و يرى أن كل آلام إفريقيا تأتي من التيار الإسلامي المتنامي

★ – مقاطعة في مالي على الضفة اليسرى لنهر النيجر (GDEL, Tome 6, p.6506)

[1] Faidherbe, le général: le Sénégal la France dans l'Afrique occidetale, Hachette, paris, 1889, p.299

[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p. 189

[3] Faidherbe, le général: op.cit, pp299-300

[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p. 190

[5] Ibid, p190

[6] Faidherbe, le général: op.cit, pp299

[7] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.190

[8] Ibid, p.190

L'Islamisme، ولا يجب على فرنسا أن تشجِّعَه تحت أي ظرف من الظروف، سواءً في المستعمرات التي كانت بحوزتها آنذاك أو التي ستحصل عليها بعد ذلك[1].

4- جوزيف سيمون غالييني Joseph-Simon Gallieni(ولد 1849- توفي 1916):

يعتبر مثل سابقيه من المستكشفين الاستعماريين الفرنسيين، فهو ضابط في الجيش الفرنسي، تخرج هذا الضابط من مدرسة سان سير★ Saint-Cyr العسكرية الفرنسية سنة (1286هـ/1870م)[2].و تميَّز بانجازاته التي حققها سواءً على الصعيد الاستكشافي أو الصعيد العسكري. في سنة (1296هـ/1879م)[3]، عيَّنه حاكم السنغال "بريار دوليسل★★ Brière de l'Isle" لاستكمال المشروع الذي كان قد بدأه سلفُه "فيدهيرب"، و المتمثل في الوصول إلى هضبة النيجر الأعلى عن طريق اجتياز الكتل الجبلية الموجودة بين هذا النهر و السنغال، و محاولة فتح منافذ تجارية في تلك المناطق التي كانت تحت السلطة الاسمية لأحمادو شيخو[4].

بدأ غالييني رحلته من "سان لويس" يوم (17 صفر 1297هـ/30 يناير 1880م)[5]، و ذلك على رأس بعثة كبيرة تتكون في أغلبيتها من الجنود السنغاليين المنتمين للجيش الفرنسي، و في (28 ربيع الثاني 1298هـ/30 مارس 1881م)، وصلت بعثة "غالييني" إلى بلدة "بافولابي" الواقعة على ضفاف نهر "بافينغ"، و في الشهر الموالي وصلت إلى بلدة "كيتا★★★ Kita"[6].و عن هذه المنطقة الأخيرة يقول "غاليني"، بأنها مفتاح كل هذا الجزء من السودان، و أن الدولة التي تتمكن من السيطرة عليها ستتمكن من كسب ود كل قبائل "الماندينغ" في المنطقة، و ممارسة تأثير قوي فيها حتى حواف النيجر.هذا من الناحية الإستراتيجية، أما من الناحية التجارية يقول بأنها تقع على أحد أهم طرق القوافل في السودان[7].

---

[1] Mage, Eugène: op.cit, p.112

★ - مدرسة عسكرية أسسها نابليون بونابرت سنة 1808 (GDEL, Tome 9, p.9228)

[2] Besancenet, Alfred de: les Français au cœur de l'Afrique, G.Téqui, Paris, 1884, p.74

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.190

★★ - (1827-1896) جنرال فرنسي شارك في العمليات العسكرية الفرنسية بالصين و الفيتنام (GDEL, Tome 2, p.1505)

[4] Gallieni, Joseph-Simon: Voyage au Soudan Français 1879 -1881, Hachette, Paris, p.5

[5] Ibid, p.12

★★★ - مدينة في غرب مالي حالياً (GDEL, Tome 6, p.6004)

[6] Besancenet, Alfred de: op.cit, pp.76-83

[7] Gallieni ,le commandant: op.cit, pp.143-144

بعد ذلك، توجه نحو "سيجو" عاصمة إمبراطورية "التكرور" الإسلامية التابعة لـ"أحمادو شيخو"، لكنه لم يتمكن من الوصول إليها لأن هذا الزعيم المسلم رفض رؤيته، و بالتالي توقفت رحلته و كانت بلدة "نانغو Nango" أبعد نقطة يصل إليها[1]، و مكث فيها سنة كاملة[2].و رغم رفض أحمادو لملاقاته، إلا أن هذا المستكشف استطاع أن يوقع مع هذا الزعيم التكروري معاهدة في "نانغو" يوم (29 ذو القعدة 1297هـ/3 نوفمبر1880م)[3].و لما سيطر الفرنسيون على (كيتا)، سمح "أحمادو" لـ"غاليبيني" و رفاقه بالمغادرة[4]، و في (12 جمادي الثانية 1298هـ/12ماي 1298هـ/12ماي 1881م) وصلوا إلى "سان لويس"[5].

كانت نتائج رحلة "غاليبيني" حافلة بالانجازات الجغرافية، حيث رصد كل مظاهر السطح و المناخ بالمنطقة، و جمع معلومات قيمة حول عادات و تقاليد سكان البلاد التي زارها خاصة منهم البمبارا و التكرور.و على الصعيد السياسي تمكن "غاليبيني" من الاتفاق مع الزعيم "أحمادو شيخو".

و من خلال هذه الرحلة، و خدمته في الجيش الفرنسي، اكتسب غاليبيني خبرة كبيرة في التعامل مع واقع تلك البلاد، و هذا ما ساعده في النجاح في المنطقة عندما عُيِّن قائداً لعملية عسكرية هناك في الفترة 1303-1304-هـ/1886-1887م، حيث تمكن من إجبار أحمادو شيخو على توقيع معاهدة سلام مع الفرنسيين[6].

كان "غاليبيني" متشبعاً بالفكر الاستعماري، فقد كان يرى بأن التوسع الاستعماري هو حاجة شرعية، و هو مسألة حياة أو موت بالنسبة لفرنسا[7].و في هذا الاتجاه نجده يضع عُصارة خبرته الاستكشافية و العسكرية في يد السياسيين و العسكريين الفرنسيين، حينما قدَّم في مذكراته الخطوات التي يجب إتباعها لفرض الهيمنة الفرنسية على غرب إفريقيا، و عددها اثنا عشرة، من بينها مقاومة التأثير الإسلامي على ضفاف نهري السنغال و النيجر[8].

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.307
[2] Besancenet, Alfred de: op.cit, p.112
[3] Gallieni, le commandant: op.cit, pp.620-621
[4] Faidherbe, le général: op, cit, p.309
[5] Besancenet, Alfred de: op.cit, p.112
[6] Faidherbe, le général:op.cit, pp.446-447
[7] Gallieni, le commandant: op.cit, p169 :
[8] Ibid, pp620-622

5- غوستاف بانغر Gustave Binger(ولد 1856- توفي 1936):

جاء هذا المستكشف في الوقت الذي كانت فيه القوى الأوربية في أوج تنافسها على إفريقيا، لهذا كان يؤمن حسب رأيه بأن فرنسا لا بد أن تحافظ على تقدمها في غرب إفريقيا و مواجهة القوى المنافسة لها[1]، خاصة أن فرنسا كانت قد حقّقت إنجازات كبرى في المنطقة، بوصولها إلى حوض النيجر، و عقدها لمعاهدات الحماية مع الكثير من شيوخ و زعماء المنطقة مثل أحمادو شيخو -كما سبق لنا و أن رأينا-.

و مرة أخرى، نجد بصمة الحاكم السابق للسنغال فيدهيرب في الدفع بحركة الاستكشاف الاستعماري في تلك المناطق، حيث كان وراء تكليف هذا المستكشف من طرف وزارة الخارجية الفرنسية.تمثلت مهمته في المسح الجغرافي لثنية النيجر، و من الناحية السياسية طُلِبت منه محاولة ربط المحطات الفرنسية في السودان الفرنسي و خليج غينيا عن طريق عقد المعاهدات مع شيوخ المناطق المستكشفة، و كان هذا التكليف في نهاية سنة (1304هـ/1886م)[2].

غادر "غوستاف بانغر" مدينة "سان لويس" بالسنغال في (16 جمادي الثانية 1304هـ/12 مارس 1887م)، و اختار التوجه إلى الشرق بهدف الوصول إلى مدينة "بماكو" لأن هذه الطريق كان يرى بأنها أكثر أمناً و فرص النجاح في عبورها كبيرة، كما لم يسبق لأحد الوصول إلى "بماكو" انطلاقاً من خليج غينيا[3].لقد بلغ "بماكو" يوم (28 رمضان 1304هـ/21 جوان 1887م)، و في شهر (جمادي الأول 1305هـ/فبراير 1888م) وصل إلى بلاد "الكونغ "Kong"[4].بعد ذلك اتجه إلى "وغادوغو★ Ouagadougou" عاصمة "الموسي"، ثم عاد إلى بلاد الكونغ[5]، و منها اتجه إلى ميناء "جراند بسام" على خليج غينيا ليصله في (1306هـ/مارس1889م)[6].

و مع بلوغ خليج غينيا، يكون بانغر قد حقق إنجازاً مهماً، حيث عبر بلاداً لم يعبرها أي أوربي من قبله، و قدم عملاً ضخماً عن شعوب تلك البلاد في علم الإثنوغرافيا و

---

[1] Binger, Gustave: Du Niger au Golfe de Guinée par le pays de Kong et le Mossi, Tome1, Hachette, Paris,1892, p.1
[2] Ibid, p.2
[3] Ibid, pp.4-5
[4] Ibid, pp10, 288

★ - عاصمة بوركينا فاسو (GDEL, Tome 7, p.7684)

[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.191
[6] Cornevin, Robert: op.cit, p.552

اللسانيات[1]، و تثميناً لجهوده كرَّمته الجمعية الجغرافية الملكية بميداليتها[2]. كما أن الخبرة التي اكتسبها من رحلته دفعت فرنسا إلى تكليفه بمهمة سياسية حساسة عام (1309هـ/1892م)، تتمثل في إقامة خط الحدود بين ساحل الذهب (غانا) البريطاني و ساحل العاج (كوت ديفوار) الفرنسي[3]، و يبقى أكبر تتويج حصل عليه هذا المستكشف من بلده، هو تعيينه كأول حاكم لمستعمرة كوت ديفوار عام (1310هـ/1893م)[4].

و هكذا كان "بانغر" مثل "ماج" و "غالييني"، قد توصل من خلال رحلته إلى عدة حقائق تتعلق بالأسلوب الأمثل الذي يجب أن تسلكه فرنسا لتنفيذ سياستها الاستعمارية بالمنطقة، و منها: أنه رأى بأن استعمال القوة و العنف يؤدي إلى نتائج كارثية، و أن الطريقة المثلى لفرض الهيمنة هي إتباع أسلوب التوغل التجاري الذي يرى بأنه فعال رغم بُطئه، و يضيف بأن التقدم البطيء مفيد في فرض الأفكار و العادات الفرنسية على السكان المحليين[5].

6- بارفي لويس مُونْتِيْ Parfait-Louis Monteil(ولد 1855- توفي 1925)

كان هذا المستكشف آخر مستكشف استعماري فرنسي كبير يتجول في منطقة غرب إفريقيا، فقد كانت نهاية رحلته سنة (1310هـ/1892م)، أي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م) الذي كانت فيه الدول الأوربية قد أوشكت على استكمال السيطرة على غرب إفريقيا.و لهذا السبب ربما كانت رحلة هذا المستكشف ضعيفة التأثير سياسياً، رغم أنها كانت مهمة باكتشافاتها، و لقيت صدى واسعاً في فرنسا[6].

في (19 ذي الحجة 1307هـ/5 اوت 1890م)، اتفقت فرنسا و بريطانيا على تقسيم المناطق الداخلية لغرب إفريقيا يفصل بينهما خط يمتد من مدينة "ساي" على نهر النيجر حتى مدينة "باروا Barroua" عند بحيرة تشاد، و في اليوم الموالي كلَّفته وزارة المستعمرات الفرنسية

---

[1] Cornevin, Robert: op.cit, p.565

[2] جوزفين كام: **المرجع السابق** ، ص188.

[3] المرجع نفسه، ص189

[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.192

[5] Binger, le Capitaine: op.cit, Tome2, p.348

[6] Cornevin, Robert: op.cit, p.552

بمهمة التعرف و تحديد هذا الخط، خاصة أنه يمر وسط أراضٍ لم يزرها أي أوربي منذ رحلة المستكشف الألماني "بارث"، و من بعدِه مواطنَيه "رولفس" و "ناختيغال"[1].

موجهاً بالتعليمات و النصائح التي وجهها له سلفه المستكشف "بانغر"[2]، و بخبرة استكشافية حصل عليها في رحلة شملت المناطق الواقعة بين السنغال و "بماكو" في الفترة (1301-1302هـ/1884-1885م)[3]، انطلق "مونتي" من فرنسا يوم (4 صفر 1308هـ/20سبتمبر 1890م)، و في (18 صفر/4 أكتوبر) من السنة نفسها وصل إلى "سان لويس" في السنغال[4].مباشرة بعد الوصول إلى سان لويس، بدأت رحلة مونتَي على رأس بعثة تضم تضم فرنسياً واحداً و ثمانية سنغاليين مسلَّحين، و تمكنت البعثة من عبور أبرز مدن و عواصم البلاد الممتدة بين السنغال و ليبيا مروراً بحوض النيجر و بحيرة تشاد، و من هذه المدن سيجو ، وغادوغو ، ساي ، كانو (عاصمة الهاوسا)، كوكا (عاصمة بورنو)، مرزوق و أخيراً طرابلس التي وصلتها البعثة في (19 جمادي الأول 1310هـ/10ديسمبر1892م)[5].بعد ثلاثة أيام من ذلك، غادر مونتي إلى فرنسا التي حظي فيها باستقبال حار و كرمته السلطات الفرنسية بوسام الشرف الفرنسي La croix d'officier de la Légion d'honneur الذي سلمه له المستكشف "بانغر"[6].

و ما يثير الانتباه في مذكرات هذا المستكشف، هو الحيِّز الذي خصَّصه للحديث عن المستكشف الأمريكي المعاصر له و هو "ستانلي"، الذي سنشير له في المبحث الموالي من هذا الفصل، حيث يعرض وجهة نظره فيه كمستكشف مقارنة بنظرة العامة نحوه[7].

هذه خلاصة دراسة مركزة بما توفر لنا من مرجعية لأهم المستكشفين الفرنسيين الذين خدموا الأغراض الاستعمارية لبلدهم فرنسا.بقي لنا مستكشف واحد لم نذكره و هو "بول صولييه Paul Soleillet"، سنُفرِدُ له المبحث الثالث من هذا الفصل لدراسته كنموذج.

---

[1] Monteil, Parfait-Louis: De Saint-Louis à Tripoli par le lac Tchad, Félix alcan, Paris,1895, pp.2-3
[2] Ibid, p.9
[3] Ibid, p.16
[4] Ibid, pp.11-12
[5] Ibid, p.443
[6] Ibid, p.447
[7] Ibid, pp.3-8

المبحث الثاني: الاستعمار الأوربي في غرب إفريقيا.

إن الحديث عن الاستكشاف في إفريقيا يجرنا إلى الحديث عن الاستعمار، فلا يمكننا فصل موضوع الكشوف الأوربية عن موضوع الاستعمار، حيث كان الأول تمهيداً للثاني[1]، و ينطبق هذا الكلام بصفة خاصة على منطقة غرب إفريقيا، التي كانت أول منطقة تبدأ فيها الكشوف الأوربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، و ظلَّت تحت أنظار المستكشفين الأوربيين إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م) الذي اشتدت فيه عمليات الاستكشاف التي قدَّمت خدمة كبيرة للاستعمار، و مهَّدت له الطريق لفرض سيطرته على هذه المنطقة مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م).

حتى منتصف القرن التاسع عشر (19م) ظلت أجزاء واسعة من منطقة غرب إفريقيا مجهولة لدى الأوربيين، و هذا رغم المعلومات الكثيرة التي نقلها عنها المستكشفون –كما رأينا سلفا–، كما أن التواجد الأوربي بالمنطقة اقتصر على السواحل، و هو تواجد كان تجارياً بالدرجة الأولى، و لا يزال يعتمد بالأساس على تجارة العبيد.هذان العاملان كانا وراء تأخر الاستعمار الأوربي للمنطقة حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، فبقيت خارج السيطرة السياسية المباشرة للدول الأوربية، لكن هذا التأخر لا يعني غياب الأطماع الاستعمارية لهذه الدول، التي حاولت في البداية الظهور بوجه المنقذ لسكان المنطقة من التخلف، حيث ادعى المبشرون و المستكشفون و السياسيون أن مهمتهم في إفريقيا و منها أراضيها الغربية هي نقل الحضارة إلى هذه القارة.و قد تسترت هذه الأطماع الاستعمارية وراء الحركة الإنسانية التي ظهرت في بريطانيا و أوربا لمحاربة تجارة الرقيق الإفريقي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، و في هذا السياق أنشأت بريطانيا محمية سيراليون، حتى تكون مستقراً للعبيد المحررين و منطلقا لأسطولها البحري الذي كُلِّف بمحاربة هذه التجارة في السواحل الإفريقية، لكن هذا الأسطول سيتحول إلى قوة استخدمتها بريطانيا لخدمة سياستها بالمنطقة.أما فرنسا فإن أطماعها كانت أكثر وضوحاً منذ البداية، فبعد هزيمتها في الحروب النابليونية مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي (19م) أرادت أن تُعوِّض عن خسارتها بالحصول على مستعمرات في إفريقيا، و بالأخص في غرب إفريقيا، حيث

[1] أحمد نجم الدين فليجة: **المرجع السابق**، ص50

كانت تملك وجوداً قوياً و قاعدة خلفية هامة على ساحل هذه المنطقة تتمثل في مدينة "سان لويس".

و على عكس فرنسا التي كانت أكثر مبادرة في غرب إفريقيا، فإن بريطانيا التي كانت الراعي الأول لعمليات الاستكشاف في الأراضي الداخلية لغرب إفريقيا، لم تظهر أطماعها الاستعمارية في المنطقة إلاَّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، و كان ذلك بالأساس رد فعل على تعاظم النفوذ الفرنسي في تلك المنطقة.

و هكذا، فإنَّ نظرة أوربا للقارة الإفريقية قد تغيرت بشكل جذري ما بين نصفي القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، و الدليل على ذلك هو أن مع بداية هذا القرن، لم يكن إلا جزء صغير من القارة يخضع للسيطرة الأوربية، لكن مع وصول القرن إلى نهايته خضعت جل الأراضي الإفريقية للاستعمار الأوربي.و يفسر هذا التحول بعاملين أساسين:

أولهما هو أن البلدان الأوربية تطلعت إلى إيجاد بدائل لتجارة الرقيق التي تراجعت بشكل كبير في غرب إفريقيا مما استلزم على هذه البلدان التوغل إلى الداخل لتحقيق هذا الهدف.

أما العامل الثاني، فهو الانعكاسات التي أفرزتها الثورة الصناعية بأوربا، حيث أصبحت الحاجةُ ملِحَةً في هذه القارة للمواد الأولية من أجل تنشيط الصناعة، و في نفس الوقت ظهرت الحاجة إلى الأسواق لبيع المصنوعات الأوربية، و من هنا برزت أهمية نهري الكونغو و النيجر لتصريف المنتجات الأوربية[1].

إن التنافس الأوربي في غرب إفريقيا كان منحصراً في البداية بين فرنسا و بريطانيا، كما كان في كثير من مناطق العالم، لأن كلاهما كان يملك حضوراً تجارياً قوياً بالمنطقة، في حين أن الدول الأخرى، و هي البرتغال و هولندا و الدنمارك، فكان وجودها دون تأثير.غير أن دائرة التنافس ستتسع و ستتسارع وتيرته، مع تقدم السنوات في القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، نتيجة المعطيات الجديدة على الساحة الأوربية و تعاظم التوغل الفرنسي في المنطقة. فعلى الصعيد الأوربي، ظهرت دولة جديدة هي ألمانيا التي فرضت واقعاً جديداً و أصبحت منافساً مهماً في السياسة الأوربية، و تبنَّت دور الحَكَمِ بعد قيامها بين الدول الأوربية خاصة بين فرنسا و بريطانيا[2]، قبل أن تتحول إلى دولة استعمارية بعد ذلك.كما أبان ملك بلجيكا "ليوبولد الثاني" عن أطماعه

[1] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث و المعاصر**، ص47

[2] Cornevin, Robert: op.cit, p.534

الاستعمارية بكل صراحة في إفريقيا، فكانت السبب في تحريك التكالب الاستعماري الأوربي على هذه القارة، و ذلك بعد تأسيس" الجمعية الدولية لكشف إفريقيا" في مدينة "بروكسل" عام (1293هـ/1876م)[1].أما في غرب إفريقيا، فقد أظهرت فرنسا طموحاً استعمارياً كبيراً عندما بدأت عمليات الاستكشاف و التوغل تتزايد من أجل ربط حوض النيجر مع السنغال -كما ذكرنا سابقاً.

ففي رسالة بعث بها الملك البلجيكي "ليوبولد الثاني" إلى أحد البارونات الإنجليز يوم (10 ذي القعدة 1294هـ/17 نوفمبر 1877م) قال فيها : " أنا لا أريد لا إغضاب الإنجليز و لا تضييع فرصة الحصول على نصيب من هذه الكعكة الإفريقية الرائعة"[2]، و من هذه الرسالة نستنتج مدى تلهف البلدان الأوربية لاستعمار إفريقيا التي أصبح الأوربيون يدركون مدى أهميتها و غناها بالثروات، و في نفس الوقت إصرار الملك البلجيكي على الحصول علي مستعمرات في إفريقيا.كان هذا الملك البلجيكي حريصاً جداً على حصول بلاده على المستعمرات مثلها مثل البلدان الأوربية الأخرى، خاصة بعد فشل كل محاولاته في امتلاك أراضي خارج القارة الإفريقية بالاحتلال أو عن طريق الشراء، و كان ذكياً في إيجاد موطأ قدم لبلاده في الكونغو بموافقة من القوى الأوربية حتى أن المستكشف الأمريكي "ستانلي"، الذي عمل لحسابه، أُعجب بذكاء هذا الملك البلجيكي[3].

بعد توليه الحكم اثر وفاة والده في (1282هـ/1865م)[4]، أصبح اهتمام الملك "ليوبولد الثاني" هو الحصول على مستعمرة في إفريقيا استكمالاً لسياسة أبيه "ليوبولد الأول" الذي كان يبحث عن مستعمرة للتخفيف من النمو الديمغرافي الخانق لبلاده، و كانت له محاولة في هذا الاتجاه لما حاول شراء "بورنيو★ Borneo" من هولندا لكنه فشل[5].و لتحقيق أطماعه الاستعمارية، دفعه انجذابه إلى أخبار الاستكشافات الجغرافية في إفريقيا إلى الدعوة لعقد مؤتمر في بروكسل عام (1293هـ/1876م)، كانت نتيجته تأسيس "الجمعية الدولية لكشف إفريقيا" بحضور

---

[1] ظاهر جاسم محمد: **المرجع السابق**، ص 106.

[2] Cornevin, Robert: op.cit, p.535

[3] Reader ,John: Africa: A biography of the continent, Penguin books, london, 1998, p.528

[4] Ibid, p.519

★ – جزيرة كبيرة تتقاسمها ماليزيا و أندونيسيا (GDEL, Tome 2, p.1364)

[5] Reader, John: op.cit, p.518

ممثلين عن بلجيكا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، النمسا، إيطاليا و روسيا[1].و كان هدف هذه الجمعية هو إقامة محطات بين زنجبار و المحيط الأطلسي، و ذلك لمكافحة تجارة الرقيق و حماية البعثات التبشيرية[2].و قد تقرَّر في المؤتمر كذلك أن تشكِّل كل دولة لجنة استكشافية محلية تابعة للجمعية الدولية[3].

بعد مؤتمر بروكسل، تمكن ليوبولد الثاني من الظفر بخدمات المستكشف "ستانلي" من أجل تحقيق مبتغاه في إفريقيا، حيث وقَّع معه في نهاية سنة (1305هـ/1878م)، على عقدٍ مدته خمس سنوات[4].و يُعتبر "ستانلي" من أهم المستكشفين الذين عرفتهم إفريقيا الاستوائية، حيث استطاع اختراق إفريقيا انطلاقاً من الشرق حتى وصل إلى حوض نهر الكونغو غرباً حيث عبر هذا النهر إلى غاية مصبه في المحيط الأطلسي عام (1294هـ/1877م)[5]، و هذا معناه أن ستانلي كان كان يعرف جيداً حوض الكونغو.فقد تمكن هذا المستكشف من إقامة نظام مواصلات عملي براً وبحراً لصالح الملك، يبدأ من مصب نهر الكونغو حتى مسافة ألف وستمائة كيلومتر في الداخل سنة (1296هـ/1879م)[6].

و هكذا كانت نشاطات ستانلي في حوض الكونغو و الاتفاقيات التي عقدها مع الزعماء المحليين، قد كشفت عن الأطماع الاستعمارية للملك البلجيكي، الذي حوَّل الجمعية الدولية مع مرور الوقت إلى مشروع بلجيكي خالص[7].و برزت هذه الأطماع في الوقت الذي كان فيه الجو مشحوناً بين البلدان الأوربية و تضاربت المصالح الاستعمارية لهذه الدول، فقد تنافست بريطانيا و فرنسا على مصر و تونس، و بدأت تعلو الأصوات الداعية للتوسع الاستعماري في ألمانيا بعد تحقيق الوحدة، و أقدمت البرتغال على ضم مناطق من موزمبيق مع مطلع عام (1297هـ/1880م)[8].لهذا فإن الكثير من المؤرخين يعتبرون أن ما قام به ليوبولد الثاني من تحويل الكونغو إلى شبه مستعمرة بلجيكية كان بمثابة الفتيل الذي أشعل لهيب التنافس الاستعماري في

---

[1] Ibid ,p.523
[2] Oliver, Roland and Fage, J.D: op.cit, p.160
[3] ظاهر جاسم محمد: **المرجع السابق**، ص106.
[4] Reader ,John: op.cit, p.527
[5] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.161
[6] Ibid, p.161
[7] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث و المعاصر**، ص47
[8] ظاهر جاسم محمد: **المرجع السابق**، ص98.

قارة إفريقيا، و كانت أولى نتائج هذا التنافس سقوط تونس تحت السيطرة الفرنسية سنة (1298هـ/1881م)، و سيطرة بريطانيا على مصر سنة (1299هـ/1882م).

و أمام تزايد التنافس الاستعماري حول إفريقيا، انعقد في الفترة الممتدة بين (1301-1302هـ/1884-1885م) مؤتمر برلين من أجل دراسة المشاكل التي خلَّفها التنافس بين القوى الاستعمارية الأوربية، و على رأسها مشكلة الكونغو. حضرت المؤتمر القوى الأوربية الكبرى، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكن كان التأثير الأكبر فيه لألمانيا، بريطانيا و فرنسا بالدرجة الأولى[1].و من القرارات الهامة التي خرج بها مؤتمر برلين، و الذي يعنينا في موضوعنا هذا، هو البُند الثاني في المشروع الذي أقرَّه يوم (13 ربيع الثاني 1302هـ/31 يناير1885م)، و جاء فيه بأنه لا يمكن لأي دولة إعلان الحماية على منطقة من إفريقيا إلا إذا كانت هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلي[2].لقد أجَّج هذا القرار الصراع الأوربي على إفريقيا، و أدخله في مرحلة خطيرة تكالبت فيها القوى الأوربية على هذه القارة من أجل الحصول على أكبر جزء منها، و إعلان الحماية عليه.و ما هي إلا سنوات قليلة من انعقاد مؤتمر برلين، و قبل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م) حتى خضعت أغلب الأراضي الإفريقية للاستعمار الأوربي بعدما كان ثمانون بالمائة (80%) منها خارج السيطرة الأوربية في عام (1297هـ/1880م)[3].

هكذا و بعد أن تتبعنا تطور الاهتمام الأوربي بأفريقيا عامة و منطقة غرب إفريقيا خاصة، و كيف توسعت الأطماع فيها و اشتدت، سنُلقي الآن نظرة على مراحل التغلغل الاستعماري بمنطقة غر ب إفريقيا عند الدول الأوربية الأربعة، التي استعمرت هذه المنطقة، و نعني بها فرنسا، ، بريطانيا، ألمانيا و البرتغال.

أولاً: فرنسا

إن دراسة الاستعمار الأوربي في غرب إفريقيا يبدأ قبل كل شيء بالاستعمار الفرنسي في المنطقة، و هذا بالنظر إلى المساحة الشاسعة التي سيطرت عليها فرنسا في المنطقة، و مدى التأثير الذي تركه الوجود الفرنسي في دول الغرب الإفريقي خاصة من الناحية الثقافية.

[1] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث و المعاصر**، ص55.

[2] المرجع نفسه، ص59

[3] ظاهر جاسم محمد: **المرجع السابق**، ص110

و الحقيقة أن علاقة فرنسا بغرب إفريقيا في البداية غلب عليها الطابع التجاري كما كان الشأن بالنسبة لبقية البلدان الأوربية الأخرى، و هي العلاقة التي نشأت منذ القرن السابع عشر الميلادي (17م) لما شيَّد الفرنسيون أول محطة تجارية لهم في السنغال و هي سان لويس، ثم تطوَّرت هذه العلاقة إلى علاقة سياسية تُوِّجَت بفرض الهيمنة الاستعمارية الفرنسية على المنطقة.

لقد عرف الاهتمام الفرنسي بغرب إفريقيا، خلال القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، تذبذباً حيث كان يتزايد تارة و يضعف تارة أخرى، و هذا تماشياً مع الواقع السياسي الفرنسي الداخلي، و علاقة فرنسا بالدول الأوربية .ففي مطلع هذا القرن أبدت فرنسا اهتماماً كبيراً بالقارة السمراء أملاً في الحصول على مستعمرات تصنع قوتها، و تعيدها إلى مصاف الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، بعد أن فقدت الكثير من أراضيها إثر هزيمة نابليون.لقد كانت فرنسا في هذه المرحلة في مؤخرة القوى الاستعمارية الأوربية، حيث كانت تمتلك الريونيون★ La Réunion، الغوادلوب★★ La Guadeloupe، المارتينيك★★★ La Martinique، غويانا الفرنسية★★★★ La Guyane française، بالإضافة إلى محطتين تجاريتين في إفريقيا هما سان لويس و غوري، و خمس محطات في الهند فقط[1]، و هذا ما دفعها إلى توجيه أطماعها نحو إفريقيا اختصاراً للوقت و المسافة بسبب القُرب الجغرافي لها، و استغلالاً للفرص الاقتصادية الهائلة التي قد توفرها للاقتصاد الفرنسي.

كانت البداية مع الجزائر عند احتلالها عام (1246هـ/1830م)، و هو الاحتلال الذي أعاد الأمل لدعاة التوسع الاستعماري في فرنسا، و أبعَدَ الاهتمام الفرنسي مؤقتاً عن بقية المناطق الإفريقية، و ذلك بسبب الانشغال بالتوسع في المستعمرة الجديدة و إحكام السيطرة عليها و القضاء على المقاومة الشعبية فيها، و كذلك بسبب المشاكل السياسية الداخلية التي كانت تعيشها فرنسا في عهد الملك شارل العاشر.غير أنَّ هذا الاهتمام بغرب إفريقيا ما لبث أن عاد بعد عقدين من الزمن تقريباً، عندما نشطت فكرة إنشاء الإمبراطورية الفرنسية مجدداً، و ذلك خلال فترة حكم نابليون الثالث (1264-1287هـ/1848-1870م)، و هي الفكرة التي لقيت ترحيباً

★ - جزيرة بالمحيط الهندي شرق جزيرة مدغشقر تابعة حالياً لفرنسا (GDEL, Tome 9, p.8947)

★★ - إقليم فرنسي يقع في جزر الأنتيل (Ibid, Tome 5, p.5014)

★★★ - إقليم فرنسي في جزر الأنتيل (Ibid, Tome 7, p.6714)

★★★★ - إقليم فرنسي في شمال أمريكا الجنوبية (Ibid, Tome 5, p.5071)

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.246

في الأوساط الفرنسية[1]، و كانت نتيجتها تحقيق انجازات مهمة في التوسع الفرنسي داخل أراضي السنغال.و بعد مؤتمر برلين (1301-1302هـ/1884-1885م)، بلغ الاهتمام الفرنسي بغرب إفريقيا أوجه، حيث تمكَّنت فرنسا من ضم أجزاءٍ واسعةٍ من المنطقة في زمن قصير جداً.

و الحقيقة أن تقدم فرنسا في غرب إفريقيا كان يسير بشكل بطيء حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (19م)[2]، ثم تسارعت وتيرته في النصف الثاني منه، و كان التقدم الفرنسي في هذه المنطقة يسير وفق سياسة تميَّزت بالحذر و الصبر[3]، لكنه كُلِّلَ في النهاية، ببناء إمبراطورية فرنسية في غرب إفريقيا بلغت مساحتها أربعة ملايين و ستمائة ألف كيلومتر مربع، أي سُدُس القارة الإفريقية[4]، و هي الإمبراطورية التي حملت مع نهاية ذلك القرن أسم "إفريقيا الغربية الفرنسية"[5]، و ضمَّت السنغال، موريتانيا، السودان الفرنسي (مالي)، غينيا كوناكري، كوت ديفوار، بنين، النيجر و بوركينافاسو[6].

و في معرض بحثنا هذا لن نتحدث عن الاستعمار الفرنسي لهذه الدول، كل على حدة، على اعتبار أن هذه الدول لم تنشأ إلا بعد دخول الفرنسيين إلى المنطقة، بل سنتحدث عن هذا الاستعمار في المناطق الجغرافية الكبرى بغرب إفريقيا، و هي سنغامبيا★ La Sénégambie، خليج غينيا و أخيراً حوض نهر النيجر.

أ- سنغامبيا: تعتبر هذه المنطقة أول منطقة وصل إليها الفرنسيون في غرب إفريقيا، و ذلك خلال القرن السابع عشر الميلادي (17م)، حيث أقاموا هناك أول محطة تجارية لهم سنة (1035هـ/1626م)[7]، و هي محطة "سان لويس" قرب مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي، و بعدها بثمانية عشر سنة انتزعوا جزيرة "غوري" من الهولنديين[8].و يعود الفضل في توطيد الوجود الفرنسي بساحل السنغال في البداية إلى "أندري بري André Bruë"، الذي عينته فرنسا ممثلاً لها بالمنطقة مرتين، الأولى سنة (1098هـ/1687م)، و الثانية سنة (1125هـ1714م).تمكن

---

[1] إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 61.

[2] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص271

[3] Sonolet, Louis: op.cit, p.2

[4] Ibid, p.1

[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.303

[6] إلهام محمد علي ذهني: **المرجع السابق**، ص 59.

★ - جزء من غرب إفريقيا و يضم السنغال و غامبيا (GDEL, Tome 9 ,p.9488)

[7] Sonolet, Louis: op.cit, p.2

[8] Cornevin, Robert: op.cit, p.346

"بري" من إنشاء عدة محطات تجارية على نهر السنغال، و أبرم اتفاقية مع أحد زعماء القبائل الكبرى في المنطقة، مما ساعد على ازدهار التجارة الفرنسية في تلك المنطقة[1]، و لذلك يُعتبر بري واضع أسس الإمبراطورية الفرنسية في غرب إفريقيا.و من أجل إدارة المراكز التجارية الفرنسية في السنغال، قامت فرنسا بإنشاء "شركة السنغال الملكية"، و كان مقرها في مدينة سان لويس[2].

و قد عرفت المحطات الفرنسية في غرب إفريقيا ازدهاراً كبيراً خاصة سان لويس، التي أصبحت قاعدة الانطلاق للتوسع الفرنسي التجاري في البداية ثم أثناء التوسع الاستعماري بعد ذلك في منطقة غرب إفريقيا.و كانت هذه المحطات قد فقدتها فرنسا في الحروب النابليونية لصالح بريطانيا، لكن سرعان ما استعادتها بعد مؤتمر فيينا عام (1230هـ/1815م)[3]، ليعود النشاط التجاري الفرنسي إلى عهده السابق، لكن في المناطق الساحلية و القريبة من الساحل فقط.و تأخر توسع فرنسا في الداخل حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، أين جاءت شخصية فرنسية قوية كان لها الأثر البالغ في توسيع مستعمرة السنغال و تهيئة الوضع لاستعمار حوض النيجر، و هو الجنرال "لويس فيدهيرب"، الذي كان يحمل اسم "أب السنغال"[4].

عُيِّنَ فيدهيرب حاكماً للسنغال عام (1270هـ/1854م)، و هو يملك خبرة عسكرية و فهماً للمجتمع الإسلامي اكتسبهما من عمله في الجزائر[5]، في وقت أصبحت فيه فرنسا تطمح بشدة إلى التوسع إبان حُكم نابليون الثالث.و لتنفيذ هذا التوسع اجتمعت لجنة فرنسية خاصة بالمحطات و التجارة على سواحل إفريقيا في الفترة الممتدة بين (1266-1267هـ /1850-1851م)، من أجل البحث عن سياسة فعَّالة للتوسع التجاري، خاصة مع تزايد التهديد الإسلامي في المنطقة بقيادة الحاج عمر[6]، و مع مجيء فيدهيرب، بدأت سياسة التوسع هذه تؤتي ثمارها و ذلك بالاعتماد على تكثيف الرحلات الاستكشافية التي عرفت في عهده ازدهاراً كبيراً – كما سبق لنا و أن ذكرنا–، و توقيع معاهدات التجارة و الحماية مع الزعماء القبليين، و استخدام القوة العسكرية إن لزم الأمر لسحق أي تمرد أو مقاومة قامت ضد فرنسا.و قد استطاع فيدهيرب في ظرف أربعة سنوات من مجيئه، توسيع مساحة مستعمرة السنغال حتى بلغت ستمائة ألف

[1] Cornevin, Robert: op.cit, pp.348-349

[2] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص271

[3] المكان نفسه ، ص271

[4] Sonolet, Louis: op.cit, p.3

[5] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.129

[6] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.252

كيلومتر مربع بعدما كان يضم بعض المحطات عند مجيئه[1]، و قد جاء هذا التوسع عن طريق إعلان حرب شرسة على الزعماء المحليين، و تمكَّن من إيقاف زحف المقاوم الحاج عمر عند بلدة "مدينه Médine" سنة (1273هـ/1857م)[2]، و اجبر قبائل الترارزة و البراكنة المورية على توقيع معاهدات السلام سنة (1274هـ/1858م)[3]، و في سنة (1282هـ/1865م) ألحق منطقة "الكايور★ Le Cayor" إلى مستعمرة السنغال[4].

و إلى جانب الروح العسكرية العالية لهذا الحاكم الفرنسي، فقد أظهر كذلك حنكة سياسية و فهماً عميقاً لواقع مستعمرة السنغال ، حيث قام بفتح العديد من المدارس منها "مدرسة أبناء الزعماء" لتخريج مسؤولين من السكان المحليين للمشاركة مستقبلاً في تسيير شؤون المستعمرة[5]، و في سنة (1271هـ/1855م) أسَّس "بنك السنغال" و أنشأ مطبعة، و أطلق الجريدة الجريدة الرسمية لمستعمرة السنغال[6]، و حوَّل هذه المستعمرة إلى منتج كبير للفول السوداني المادة المهمة بالنسبة للاقتصاد الفرنسي[7].

عندما غادر الجنرال فيدهيرب بلاد السنغال التي قضَّى فيها مدة عشر سنوات، ترك وراءه قاعدة خلفية أمَّنت في ما بعد غزو السودان الغربي بالاعتماد على الجنود السنغاليين الذين انخرطوا في الجيش الفرنسي[8].و لما جاء عهد الجمهورية الثالثة سنة (1287هـ/1870م)، التي عرف التوسعُ التوسعُ في عهدها أزهى فتراته بغرب إفريقيا ، تواصلت عمليات التوسع الفرنسي في السنغال، حيث وُضِعَتْ منطقة "الجولوف★★ Le Djolof" تحت الحماية الفرنسية و ذلك بعد القضاء على مقاومة "أحمادو شيخو" سنة (1292هـ/1875م)، و تمَّت السيطرة على منطقة الكازامنس بعد تخلي البرتغاليين عن محطة "زيغينشور" في جنوب السنغال سنة (1303هـ/1886م)، و ما بين (1302-1309هـ/1885-1890م) تم تأمين منطقة "الباوول Le Baol" الواقعة شرق

---

[1] Cornevin, Robert: op.cit, p.512
[2] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.129
[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.256
★ – منطقة ساحلية ممتدة بين مدينتي دكار و سان-لويس بالسنغال (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.250)
[4] Cornevin, Robert: op.cit, p.513
[5] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.256
[6] Cornevin,Robert: op.cit, p.513
[7] Oliver, Roland and Fage, J.D.:op.cit, p.129
[8] Ibid, pp.129-130
★★ – منطقة في شمال السنغال (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.305)

دكار[1].و تماشياً مع هذا التوسع، كانت عمليات التهيئة و التنمية في السنغال تجري على قدم و ساق حيث مُدت الطرقات، و شُيدت خطوط التلغراف و أُنشأت السكك الحديدية التي بدأت بأول مشروع طموح لربط سان لويس بدكار سنة (1296هـ/1879م)[2].و بهذا أصبح السنغال مستعمرة آمنة بالنسبة للفرنسيين، و ازدهر اقتصادياً مما سهَّل فيما بعد عمليات غزو حوض نهر النيجر.

ب- خليج غينيا: بدأ الاهتمام الفرنسي بساحل غينيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (17م)، بعد إقامة المحطات الفرنسية على ساحل السنغال، و الرغبة في الوصول إلى أسواق العبيد بالمنطقة، و التي كانت تسيطر عليها هولندا خاصة.في عام (1098هـ/1687م)، أُرسِل "جرمان دوكاس Germain Ducasse" لإقامة محطات فرنسية بهذا الخليج، في الوقت الذي تزايد فيه الطلب على اليد العاملة الزنجية في أمريكا (المقصود أراضي الولايات المتحدة الأمريكية حاليا)، و نجح في إقامة أول محطة فرنسية بالخليج، و هي "أسيني Assinie" على ساحل كوت ديفوار، رغم الاعتراض الهولندي[3].

بعد ذلك، تعزز الوجود الفرنسي في المنطقة بالحصول على ميناء أخر هو "غراند بسام Grand Bassam ★"، و في القرن الثامن عشر الميلادي (18م) كان الوصول إلى "ويداه★★ Ouidah" في البنين، و في الفترة الممتدة بين (1273-1281هـ/1857-1864م) تمَّ احتلال "غراند بوبو Grand Popo"، "بورتو نوفو Porto Novo" و "كوتونو Cotonou" في البنين دائماً[4].

و لما جاء عهد العمليات العسكرية التوسعية بعد قيام الجمهورية الثالثة، استكمَلَت فرنسا السيطرة عل الأراضي الواقعة خلف محطاتها التجارية على ساحل غينيا.ففي كوت ديفوار، انطلق التحرك الفرنسي نحو الداخل من ميناء "غراند بسام" و كانت نتيجته تحقيق فرنسا لتوسع جعل نفوذها يصل إلى غاية حدود ليبيريا سنة (1308هـ/1891م)[5]، و تحقق ذلك بفضل العمليات

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.305
[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.305
[3] Cornevin, Robert: op.cit, p.347

★ - يقع على ساحل كوت ديفوار (حلمي محروس إسماعيل: المرجع السابق، ص 278)

★★ - ميناء في البنين على خليج غينيا (GDEL, Tome 7, p.7690)

[4] Sonolet, Louis: op.cit, p.4

[5] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص278.

اللامعة للضابط المستكشف مونتَيْ[1]. أما في الداهومي أو البنين حالياً، فقد أراد الفرنسيون التوسع خلف ميناء "بورتو نوفو"، لكنهم اصطدموا بمملكة الداهومي القوية التي كانت عاصمتها "أبومي Abomey" الواقعة على بُعد مائة و خمسة و أربعين كيلومتراً (145كم) من الساحل، فجهَّزت فرنسا حملة عسكرية قوية سنة (1311هـ/1893م) بقيادة الجنرال "دودس Dodds"، استطاعت هزم المملكة و إجبارها على الاستسلام دون شروط في (16رجب 1311هـ/25 يناير 1894م)، و إخضاعها للحكم الفرنسي[2].

و بذلك ضمنت فرنسا تواجداً على خليج غينيا، في البنين و كوت ديفوار، بعد منافسة شديدة من بريطانيا و ألمانيا، و هو ما زاد من أطماع فرنسا في ربط هذه المناطق مع أعالي النيجر و السنغال، و تأسيس الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية المنشودة بالمنطقة.

ج- حوض نهر النيجر: رأينا سابقاً بأن الوجود الأوربي و منه الفرنسي في غرب إفريقيا، اقتصر لعدة قرون على السواحل، لكن خلال القرن التاسع عشر الميلادي (19م) عندما ثبت الفرنسيون وجودهم في السنغال، وبعد تزايد المعرفة الأوربية بالداخل الإفريقي بفضل المستكشفين، فإن الفرنسيين أبدوا اهتماما واضحاً بحوض النيجر و ذلك لأهميته الاقتصادية و الرغبة في جعله حلقة وصل بين المستعمرتين الفرنسيتين الجزائر و السنغال.

لكن التقدم في حوض النيجر تأخر نهاية القرن بسبب وجود الحواجز الطبيعية و قسوة المناخ، و الانشغال بتأمين المناطق الساحلية، و شراسة المقاومة التي لقيَها الفرنسيون أثناء تقدمهم في الداخل خاصة من طرف القبائل المسلمة.وكان اهتمام فرنسا بهذه المنطقة مع منتصف القرن، أي مع مجيء حاكم السنغال فيدهيرب، و يبرز هذا الاهتمام لدى فيدهيرب من المقال الذي كتبه سنة (1280هـ/1863م)، و جاء فيه : (من أجل السيطرة على تجارة السودان و بالأخص القطن الذي يتوفر بكميات كبيرة، يجب السيطرة على أعالي النيجر و ربطها بالسنغال بين "مدينه" و "بماكو"، و ذلك بإقامة خط من المحطات التجارية)[3].و قد اعتمدت سياسة فيدهيرب اتجاه هذه المنطقة على محاولة التقرب من الزعماء و شيوخ القبائل من أجل عقد علاقات تجارية معهم،

---

[1] Sonolet, Louis: op.cit, p.5

[2] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص278.

[3] Mage, Eugéne: op.cit, p.1

خاصة الزعيم التكروري المسلم "أحمادو شيخو"، الذي حَمَل لواء المقاومة ضد الفرنسيين لعدة سنوات.

لقد ظل حوض النيجر مستعصياً على الفرنسيين، رغم بعض التقدم الذي حققه فيدهيرب، و هذا بسبب نقص الكفاءة و الحِنكة لدى خلفائه، و الأثر النفسي لهزيمة الجيش الفرنسي أمام نظيره الألماني.لكن التحرك الفرنسي نحو النيجر عاد من جديد لينشط، بعد تعيين الأميرال "جون برنار جوريغيبيبري★ Jean-Bernard Jauréguiberry" وزيراً للبحرية الفرنسية، و هو الذي شجّع سياسة التوسع نحو شرق السنغال إما باستعمال القوة أو عن طريق المفاوضات[1]، و قد رأينا في المبحث السابق مهمة الضابط المستكشف غالييني في هذا الإطار.

بدأت ثمار هذه السياسة مع استسلام "أحمادو شيخو" مؤقتاً سنة (1298هـ/1881م)، و توقيعه على معاهدة الحماية في مدينة "نانغو"، مما سمح لفرنسا بمد نفوذها إلى مجرى النيجر من منابعه حتى مدينة تمبكتو[2].بعد ذلك انفتحت الأبواب أمام الفرنسيين، حيث سيطروا على بماكو عام (1300هـ/1883م)[3]، و تمكن "غالييني "من القضاء على مقاومة "السراكولي Les Sarakolés"، الذين كانوا يُهدِّدون ممتلكات فرنسا في السنغال الأوسط و كان ذلك سنة (1305هـ/1887م)، و في (1307هـ/1890م) سيطر الفرنسيون على مدينة سيجو الواقعة على نهر النيجر و التي كانت عاصمة لإمبراطورية التكرور، مما مدَّ النفوذ الفرنسي إلى بلاد "الموسي" في قلب فولتا العليا[4] (بوركينا فاسو حالياً).بعد ذلك زحف الفرنسيون على طول نهر النيجر، فسيطروا على جني ثم تمبكتو التي سقطت تحت سيطرتهم نهائياً عام (1312هـ/1894م) بعد مقاومة شرسة من الطوارق[5]، و في عام (1316هـ/1898م) قضى الفرنسيون نهائياً على مقاومة "ساموري توري" فوصل نفوذهم إلى بوركينا فاسو و كوت ديفوار[6].عن طريق المعاهدات مع زعماء المناطق

★ -كان حاكماً للسنغال ابتداء من 1869م ثم أصبح وزيراً للبحرية مرتين في الفترة 1879-1880 ثم 1882-1883م (Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.306)

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.306

[2] Ibid, p.307

[3] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص276.

[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.312

[5] حلمي محروس إسماعيل: **المرجع السابق**، ص277.

[6] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.319

المحليين سيطرت فرنسا على مناطق أخرى أبرزها غينيا الفرنسية أو ما كان يسمى مستعمرة "أنهار الجنوب"[1].

و قبل أن نختم الكلام عن الاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا، لابد من التذكير بأن فرنسا في توسعها بالمنطقة استغلت كثيراً العداء الذي كان موجوداً بين التكرور المسلمين و البمبارا الوثنيين، حيث تحالفت مع الوثنيين من أجل القضاء على المقاومة الإسلامية بالمنطقة.

ثانياً: بريطانيا

يعود الوجود البريطاني في غرب إفريقيا إلى القرن السادس عشر الميلادي (16م) ، و هو وجود ساحلي بطبيعة الحال، ظلَّ يعتمد على تجارة الرقيق التي سيطر عليها البريطانيون خلال القرن الثامن عشر الميلادي (18م).و قد تركز هذا الوجود حتى منتصف القرن الموالي في مصب نهر غامبيا، و سواحل سيراليون ، ساحل الذهب (غانا) و نيجيريا حسب ما كانت تقتضيه المصالح التجارية البريطانية[2].و الملاحظ أنه حتى عام (1287هـ/1870م)، لم تُبْدِ بريطانياً اهتماماً كبيراً بالمناطق الداخلية لهذا الجزء من إفريقيا مثلما فعلت غريمتها فرنسا، و السبب يعود إلى أن دافعي الضرائب و السياسيين في بريطانيا كانوا يرون ضرورة إبقاء المستوطنات في غرب إفريقيا صغيرة قدر الإمكان، لأن النفقات عليها كانت أكثر من عائداتها، و هو ما كان يتناقض مع مطالب التجار البريطانيين الذين حثوا حكومتهم على بذل مزيد من الدعم لتوفير الحماية لهم و لنشاطاتهم حتى تزدهر[3].غير أن هذا الرأي سيتغير مع وصول "بنجامين ديزراييلي★ Benjamin Disraeli" إلى سُدة الحكم رئيساً للحكومة عام (1291هـ/1874م)، و تشجيعه لسياسة التوسع[4].

بالنسبة لساحل الذهب (أو غانا) فإن بريطانيا عزَّزت تواجدها فيها بعد أن اشترت المحطات التجارية الدنماركية هناك عام (1266هـ/1850م)، و بعد أن تنازل لها الهولنديون عن

---

[1] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, pp.312-313
[2] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.138
[3] Fage, J.D: A history of West Africa, Cambridge University Press, 4th Edition, 1969, p.132
★ - (1804-1881) سياسي و كاتب بريطاني، كان زعيماً للحزب المحافظ، و عرف بالدفاع عن مصالح بريطانيا في الخارج (GDEL, Tome 3, p.3297)
[4] Fage, J.D: op.cit, p.145

محطاتهم مقابل محطاتها في سومطرة خوفاً من تزايد تهديد الأشانتي لهم[1]، و كان ذلك عام (1289هـ/1872م)[2].إلا أنَّ هذا التواجد البريطاني لم يستطع الامتداد نحو الداخل في تلك الفترة، بسبب وقوف قبائل الأشانتي عائقاً أمامه، و لذلك قرَّرت بريطانيا اللجوء إلى الحل العسكري من أجل إخضاعها، و استطاع الجيش البريطاني هزم مملكة الأشانتي على ثلاث مراحل الأولى سنة (1291هـ/1874م)[3]، الثانية عام (1314هـ/1896م) و الثالثة عام (1318هـ/1900م)، ليتم إلحاق أراضي هذه المملكة إلى مستعمرة ساحل الذهب البريطانية[4]. و الملاحظ أن البريطانيين قد تمسكوا بساحل الذهب، بعد إزدهار تجارة زيت النخيل فيها[5].

أما في نيجيريا، فقد استولى البريطانيون على "لاغوس" عام (1267هـ/1851م) وحولوها بعد عشر سنوات إلى مستعمرة لهم[6]، و بفضل جهود التجار وصل النفوذ البريطاني إلى بلاد الهوسا[7] ، حيث تمكنت "الشركة الملكية للنيجر" البريطانية في ظرف سنوات من عقد أربعمائة أربعمائة اتفاقية مع الزعماء المحليين[8].و بعد توقيع معاهدة (1307هـ/1890م) التي أشرنا إليها سابقاً مع فرنسا، حصلت بريطانيا على حرية التصرف في نيجيريا[9]، و هو ما فتح الباب أمام بريطانيا لتوسيع نفوذها في الداخل ليشمل معظم بلاد اليوروبا مع حلول عام (1314هـ/1896م)[10].

و في سيراليون، أنشأت بريطانيا عام (1223هـ/1808م) قاعدة لمكافحة تجارة الرقيق، و حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م) بقيت هذه القاعدة صغيرة لا تتعدى مساحتها بضعة كيلومترات مربعة حول مدينة "فريتاون Freetown"[11]، التي أصبحت عام (1282هـ/1865م) مقراً للحاكم العام البريطاني لمستعمرات بريطانيا في خليج غينيا[12].و رغم

[1] Cornevin, Robert: op.cit, p.527-528
[2] Fage, J.D: op.cit, p.143
[3] Ibid, p.145
[4] Cornevin, Robert: op.cit, p.557
[5] Ibid, p.528
[6] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.137
[7] Fage, J.D: op.cit, p.169
[8] Cornevin, Robert: op.cit, p.556-557
[9] Ibid, p.557
[10] Fage, J.D: op.cit, p.171
[11] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.134
[12] Cornevin, Robert: op.cit, p.528

صِغر مساحتها، إلا أنها لعبت دوراً هاماً في تاريخ غرب إفريقيا[1] بفعل دورها في محاربة تجارة الرقيق الرقيق و استقبال المحررين من العبيد.

أما غامبيا فإن أول مركز تجاري بريطاني أُقيم فيها هو مركز "باترست Bathurst" الذي تأسَّس سنة (1232هـ/1817م)[2]، و كانت أهمية غامبيا تكمن في زراعة الفول السوداني.و كانت بريطانيا قد حاولت مقايضتها مع فرنسا مقابل مستعمرة فرنسية هي كوت ديفوار في البداية سنة (1283هـ/1866م) و بعدها الغابون سنة (1287هـ/1870م)[3]، لكن عملية المقايضة فشلت.و في سنة (1300هـ/1883م)، بسطت بريطانيا نفوذها على غامبيا[4]، و في 1305هـ/1888م أصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني[5].و يُلاحظ من خلال شكل هذه المستعمرة على الخريطة أنَّ التوغل البريطاني في هذه المستعمرة اقتصر على الأراضي المحاذية لنهر غامبيا فقط.

ثالثاً: ألمانيا

رغم الغياب السياسي لألمانيا في القارة الإفريقية، إلا أن الحضور الألماني غير الرسمي كان قوياً فيها بفضل الحضور القوي للمبشرين، و كثرة المستكشفين الألمان الذين كانوا يعملون لصالح دول أوربية أخرى، و الذين سطع نجمهم في مجال الكشوف الجغرافية و أصبحوا من أهم و أبرز مستكشفي إفريقيا على غرار بارث، فوجل، رولفس، ناختيغال، و غيرهم .و إذا كانت ألمانيا قد دخلت ميدان الاستعمار مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، فمن الطبيعي أن يكون نصيبها الاستعماري في القارة الإفريقية صغيراً، بما في ذلك غرب القارة، حيث كانت ألمانيا إلى غاية سنة (1301هـ/1884م) لا تملك أية مستعمرة في القارة الإفريقية[6]، و السبب في ذلك هو أن ألمانيا أكملت وحدتها السياسية قبل ذلك بقليل عام (1288هـ/1871م).

---

[1] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.134
[2] Cornevin, Robert: op.cit, p.526
[3] Ibid, p.557

[4] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ غرب إفريقيا الحديث و المعاصر**، ص157.

[5] عنايات الطحاوي: **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، المجلد الأول إفريقيا الإسلامية، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1969، ص 220.

[6] ظاهر جاسم محمد: **المرجع السابق**، ص108.

بعد تحقيق الوحدة السياسية و إلحاق الهزيمة بفرنسا، كان صانع الوحدة الألمانية المستشار بسمارك يعارض بشدة دخول بلاده حلبة التنافس الاستعماري الأوربي، و ذلك حفاظاً على الوحدة الفتية و المكانة التي بلغتها بلاده داخل القارة الأوربية[1]، كما أن الدخول في المغامرة الاستعمارية من شأنه – حسب رأيه – أن يشتت القوة الألمانية.غير أن هذا الموقف الذي تبنَّاه بسمارك لن يصمُد طويلاً بسبب الضغوط التي واجهها من رجال المال و الفكر و حتى رجال الدين، لتغيير رأيه و نظرته إلى قضية التوسع الاستعماري، فقد ظهرت في ألمانيا حركات كثيرة مُناصِرة للتوسع الاستعماري، و هي حركات كان يقود البعض منها مستكشفون ألمان بارزون، منهم "رولفس" الذي قال سنة (1294هـ/1877م): "أليس علينا أن نُدين أنفسنا على الوقوف بدون رد فعلٍ أمام التوسع الانجليزي في إفريقيا الوسطى؟"[2].و أبرز هذه الحركات "الجمعية الاستعمارية الألمانية Kolonialverein"، التي تأسست في (11 شوال 1299هـ/26 أوت 1882م)، و كان من بين مؤسِّسِيها المستكشف رولفس، و بلغ عدد أعضائها عشرة ألاف عضوٍ في سنة (1302هـ/1885م)[3]، و كانت جهودها منصبة على الدعوة لاقامة مستعمرات لألمانيا.كما أن التواجد المكثف لرجال الدين الألمان في إفريقيا، جعلهم يُدركون حاجة بلادهم إلى المستعمرات، خاصة أنهم كانوا شاهدين على صراع الدول الأوربية لتقسيم القارة السمراء، و هو ما دفع بعضهم إلى مطالبة بلدهم بالتحرك السريع من أجل ضمان حضور لها في هذه القارة.فها هو أحد رجال الدين الألمان "فابري Fabri"، ينشر مقالاً تحت عنوان"هل ألمانيا بحاجة إلى المستعمرات؟"، يقول فيه بأن المستعمرات هي ضرورة حيوية بالنسبة لألمانيا[4].

أمام هذه الضغوط الداخلية، و حاجة الاقتصاد الألماني إلى المواد الأولية و المنافذ التجارية، و عدم توفر الحماية الكافية للتجار الألمان في إفريقيا، و متطلبات الواقع السياسي في أوربا، لم يكن أمام بسمارك إلا التخلي عن موقفه الرافض لأي محاولة استعمارية ألمانية.لكن بسمارك عندما اقتنع بدخول بلاده إلى الحركة الاستعمارية، لم تكُن تهمه المصالح الاقتصادية لبلاده فقط، بل أراد كذلك إشغال فرنسا عن الاهتمام بالقضايا الأوربية و منها قضية إقليم "الألزاس و

---

[1] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث و المعاصر**، ص43

[2] Cornevin, Robert : op.cit, p.538

[3] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.497

[4] Ibid, p.496

اللورين" الذي انتزعته ألمانيا منها، و خلق واقع سياسي أوربي تكون فيه ألمانيا الحكَمَ بين فرنسا و بريطانيا بالشكل الذي يزيد من وزن ألمانيا على الصعيد الأوربي[1].

لكن عندما دخلت ألمانيا المغامرة الاستعمارية سنة (1301هـ/1884م)، كانت تنقصها الأداة التي صنعت قوة بريطانيا، فرنسا، البرتغال و حتى بلجيكا،و هي الخبرة البحرية[2]، أي أنَّ ألمانيا ليست دولة بتاريخ بحري عريق، ولم تمتلك من قبل أسطولاً بحرياً قوياً كالذي كان عند الدول المذكورة آنفا.و لهذا السبب ستعتمد ألمانيا في استعمارها للمناطق الإفريقية على التجار و المبشرين و المستكشفين في تحقيق أهدافها، خاصة أن هؤلاء كانوا يملكون ما هو ضروري من الخبرة و القدرة على تحقيق ذلك، و هذا ما سيحدث تماماً في الحصول على الطوغو، المستعمرة الألمانية الوحيدة في منطقة غرب إفريقيا.

كان التواجد الألماني في الطوغو يقتصر على نشاطات التجار الذين هيئوا الطريق للاستعمار الألماني[3]، و نشاطات المبشِّرين، الذين فاق عددهم مائة مبشر[4].و بفضل جهود هؤلاء التجار والمبشرين، أبدت ألمانيا اهتماماً باستعمار هذه البلاد، و لأجل ذلك كَلَّف المستشارُ الألماني بسمارك المستكشفَ ناختيغال بمهمة الذهاب إلى ساحل إفريقيا الغربية، و أعطاه كل الصلاحيات لعقد أكبر عدد ممكن من الاتفاقيات مع زعماء القبائل في المناطق التي كان بها تواجد ألماني تمهيداً للسيطرة الألمانية.و بفضل خبرة هذا المستكشف و تفانيه في خدمة مصالح بلده، فقد تمكن من وضع تلك المناطق تحت الحماية الألمانية، بعد أن وقَّع على عدة اتفاقيات مع زعماء "باغيدو Bagido"، "لومي Lomé" و "طوغو Togo" وكان ذلك في شهر (رمضان 1301هـ/جويلية 1884م)[5].

و لما انعقد مؤتمر برلين، حصلت ألمانيا على التأييد الأوربي في أطماعها ببلاد الطوغو.

رابعاً: البرتغال

رغم أن البرتغاليين كانوا أول من وصل إلى غرب إفريقيا عندما كانوا يتزعمون حركة الكشوف الجغرافية، و شيدوا على سواحل إفريقيا الغربية مراكز تجارية و أشهرها المينا، في غانا.غير

---

[1] Oliver, Roland and Fage, J.D. op.cit, p.161
[2] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.491
[3] شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: **تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر**، ص146
[4] Dumont, Jean (ed.) : op.cit, Tome5, p.492
[5] Ibid, p.500

أن البرتغال، بعد ضُعفه سياسياً و عسكرياً، كان قد فَقَدَ أغلبية ممتلكاته في تلك المنطقة لصالح هولندا، ولم يبق داخل السيطرة البرتغالية مع مجيء القرن التاسع عشر الميلادي (19م) إلاَّ جزر الرأس الخضر، التي اكتشفها البرتغاليون عام (860هـ/1456م)[1]، و غينيا البرتغالية المعروفة بـ"غينيا بيساو"، التي وصلوا إليها منذ القرن الخامس عشر الميلادي (15م) و حولوها إلى مستعمرة تابعة لهم عام (1297هـ/1879م) ثم اتفقوا مع الفرنسيين على تعيين حدودها مع غينيا الفرنسية عام (1303هـ/1886م)[2].

و هكذا استطاعت الدول الأوربية في فترة قصيرة قبل نهاية القرن التاسع عشر (19م) من فرض هيمنتها على كامل أراضي غرب إفريقيا، مستخدمة في ذلك أساليب عديدة و متنوعة ذكرناها في دراسة هذا المبحث.

المبحث الثالث : المستكشف بول صولييه Paul Soleillet نموذجا.

نقدم في هذا المبحث دراسة مركزة عن أحد أبرز المستكشفين الفرنسيين و الأوربيين الذين عرفتهم إفريقيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، و هو الفرنسي بول صولييه.و قد كان اختيارنا لهذا المستكشف بالذات قائم على عدة أسس: أولها هو تعدد الرحلات التي قام بها هذا المستكشف إلى إفريقيا، حيث جال فيها بين الغرب و الشرق، و هذا ما لا نجده عند اغلب المستكشفين الآخرين الذين درسناهم، و ثانيها هو أن هذا المستكشف ركَّز كثيراً على ضرورة الربط بين مستعمرتي فرنسا السنغال و الجزائر، و هنا وجدت نقطة تقاطع لموضوع بحثي مع تاريخ بلدي الجزائر، فأردت الإسهام و لو بنزر قليل في إلقاء الضوء على مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر الحديث.و أما الدافع الثالث –و هو مهم حسب رأيي– يتمثل في التأثير الذي تركه هذا المستكشف، الذي لم يعمر أكثر من نصف قرن، بأفكاره في بلده فرنسا، و عند النخبة الفرنسية، و هي الأفكار التي بدت في البداية على أنها ضرب من الخيال، لكن بعد إصرار لا ينضب عند هذا المستكشف،أصبحت محل الاهتمام و الدراسة.و يكفي هنا أن نذكر ما قاله "غابريال فردي[3] Gabriel Verdet" رئيس غرفة التجارة في مدينة "أفينيون Avignon"، عند

---

[1] محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: **المرجع السابق** ، ص 229.

[2] المرجع نفسه، ص ص263،262.

[3] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, Maurice Dreyfous, Paris,1881,p.XXVIII

افتتاح محاضرة كان سيلقيها صولييه: "بريطانيا لها ليفينغستون، أمريكا لها ستانلي، أما فرنسا فلها صولييه".

– **مولده ونشأته:** ولد بول صولييه في مدينة "نيم Nîmes" الفرنسية يوم (17 ربيع الأول 1258هـ/29 أبريل 1842م)[1]، من أبٍ اسمه "لويس ميشال" المولود بمرسيليا و المنتمي إلى عائلة كانت تحظى بمكانة راقية في تلك المدينة.أما أمه فاسمها "آن لويز بوايي Anne-Louise Boyer" التي تنتسب إلى أقدم العائلات في مدينة "نيم"[2].

نشأ صولييه في مدينة أفينيون Avignon حيث كان يعمل أبوه[3]، و فيها قضى سنوات الطفولة و المراهقة و الشباب، و تلقى تعليمه في مدرسة سان جوزيف بأفينيون على يد أساتذة موهوبين.و كان لوالده المتعلم و المثقف دور مؤثر في تعليمه و تربيته، حتى أصبح مثَله الأعلى في الحياة[4]. تزوج صولييه و هو شاب من ابنة أحد أصدقاء أبيه، لكن زوجته ماتت قبل مرور عام على زواجهما، و هذا ما تسبب له في اكتئاب شديد، لم ينجح في الخروج منه إلا بفضل وقوف عائلته إلى جانبه و مواساته[5].و كان صولييه قد أعاد الزواج من امرأة كان قد تعرف عليها لدى زيارته لتونس و أنجب منها طفلاً[6].

في سنة (1280هـ/1863م) انتقل إلى باريس للعمل في إحدى مصالح وزارة المالية الفرنسية[7]، لكنه سرعان ما استقال من عمله الذي رأى فيه تقييداً لشخصيته الميالة إلى الحرية و المبادرة، كما كان يشغله عن دراسته.و حرصاً على مستقبله جعله أبوه شريكا لأحد الصناعيين المختصين في صناعة القماش الشرقي، و هي الشراكة التي منحته الفرصة لزيارة إفريقيا، حيث زار الجزائر مرتين سنة (1282هـ/1865م) و سنة (1283هـ/1866م) ، كما زار تونس سنة

---

[1] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, Picard et Kaan, Maurice Dreyfous, Paris, 1888, p.7

[2] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.VIII

[3] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.7

[4] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.VIII

[5] Ibid, p.IX

[6] Ibid, p.XXV

[7] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.7

(1284هـ/1867م). غير أن شراكته فشلت بسبب جهله بالصناعة و عدم كفاءة شريكه، و فقدَ جزءاً هاماً من ثروته[1].

شارك صولييه كمتطوع في الحرب الألمانية الفرنسية سنة (1287هـ/1870م)، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا بحاجة إلى كل أبنائها بعد الهزائم المتكررة للجيش الفرنسي أمام الجيش الألماني، و اشترك في عدة معارك حتى حصل على رتبة عقيد، و رغم أنه لم يُصبْ في الحرب، إلا أن الإرهاق الذي لحق به و تأثره النفسي بالهزيمة القاسية، مثل كل الفرنسيين، تسبب له في مرض كاد أن يودي بحياته، لكنه استطاع بعد مدة طويلة من المعاناة من استعادة عافيته و صحته الطبيعية[2].

بعد حرب السبعين، تفرَّغ صولييه لهوايته المفضلة إليه منذ الطفولة، و هي السفر و الرحلات و حب الاستكشاف.فهو يقول بأنه كان ميالاً منذ الطفولة إلى الرحلات وأخبارها ، و كانت روايات الرحالة أمثال روني كاييه و مونجو بارك، تستحوذ على جزء كبير من اهتمامه[3].و منذ رحلاته الأولى إلى إفريقيا و زيارته للجزائر و تونس و طرابلس، انجذب صولييه إلى إفريقيا و أُعجب بها، و يؤكد بأن رحلته إلى إفريقيا سنة (1284هـ/1867م) أوقعت فكره أسيراً لفكرة واحدة هي محاولة ربط العلاقات التجارية بين إفريقيا و أوربا[4].

و هكذا كرَّس هذا المستكشف بقية حياته للاستكشاف في إفريقيا، خاصة في جزئها الغربي.بدأت رحلاته أولاً بزيارات متعددة إلى الجزائر قادته إلى واحة الأغواط بالجزائر، و مناطق ميزاب و الشعامبة، و واحة عين صالح التي كان أول أوربي يدخلها، و بعد ذلك زار مناطق عديدة من غرب إفريقيا، كما امتدت رحلاته إلى شرق القارة في منطقة القرن الإفريقي.

لقد تعلّم صولييه الكثير من رحلاته، و حصل على معارف جغرافية واسعة، دفعته إلى طرح مشاريع تجارية و استعمارية كان دائماً يقول بأنها ستعود بالفائدة الكبيرة على بلاده فرنسا و أوربا.و لم يتوان في التجول بين مختلف المدن الفرنسية شمالاً وجنوباً من أجل الترويج لأفكاره و مشاريعه، بل زار مدناً أوربية مثل بروكسل و أمستردام و برشلونة، و حرص على ربط علاقات مع الجغرافيين و المستكشفين و العلماء و حتى السياسيين.في سنة (1291هـ1874م)، شارك في

---

[1] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.XII
[2] Ibid, p.XIV
[3] Soleillet, Paul: L'Avenir de la France en Afrique, Challamel Ainé, Paris, 1876, p.III
[4] Ibid, p.III

المؤتمر الجغرافي الذي انعقد في باريس، و تعرف على عدة مستكشفين أجانب أبرزهم الألمانيان رولفس و ناختيغال، كما تعرَّف على الجغرافي الألماني الشهير "بيترمان"[1]، و في فرنسا كوَّن عدة صداقات، أبرزها الصداقة التي ربطته بالمهندس الفرنسي المشهور "فرديناند دوليسبس★ Ferdinand Delesseps" ، الذي آمن بفكرة صولييه الداعية إلى مد سكة حديدية بين الجزائر و السنغال مرورا بتمبكتو، كما تشرَّف باستقبال حار من طرف الملك البلجيكي "ليوبولد الثاني" المهتم بأخبار الاستكشاف و المستكشفين، و قال عنه هذا الملك بأنه رجل رائع[2].

لقد استطاع هذا المستكشف أن يترك بصماته في ميدان الاستكشاف، و أن يُظهر تفانياً مخلصاً في خدمة بلده الذي كان يرجو تحقيق الفائدة له، حيث كتب قبل رحلته إلى عين صالح، أي في بداية مسيرته الاستكشافية:" قضَّيت سبع سنوات من عمري، و أنفقت جزءاً من ثروتي لتحقيق فكرة واحدة، أنا لا أطلب شيئاً إلا أن تكون فكرتي مفيدة لبلدي"[3].

لقي صولييه في بلده فرنسا تكريماً و تشريفاً كبيرين خلَّدا اسمه في التاريخ الفرنسي و في فترة بلغ فيها بلدُه أوج توسعه الاستعماري.فعندما عاد من رحلته في إفريقيا الشرقية، حصل على عدة تشريفات تمثلت في الميداليات التي منحتها إياه الجمعيات الجغرافية الفرنسية في كل من في "روان Rouen"، "مارسيليا"، "ليون Lyon"، "ليل Lille" وغيرها، كما كرَّمته الحكومة الفرنسية، و إن متأخرة، بإعطائه "وسام شرف الدولة La croix de la Légion d'honneur" عام (1302هـ/1885م)[4].

توفي صولييه عن عمر يناهز الأربعة و الأربعين عاماً بسبب مرض في القلب كان قد ألمَّ به[5].

- **رحلاته إلى إفريقيا**:قام صولييه بعدة رحلات إلى إفريقيا كانت بدايتها من الصحراء الجزائرية، ثم انتقلت إلى غرب إفريقيا، و أنهاها برحلة إلى إفريقيا الشرقية.سنحاول في هذا الجزء إعطاء نبذة

---

[1] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.XXIII

★ - (1805-1894) دبلوماسي و رجل إداري فرنسي، كون الشركة العالمية لقناة السويس بتفويض من حاكم مصر سعيد باشا و افتتحها في 17 نوفمبر 1869م.حاول انجاز قناة مماثلة في بنما لكنه فشل (GDEL, Tome 6, p.6240)

[2] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, pp.XXIV-XXV

[3] Soleillet, Paul: L'avenir de la France en Afrique, p.VII

[4] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.242

[5] Ibid, p.243

مختصرة عن هذه الرحلات، من أجل تكوين فكرة شاملة حول رحلات هذا المستكشف و اهتماماته.

رحلته إلى الأغواط: أول رحلة استكشافية لصولييه قادته إلى واحة الأغواط الجزائرية.قادماً من الجزائر العاصمة، وصل صولييه واحة الأغواط يوم (27 رجب 1289هـ/30 سبتمبر 1872م)[1]، و قدَّم لها وصفاً دقيقاً، حيث تكلَّم عن القبائل المختلفة فيها و تعدد الزوجات و العادات الأخرى للسكان، و تحدث عن أنشطة سكانها كالتجارة و الحرف و الزراعة.و من الأغواط توجه إلى عين ماضي، و تحدَّث عن الطريقة التيجانية فيها، ثم توجه إلى إقليم بني ميزاب في مطلع سنة (1290هـ/1873م)، حيث قضَّى هناك شهراً و نصف تقريباً[2]، و فصَّل في التنظيم الاجتماعي و الديني الذي يُميِّز هذه المنطقة، و تكلَّم كذلك عن ممارسة السكان للتجارة.و أنهى رحلته هذه في بلاد الشعامبة، مقدِّماً كذلك بعض التفاصيل عنها، و بعد ذلك عاد إلى الجزائر العاصمة في (صفر 1290هـ/أبريل 1873م)[3].

رحلته إلى عين صالح: بعد عودته من رحلته إلى الأغواط و إقليم بني ميزاب، اقترح صولييه على غرفة التجارة بالجزائر مشروعاً للاستكشاف التجاري ينطلق من مدينة الجزائر العاصمة و يمتد إلى واحة عين صالح، و كانت فكرته هذه قد لقيت ترحيباً و صداً إعلامياً في فرنسا و الجزائر[4]. و تجدر الإشارة هنا إلى أن بول صولييه قبل ذهابه إلى عين صالح ،كان قد وعد غرفة التجارة بالجزائر بأن يعود من هذه الواحة و معه تجار من المنطقة حاملين معهم منتجات الصحراء و السودان، و خلق علاقات لهم مع التجار الفرنسيين، و هو الوعد الذي حقَّقُه، فكان دائماً يعتز و يفخر بهذا الانجاز[5].

بدأت رحلة بول صولييه من مدينة الجزائر متوجهاً إلى عين صالح يوم (6 ذي القعدة 1290هـ/27 ديسمبر 1873م)،[6]، في إطار مهمة كان هدفها – وفق المشروع الذي تقدَّم به – استكشاف الفرص التجارية في تلك الواحة و المناطق الصحراوية عموماً تحت إشراف غرفة التجارة

[1] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.16
[2] Ibid, p.44
[3] Ibid, p.54
[4] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, pp.9-10
[5] Ibid, p.10
[6] Soleillet, Paul: L’Avenir de la France en Afrique, p.VII

بالجزائر[1]، و في الطريق مرَّ بالجلفة ثم الأغواط ثم المنيعة التي وصلها في الشهر الثاني من العام الموالي[2]، و من المنيعة جهَّز بعثته التي سيتوجه بها إلى عين صالح التي وصلها في الشهر الموالي[3]، فكان أول أوربي يدخل هذه الواحة[4].

في كتابه "رحلة إلى الصحراء الوسطى"، تحدَّث صولييه عن عين صالح من حيث الموقع الجغرافي المتميز لهذه الواحة التي تقع في وسط الطرق التجارية، كما تحدث عن التنوع السكاني، و الزوايا الموجودة فيها.

رحلته إلى سيجو: بعد رحلته إلى الصحراء الجزائرية، بدأ صولييه بالتخطيط لرحلة أخرى، لكن هذه المرة بالتوغل في أعماق السودان الغربي عبر السنغال، و الوصول إلى نهر النيجر ثم تمبكتو و منها يعبر الصحراء الكبرى عائداً إلى فرنسا.و جاءت هذه الرغبة نتيجة للفكرة التي آمن بها و روج لها، و هي ربط الجزائر و السنغال تجارياً، عن طريق مدِّ سكة حديدية تمر بـ "تمبكتو".

غادر صولييه باريس قاصداً سان لويس من أجل ملاقاة الحاكم الفرنسي للسنغال آنذاك و هو "بريار دوليسل De l'Isle" حاملاً معه رسائل تزكية لرحلته و مشروعه.استقبله الحاكم كما يجب و قدم له المساعدة المطلوبة، فغادر سان لويس يوم (13 ربيع الثاني 1295هـ/ 17 ابريل 1878م)، و كانت تعليمات "دوليسل" له هي التوجه نحو مدينة "سيجو"، و إذا سمحت الظروف و الإمكانيات أن يُكمل مسيرته نحو تمبكتو و منها يعبر الصحراء[5]، و كذلك التعرف على الطرق التجارية بين الممتلكات الفرنسية على الساحل الغربي حتى نهر النيجر، و التدقيق في معرفة منتجات و مستهلكات السودان الغربي[6].

---

[1] Soleillet, Paul: Exploration du Sahara Central, rapport présenté à la Chambre de Commerce d'Alger, 1874, p.1
[2] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.74
[3] Ibid, p.131
[4] Ibid, p.XIV
[5] Soleillet, Paul: Voyage à Ségou 1878-1879, par Gabriel Gravier, Challamel ainé , Paris, 1887, p.25
[6] Ibid, p.VIII

وصل المستكشف الفرنسي إلى سيجو يوم (3 شوال 1295هـ/1 أكتوبر 1878م)[1]، دون حماية و لا مرافقة عسكرية عكس المستكشفين السابقين له، و هناك استُقبل بحفاوة كبيرة من طرف سلطانها أحمادو شيخو، و مكث هناك حوالي ثلاثة أشهر، قبل أن يقرر العودة إلى السنغال بعدما رفض سلطان سيجو السماح له بمواصلة سفره نحو تمبكتو مبرراً ذلك بخطورة الطريق إليها[2].

و رغم عدم اكتمال رحلته و الوصول إلى تمبكتو و عبور الصحراء، إلا أن هذه الرحلة كانت مثمرة بالنسبة لصولييه من الناحية الاستكشافية، حيث تعرف على غنى المناطق التي تجول فيها بالثروات الطبيعية مثل الذهب و الحديد، و الغابات الغنية بالأشجار و تنوع المحاصيل الزراعية و منها الأرز و القطن و التبغ.كما استنتج بأن قادة السودان، و خاصة سلطان سيجو أحمادو شيخو، مقتنعون بأن لا تقدم و لا تطور لبلادهم إلا بربط علاقات مع البِيض أي الأوربيين[3].

رحلته إلى إقليم أدرار★*:* تعتبر هذه الرحلة الرابعة في مشوار بول صولييه الاستكشافية، و هي رحلة قصيرة المدة، بدأها من سان لويس يوم23 صفر 1296هـ/16 فبراير 1879م، و انتهت بالوصول إلى إقليم أدرار، إذ نزل ضيفاً على شيخ موري بالمنطقة اسمه "سعد بو Saad Bou"، و كان ذلك يوم (21 ربيع الأول /15 مارس) من السنة نفسها[4].

رحلته إلى إفريقيا الشرقية (إثيوبيا): بعد هذه الرحلات الأربعة في الجزء الغربي من إفريقيا، أراد صولييه أن يغيِّر الأجواء قليلاً، عملاً بنصيحة صديقه "دوليسبس" الذي حثه على أخذ استراحة في ما يخص مشروعه الرامي إلى ربط بين الجزائر والسنغال بخط حديدي[5].

عندما كان "صولييه" دون عمل و أب لعائلة و يعيش في حالة اجتماعية متواضعة جداً، اضطُرَّ إلى توقيع عقد مع شركة فرنسية كان مقرها في "باريس"، هي "الشركة الفرنسية لأوبوك★★ Obock"، يوم (2 شعبان 1298هـ/30 جوان 1881م)، و حسب العقد فإن مهمته كانت

---

[1] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.125
[2] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, pp125-127
[3] Soleillet, Paul: Voyage à Ségou 1878-1879, pp.VIII-IX
★ – منطقة في الصحراء الموريتانية (GDEL, Tome1, p.124)
[4] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.133
[5] Ibid , p143
★★ – ميناء صغير في جيبوتي (GDEL, Tome 7, p.7516)

إقامة علاقات تجارية مع المناطق الساحلية و الداخلية في إفريقيا الشرقية على أن تكون له حصة في رأسمال هذه الشركة[1].

غادر المستكشف فرنسا في شهر (ذي الحجة 1298هـ/نوفمبر 1881م)، و وصل إلى "أوبوك" يوم (20 صفر 1299هـ/12 يناير 1882م)[2]، و استطاع أن يُقيم محطة تجارية للشركة في المنطقة بسرعة، و قال عن هذه المنطقة في رسالة بعث بها إلى فرنسا نهاية الشهر الذي وصل فيه:" أنا موجود في أوبوك منذ الثاني عشر من هذا الشهر، كل شيء على ما يرام، و أعتقد بأن هذا المكان سيكون مركزاً هاماً للتجارة الفرنسية "[3].

لكن صولييه اضطر إلى مغادرة تلك المنطقة بعد أن فسخت الشركة عقدها معه من طرف واحد، مبرِّرة ذلك بإعلان إفلاسها.

هذه هي مجموعة رحلات المستكشف صولييه، و سنتعرض لاحقاً إلى البعض من آثاره التي سجلها فيها.

– **مؤلفاته**: ترك المستكشف بول صولييه في حياته القصيرة عدة مؤلفات، حملت أخبار رحلاته إلى إفريقيا، و استعرضت أفكاره المختلفة المتعلقة بنظرته إلى إفريقيا عموماً من حيث السكان و عاداتهم، و الثروات، و فرص التجارة التي يمكن أن توفرها لبلده فرنسا و أوربا.و هذه المؤلفات هي :

1) – استكشاف الصحراء الوسطى Exploration du Sahara central الصادر في 1291هـ/1874م.

2) – مستقبل فرنسا في إفريقيا L'avenir de la France en Afrique في 1293هـ/1876م.

3) – إفريقيا الغربية L'Afrique occidentale في 1294هـ/1877م.

4) – تقرير حول رحلة من سان لويس إلى أدرار rapport sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar في 1296هـ/1879م.

[1] Soleillet, Paul: Lettre à Gabriel Gravier président honoraire de la société Normonde de Géographie à Rouen, de Royame de Choa, Ethiopie, 1 septembre 1883, p.3
[2] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.133 ,p147
[3] De Besancenet, Alfred de: op.cit, p.145

5) – استكشافات بول صوليبه Les explorations de Paul Soleillet في 1298هـ/1879م.

6) – رحلة إلى أثيوبيا Voyage en Ethiopie في 1303هـ/1885م.

7) – استكشاف في إثيوبيا Exploration en Ethiopie في 1304هـ/1886م.

8) – رحلة إلى سيجو Voyage à Ségou في 1304هـ/1887م.

هذا بالإضافة إلى عددٍ كبير من المذكرات و الكُتَيبات[1].

– **فكره الاستكشافي و الاستعماري:** سنحاول هنا استعراض بعض الخصائص التي تُميِّز هذا المستكشف في نظرته للاستكشاف، و إبراز فكره الاستعماري، و كيف سخَّر كل رحلاته الاستكشافية لتحقيق هدف واحد هو كيفية استفادة بلده فرنسا تجارياً من المناطق التي تجوَّل فيها.و قد تمكنا من استخلاص هذه الخصائص من خلال قراءة كتابين أساسيين من كتب المستشكف، الأول هو الأهم و يحمل عنوان "مستقبل فرنسا في إفريقيا"، و الثاني يحمل عنوان "رحلة إلى سيجو".كما اعتمدنا على ما كتبه "جول غرو Jules Gros"، سكرتير الجمعية الجغرافية التجارية بباريس، حول رحلات المستكشف و نظرياته في كتابين هما: "رحلات و اكتشافات بول صوليبه" و "بول صوليبه في إفريقيا".و هذه المميزات و النظريات هي:

أ)- كان في كل الرحلات التي قام بها، يتجول بدون مرافقة و لا فِرق من الجنود للحماية.فقد كان يتنقل مصطحباً معه مرافقاً واحداً أو اثنين لإرشاده في الطريق و مساعدته في حمل متاع السفر و تسيير الدواب كالحمير و البغال.و الواضح أن هذا الخيار كان مُفيداً له، و مكَّنه من دخول العديد من المناطق التي استعصت على سابقيه من الأوربيين.كما كان حريصاً على أن يبدو بسيطاً و طبيعياً و أن يُبعِد عنه كل صفة رسمية، و كان دائماً يقدم نفسه للناس و الزعماء على أنه يبحث عن فرصٍ لربط علاقات تجارية مع تجار المناطق التي يصل إليها.و في هذا الصدد، يقول:" في كل رحلاتي، استُقبِلت بحفاوة، و عِشت عيشة رغيدة، و يعود حظي هذا إلى أنني كنت أقدم نفسي وحيداً بدون عتاد ضخم، بدون اسم رسمي، بدون أسلحة، تماماً مثل زائر بسيط و صديق "[2].

[1] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.243
[2] Gros, Jules: Nos explorateurs en Afrique, p.41

ب)- كان صوليه حريصاً على جلب نماذج من المواد الأولية و المنتجات الهامة التي يتعرف عليها في رحلاته، من أجل عرضها على العلماء و الباحثين، و بالتالي إبراز كيفية الاستفادة منها اقتصادياً.لقد كان يرى بأن كل منطقة لها ثرواتها الخاصة بها و التي تسمح لها بالرخاء، فمن رحلته إلى سيجو جلب إلى أوربا شجرة الزبدة★ Arbre à beurre، و من رحلته إلى عين صالح جلب نترات البوتاسيوم، أما من الأدرار فقد أحضر معه نماذج من مطاط جديد[1]، على شكل سائل أبيض يشبه الحليب، تَبيَّن بعد تحليله علمياً أنه أحسن من كل أنواع المطاط التي كانت معروفة آنذاك[2].

ج)- اعتبر أعماله و رحلاته إسهاما في نشر الحضارة الفرنسية، فهو يقول[3]:" سعادتي و نسياني للمشاق و المخاطر التي واجهتها، تكون عندما أعلم بأن أعمالي قد ساهمت في توسع التجارة و الصناعة و الحضارة الفرنسية في إفريقيا".و قال كذلك بأن هدفه هو " غزو و فتح المناطق الواسعة المغلقة من إفريقيا الغربية، لإعطاء الشرف و الأفضلية لفرنسا من أجل فر ض سيطرتها الحضارية و التجارية على هذه القارة الكبيرة"[4].

د)- كان يُثني على الجنس الأسود في إفريقيا الغربية، حيث كان يرى بأنه جنس ذكي و محب للعمل، ففي نظره البمبارا مختصون في الزراعة، الفولبي في الرعي و السوننك ماهرون في التجارة[5].و ذهب أبعد من ذلك، إذ اعتبر هذا الجنس أحسن من الهنود الحمر و العرب، و قال بأن السود يحتاجون فقط إلى دفعة صغيرة حتى يصلوا إلى أعلى مستويات الحضارة[6].

هـ)- كان يعتبر التجارة أفضل وسيلة لغزو المناطق، و يعتبر بأنها أكثر فعالية من السلاح، و في هذا يقول:" لدينا وسيلة أقوى من السلاح لإيصال نفوذنا الحضاري إلى إفريقيا، إنها

★ - شجرة تُنتج زبدة نباتية، استخدمها الانجليز لمدة طويلة في تشحيم آلاتهم و كانت ذات أهمية كبيرة (Soleillet, Paul : Voyage à Ségou, p.IX)

[1] Gros, Jules: Nos explorateurs en Afrique, p.33
[2] Ibid, p.50
[3] Soleillet, Paul: Lettre à Gabriel Gravier, p.10
[4] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, p.XIV
[5] Soleillet, Paul: Voyage à Ségou, p.VI
[6] Gros, Jules: Les Voyages et Découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan, pp.38-39

التجارة"[1]، و يقول كذلك:" إن الغزو الحقيقي اليوم ليس هو الغزو العسكري، بل هو الغزو الصناعي و التجاري ، دوليسبس صنع المجد لبلده مثلما صنعه بونابرت"[2].

و)- من خلال رحلاته و جولاته، استطاع أن يصل إلى حقائق آمن بها، و دفعه بعضُها إلى طرح مشاريع عديدة، صبَّت كلها في خدمة المصالح التجارية لفرنسا، و رغم أن بعضها لم يصل إلى مرحلة التجسيد في النهاية، إلا أنها لقيت ترحيباً كبيراً في فرنسا شعبياً و رسمياً، و تشجيعاً من شخصيات مؤثرة و بارزة مثل مُشيِّد قناة السويس فرديناند دوليسبس، و "أب السنغال" فيدهيرب ومن هذه المشاريع:

1)-مشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء: كان صوليبه أول فرنسي يقترح إقامة خط سكك حديدية يربط بين مستعمرتي فرنسا، الجزائر في شمال إفريقيا و السنغال في غربها مروراً بتمبكتو[3]، و هو الخط الذي رأى بأنه سيوصل منتجات الصحراء و السودان إلى الموانئ الفرنسية على المحيط الأطلسي و البحر المتوسط، و سيربط بين أمريكا الجنوبية و حوض البحر المتوسط[4].و من أجل إقناع الرأي العام الفرنسي و الأوربي بفكرته هذه، شبَّه مشروعه هذا بالخط الحديدي في الولايات المتحدة الأمريكية الرابط بين نيويورك على المحيط الأطلسي و سكرامنتو على المحيط الهادي، و ما حقَّقه من هيمنة تجارية لهذا البلد في أسواق الشرق الأقصى[5].

إن فكرة الخط الحديدي العابر للصحراء التي طرحها المستكشف سنة (1292هـ/1875م)، بدت في البداية غريبة و خيالية، لكن مع مرور الزمن، و بسبب الحملة الترويجية التي قام بها صوليبه، أصبحت فكرة واقعية، و لقيت قبولاً في أوساط الشعب الفرنسي و نُخبته، و تبنَّتها الحكومة الفرنسية، التي بدأت في دراسة الوسائل الكفيلة بإنشائه. لكن هذا المشروع لم يرَ النور في النهاية بسبب العقبات السياسية و التقنية التي اعترضت انجازه.

2)-مشروع المدينة التجارية: بعد رحلته الاستكشافية الأولى، التي قادته إلى واحة الأغواط، اقترح صوليبه فكرة إقامة مدينة تجارية فرنسية في الجنوب، تكون سوقاً للمنتجات التي تأتي من الصحراء و السودان، و حلقة تربط بين التجار الفرنسيين و التجار الأفارقة عبرها.لقيت فكرته

---

[1] Soleillet, Paul: L’Avenir de la France en Afrique, p.2
[2] Soleillet, Paul: Voyage à Ségou, p.XV
[3] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.18
[4] Soleillet, Paul: Voyage à Ségou, p.XVI
[5] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique , p.19

هذه ترحيباً، إذ تمَّ إرساله إلى الجزائر من أجل دراستها و تنفيذها ، لكن الإدارة الاستعمارية هناك لم تتجاوب معه، فعدل عن فكرته[1].

3)-مشروع ربط نهري السنغال و النيجر: كغيره من الأوربيين، اقتنع صوليبه بأهمية نهر النيجر الذي يخترق بلاد السودان، و هي البلاد التي يعتبرها هذا المستكشف من أغنى مناطق العالم، لما تحتويه من منتجات هامة مثل العاج، ريش النعام، الأرز، الحبوب، التبغ، البن، الصمغ، الفواكه، العطور و غيرها[2]. فهو يدعو فرنسا إلى استغلال الظروف المناسبة لها للسيطرة على حوض النيجر، بسبب نفوذها القوي في حوض نهر السنغال الصالح للملاحة حتى بلدة "مدينه Médine" القريبة من نهر النيجر، و هي فرصة لا تتوفر للبريطانيين الذين لا يمكنهم الوصول إلى المنطقة إلا بالملاحة في نهر النيجر انطلاقاً من خليج غينيا، و هذا أمر صعب بسبب وجود شلالات "بوسا".

و لتحقيق هذه الهيمنة يقترح إقامة طريق برية، يرى بأنها لن تكون مُكلفة، تربط بين نهري السنغال و النيجر، و هي طريق اعتبرها المفتاح لفرض الهيمنة التجارية الفرنسية على كامل المنطقة الممتدة بين هذين النهرين[3].

4)-مشروع تعمير الصحراء بالعبيد: كان صوليبه، مثل أغلبية الأوربيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م)، من المعارضين لتجارة الرقيق و أنواع الذل و الاستعباد التي كان يتعرض لها العبيد في الأسواق و تنقلاتهم بين الأسواق المحلية و الخارجية.و من أجل القضاء على هذه التجارة، يقترح صوليبه:

أولاً: ضرورة توغل التجار الفرنسيين إلى أعماق غرب إفريقيا، لأن ذلك سيؤدي إلى ارتفاع أسعار المنتجات و البضائع، و بالتالي سيدفع ذلك مُلاَّك العبيد إلى الاحتفاظ بهم بدل التجول و التنقل بهم بين الأسواق لبيعهم مما سيخفف كثيراً من معاناتهم و آلامهم[4].

ثانياً: شراء العبيد و نقلهم إلى الصحراء من أجل تعميرها عن طريق زراعتها، و ذلك بتقديم المساعدات اللازمة لهم مثل أدوات الزراعة و بناء القرى و المدن لاستقبالهم، و نقل "الحضارة" إليهم، و بعد ذلك تُمنح لهم الحرية تماشياً مع التزامهم بالعمل.و بذلك تكون الفائدة على

[1] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, pp.8-9
[2] Gros, Jules: Nos explorateurs en Afrique, p.35
[3] Ibid, p.36
[4] Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, p.XIII

جهتين، من جهة تعمير الصحراء القاحلة و استغلالها، و من جهة ثانية المساهمة في القضاء على تجارة الرقيق[1].

هذه دراسة مركزة عن حياة بول صوليبه، أحد المستكشفين الذين قدّموا الكثير لبلدانهم و دفعوها إلى التحرك داخل الأراضي الداخلية لغرب إفريقيا، من أجل بسط الهيمنة التجارية و بالتالي السياسية عليها.

و خلاصة لهذا الفصل، يتضح لنا التطور الذي طرأ على عمليات الاستكشاف الجغرافي في غرب إفريقيا، حيث قدم المستكشفون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي (19م) خدمة كبيرة للاستعمار الأوربي في التغلغل بالمنطقة، و كانوا أحد عوامل نجاحه في تلك المهمة.

[1] Gros, Jules: Nos explorateurs en Afrique, p.38

بعد هذه الدراسة التي تتبعت فيها تطور الحركة الاستكشافية الأوربية في غرب إفريقيا، توصلت إلى العديد من النتائج المتعلقة بمدى مساهمة المستكشفين الأوربيين في سيطرة الاستعمار على المنطقة المدروسة.

إن الحركة الاستكشافية الجغرافية في أوربا، التي انطلقت في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، لم تكُنْ حالة منعزلة في أوربا، فقد جاءت ضمن سياق التحرك الذي كانت تشهده هذه القارة، و ذلك نتيجة النهضة التي كانت تشهدها هذه القارة، و هي النهضة التي أدت إلى تغيرات عميقة في أوربا على جميع المستويات السياسية، و العسكرية، و الاقتصادية، و الدينية و الفكرية، و بعد ذلك انعكست على علاقة أوربا بالعالم الخارجي.

لما بدأت الحركة الاستكشافية الأوربية في غرب إفريقيا في هذه الفترة، كان العِلم يحركها في بداية الأمر، حيث كانت هناك رغبة شديدة لدى الجامعات و الهيئات العلمية و نُخبة الجغرافيين في أوربا لمعرفة المزيد عن جغرافية مختلف المناطق في العالم، و ليس المنطقة التي تناولها البحث فقط، و كان هناك طموح كبير إلى معرفة كل ما هو جديد في ميدان المعرفة الجغرافية.و في هذا الإطار تسابق المستكشفون على تحقيق أول الاكتشافات الجغرافية أملاً في تسجيل أسمائهم في مجال البحث الجغرافي، و طمعاً في الحصول على جائزة مادية، حتى أننا لا نكاد نجد كتاباً من الكتب التي تناولت أدب الرحلات الاستكشافية خالٍ من عبارة "أول مَنْ" كإشارة إلى السبق الذي حققه ذلك المستكشف الناجح في نتائج معرفته عن القارة السمراء.

لكن هذه الحركة الاستكشافية التي عرفتها أوربا، تحولت أهدافها إلى أهداف أخرى.فالمستكشفين الذين انطلقوا لتحقيق السبق في مجال الاستكشاف، كانت تحذوهم الرغبة في أن تُسهِم رحلاتهم في تحقيق الفائدة المادية لبلدانهم، و كانوا في نفس الوقت يتلقون تعليمات من الجهات الداعمة لهم تحثهم على سبر الفرص التي قد توفرها المناطق المستكشَفة للاقتصاد الأوربي.و كثيرٌ هم المستكشفون الذين قيدتهم هذه التعليمات و حوَّلت رحلاتهم من رحلاتٍ علمية خالصة إلى رحلات ذات أهداف مادية استعمارية كذلك، و السبب هو أن هؤلاء المستكشفين لم تتوفر لهم إمكانيات الترحال فكان لزاماً عليهم الاستنجاد بهذه الجهات التي كانت توفِّر لهم الدعم الضروري لتحقيق رحلاتهم.

إن الذي حدث مع هؤلاء المستكشفين يشبه ما حدث مع نظرائهم الذين اكتشفوا لأول مرة سواحل غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي، فقد خرجوا للمغامرة و تحقيق المجد لأنفسهم و لبلدانهم و الوصول إلى توابل الهند، لكنهم جهلوا بأنهم سيكونون السبب في ظهور تجارة الرقيق التي عانت منها إفريقيا فترة طويلة من الزمن.كذلك فإن المستكشفين الذين تناولتهم هذه الدراسة، لم يتصوروا بأنهم سيساهمون في وقوع غرب إفريقيا تحت الاستعمار الأوربي بالشكل الذي تحقق في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (19م).

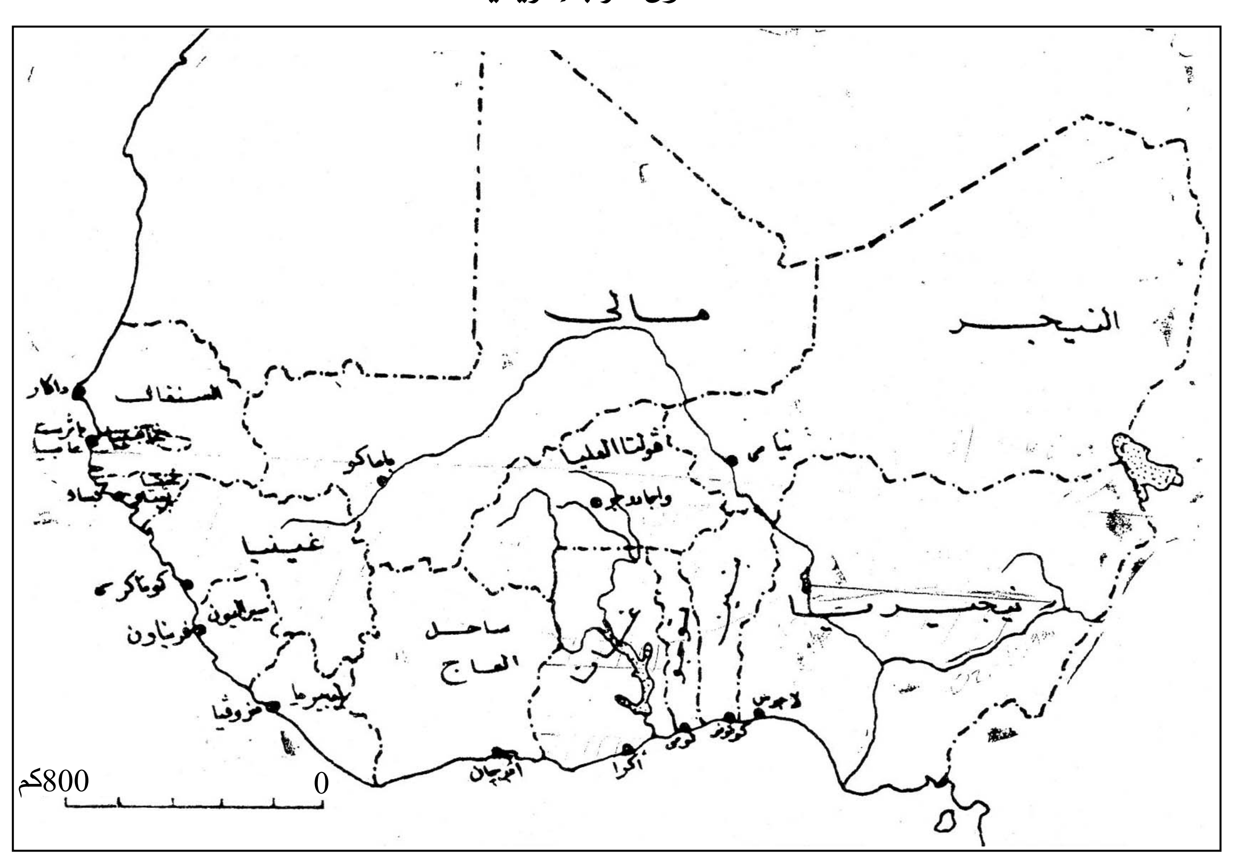
لقد حقَّق هؤلاء المستكشفين انجازات في مجال المعرفة الجغرافية حقاً، لكنهم اكتشفوا أيضاُ الثروات و المنتجات المختلفة، و أبرزوا أهميتها الاقتصادية، وهذا ما نبَّه رجال المال و الأعمال الأوربيين إلى منطقة غرب إفريقيا، فأرادوا الاستفادة منها، و لتحقيق ذلك مارسوا ضغوطاً على حكوماتهم من أجل تعبيد الطريق لهم في هذه المنطقة و السيطرة عليها.بل هناك من المستكشفين من دعى صراحة إلى التحرك بسرعة من أجل الاستفادة من هذه المنطقة الغنية، و ربط علاقات تجارية معها.

قدَّم المستكشفون الأوربيون خدمة كبيرة للاستعمار، حيث سهَّلوا عليه بصفة مُعتبرة مهمة التوغل في غرب إفريقيا، و ذلك بفضل المعلومات القيِّمة التي وفّروها للساسة و العسكريين حول تضاريس المنطقة و سكانها و وضعها السياسي، و منهم من قدَّم حتى إرشادات في كيفية التعامل مع هؤلاء السكان و حُكامهم.أما المستكشفين الذين جاءوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (19م)، فقد سخَّر أغلبهم رحلاته لخدمة سياسة بلدانهم الرامية إلى السيطرة على هذه المنطقة.

كل هذه النتائج تؤدي إلى القول أنه لا يُمكن فصل مسألة الاستعمار الأوربي لغرب إفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عن موجة الاستكشاف الجغرافي التي شهدتها هذه المنطقة طوال هذا القرن.لكن هذا لا يعني أبداً أن الحركة الاستكشافية هي من كانت السبب في استعمار هذه المنطقة، و إنما كانت من بين العوامل التي وجَّهت الأطماع الاستعمارية الأوربية إلى غرب إفريقيا، و مهَّدت لها الطريق.

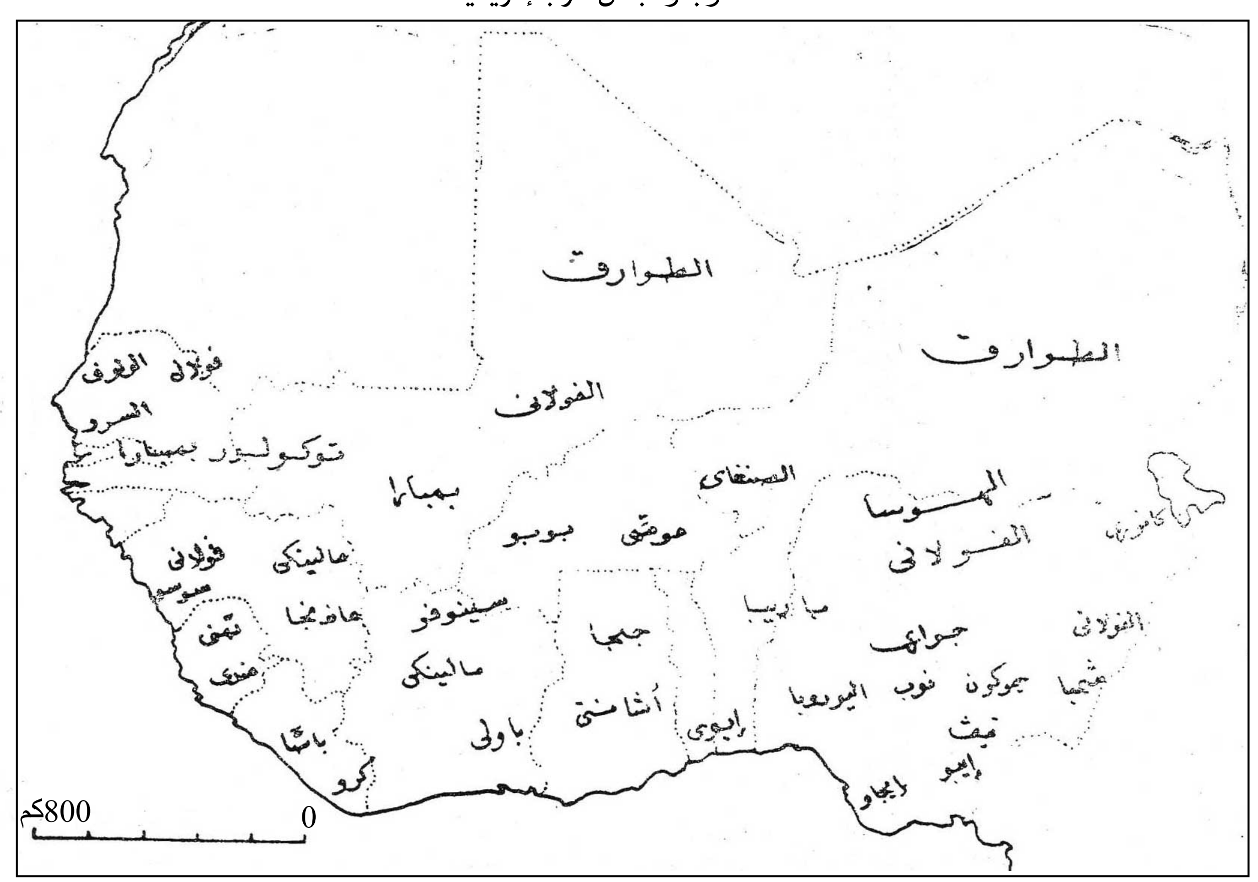
الملاحق

دول غرب إفريقيا



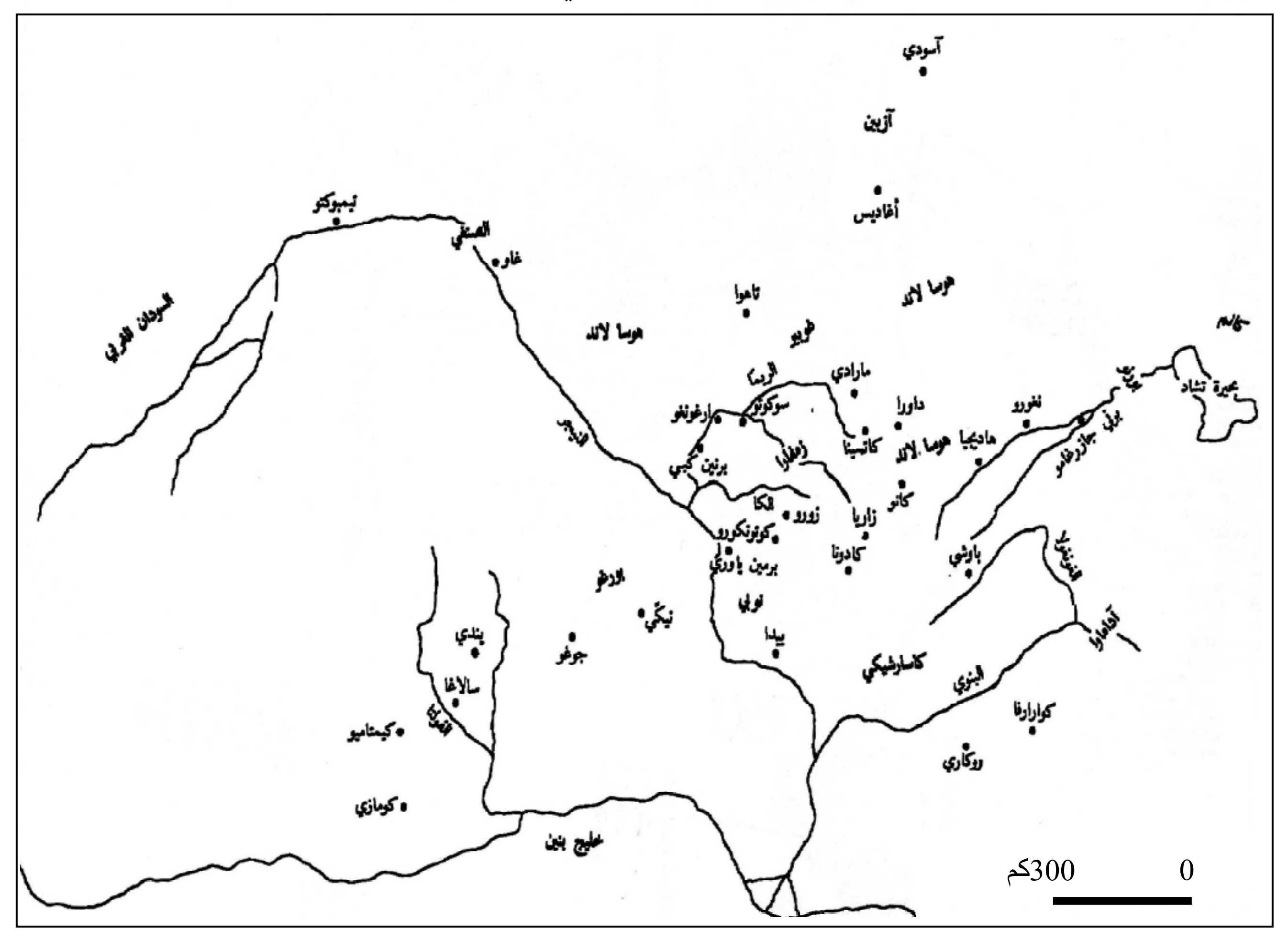
المرجع: فتحي محمد أبو عيانة: **جغرافية إفريقيا**، ص 219.

شعوب و قبائل غرب إفريقيا



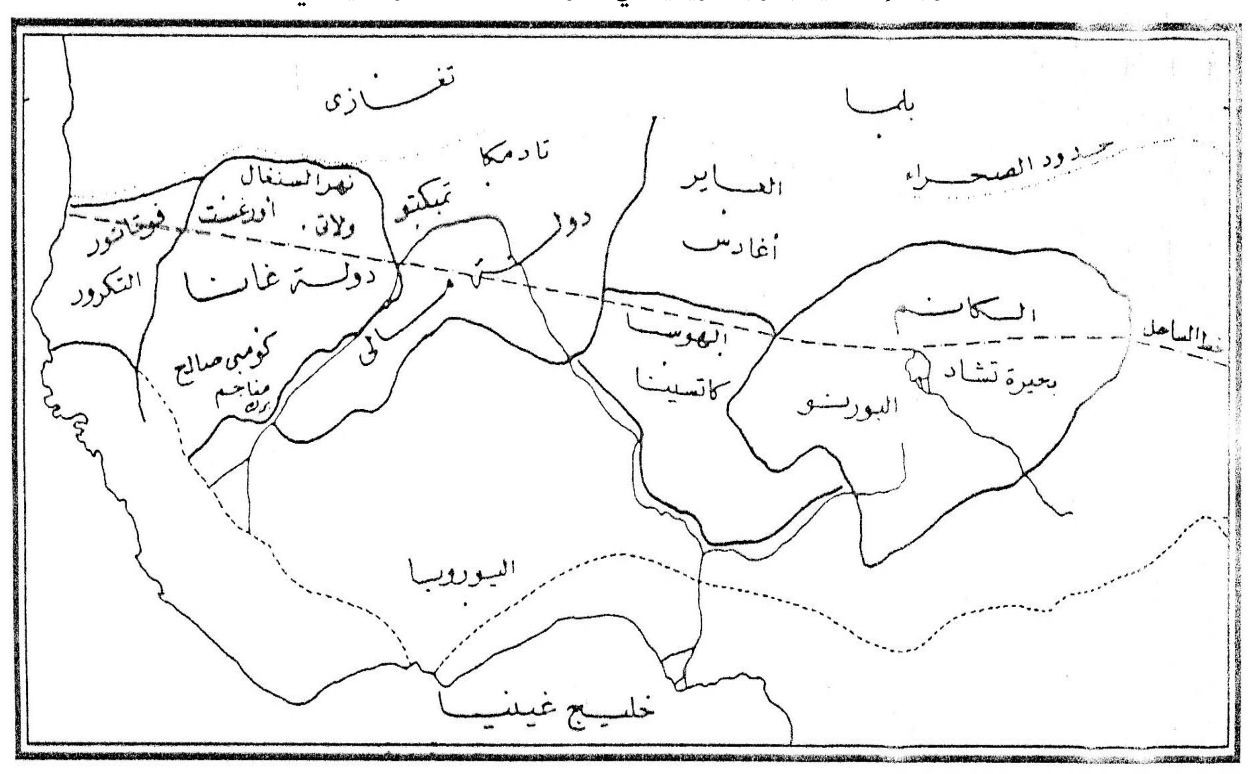
المرجع: فتحي محمد أبو عيانة: **جغرافية إفريقيا**، ص230.

الهاوسا و الشعوب الأخرى في شمال نيجيريا



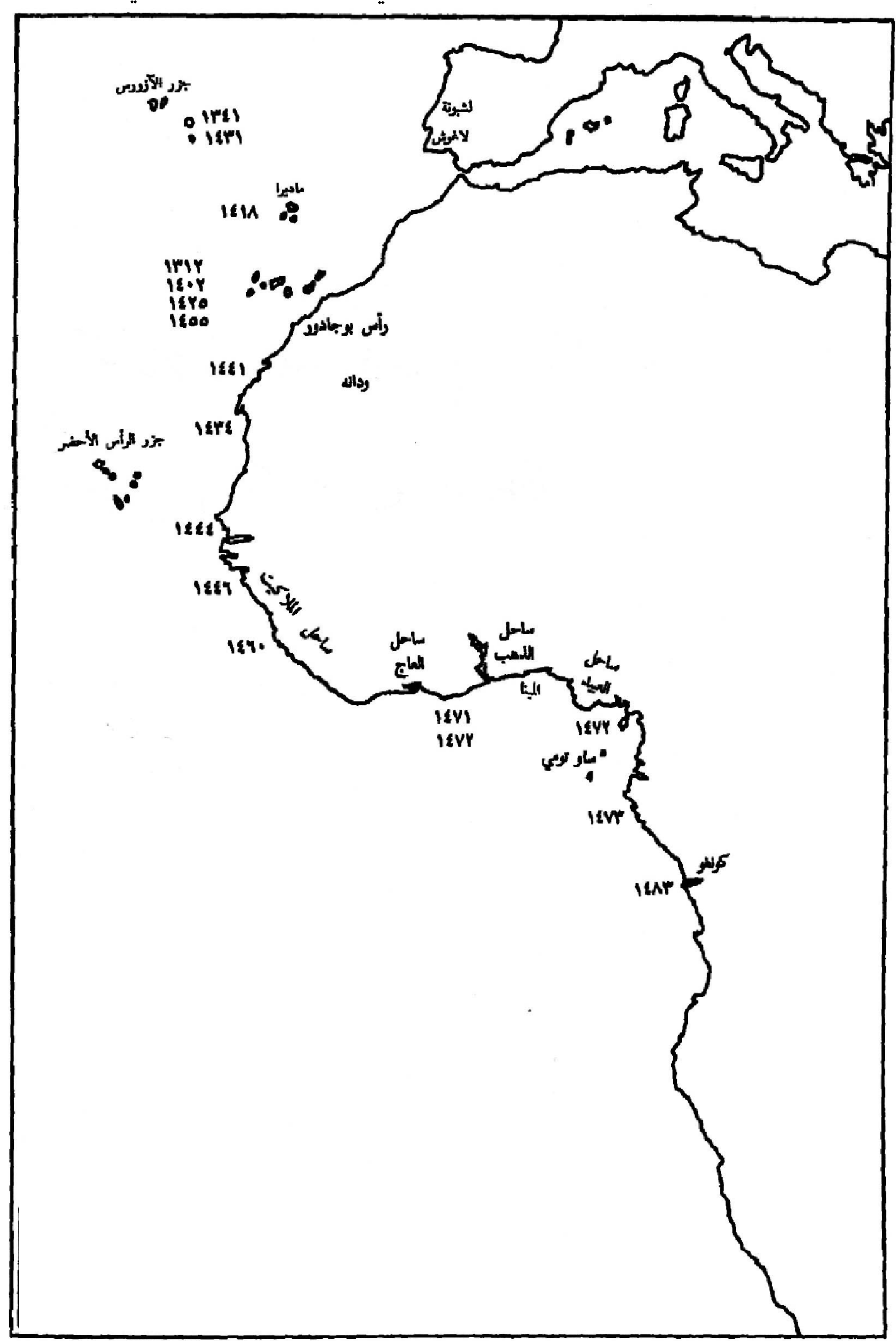
المرجع: اليونسكو: **تاريخ إفريقيا العام،** المجلد الرابع، ص291.

الدول الإسلامية بغرب إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي



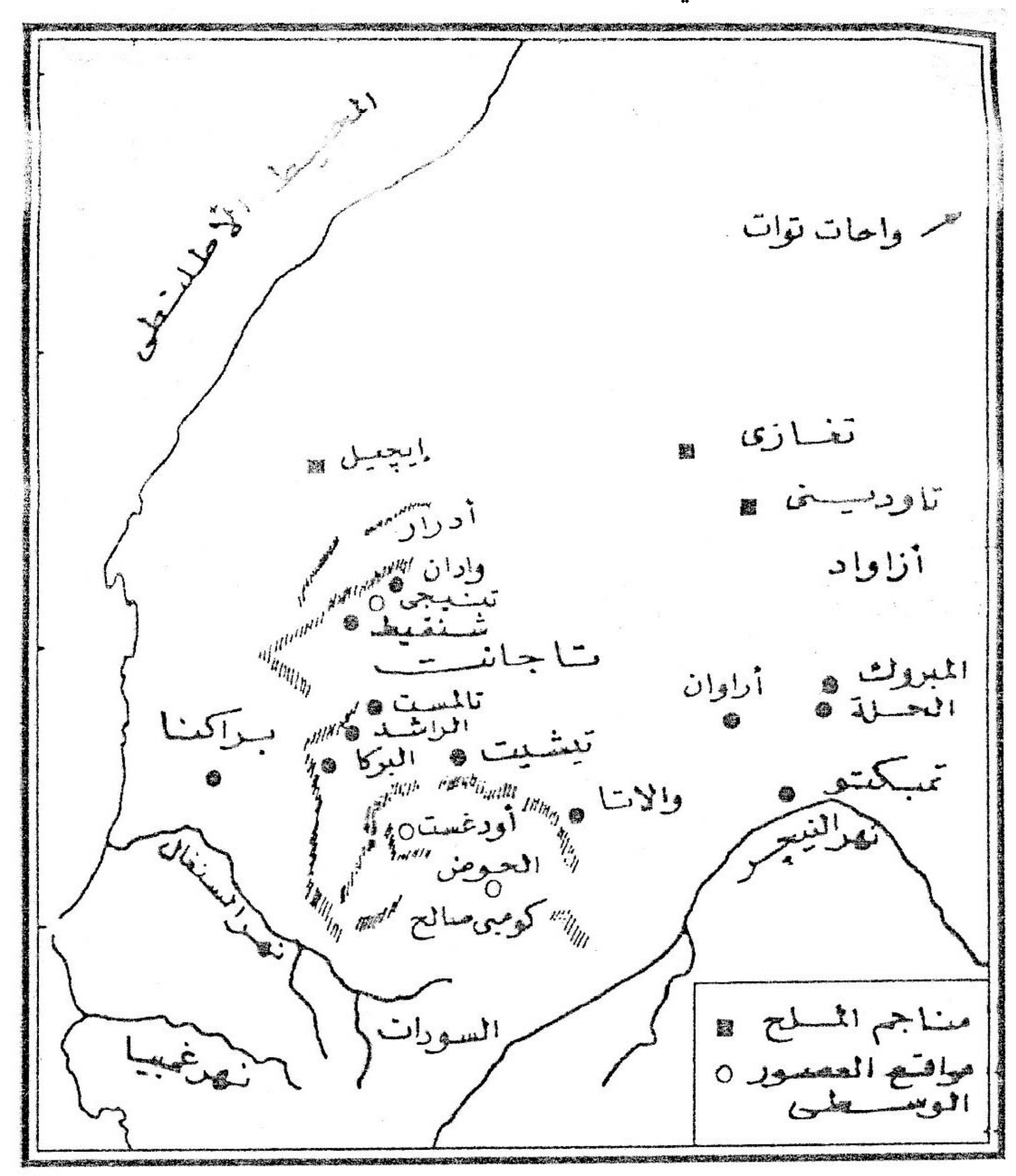
المرجع: محمود طه أبو العلا: **المسلمون في إفريقيا المدارية**، ص 28.

اكتشافات البرتغاليين على ساحل غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي



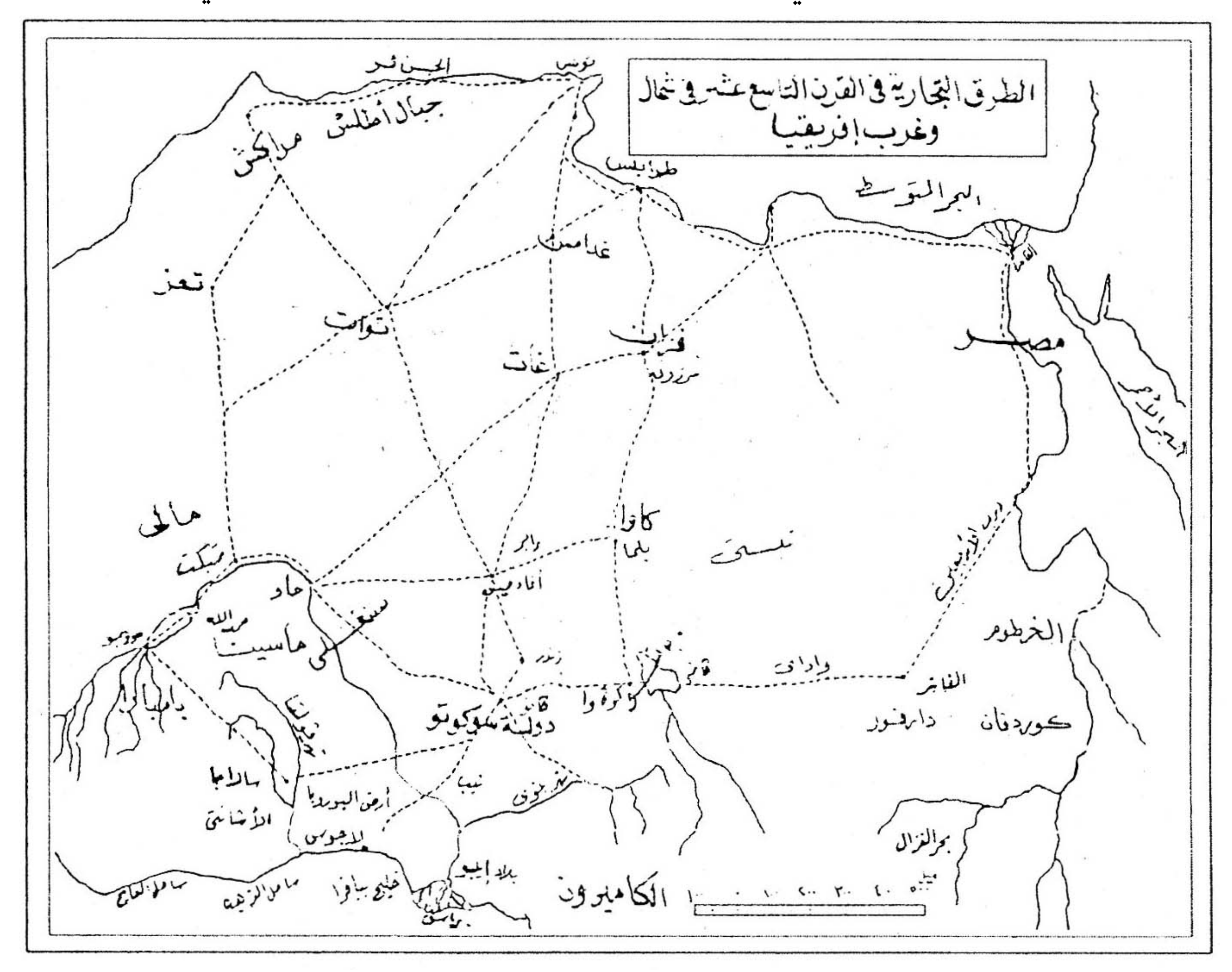
المرجع: اليونسكو: **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع، ص 662.

الصحراء الجنوبية في ما بين القرنين السابع عشر و الثامن عشر الميلاديين



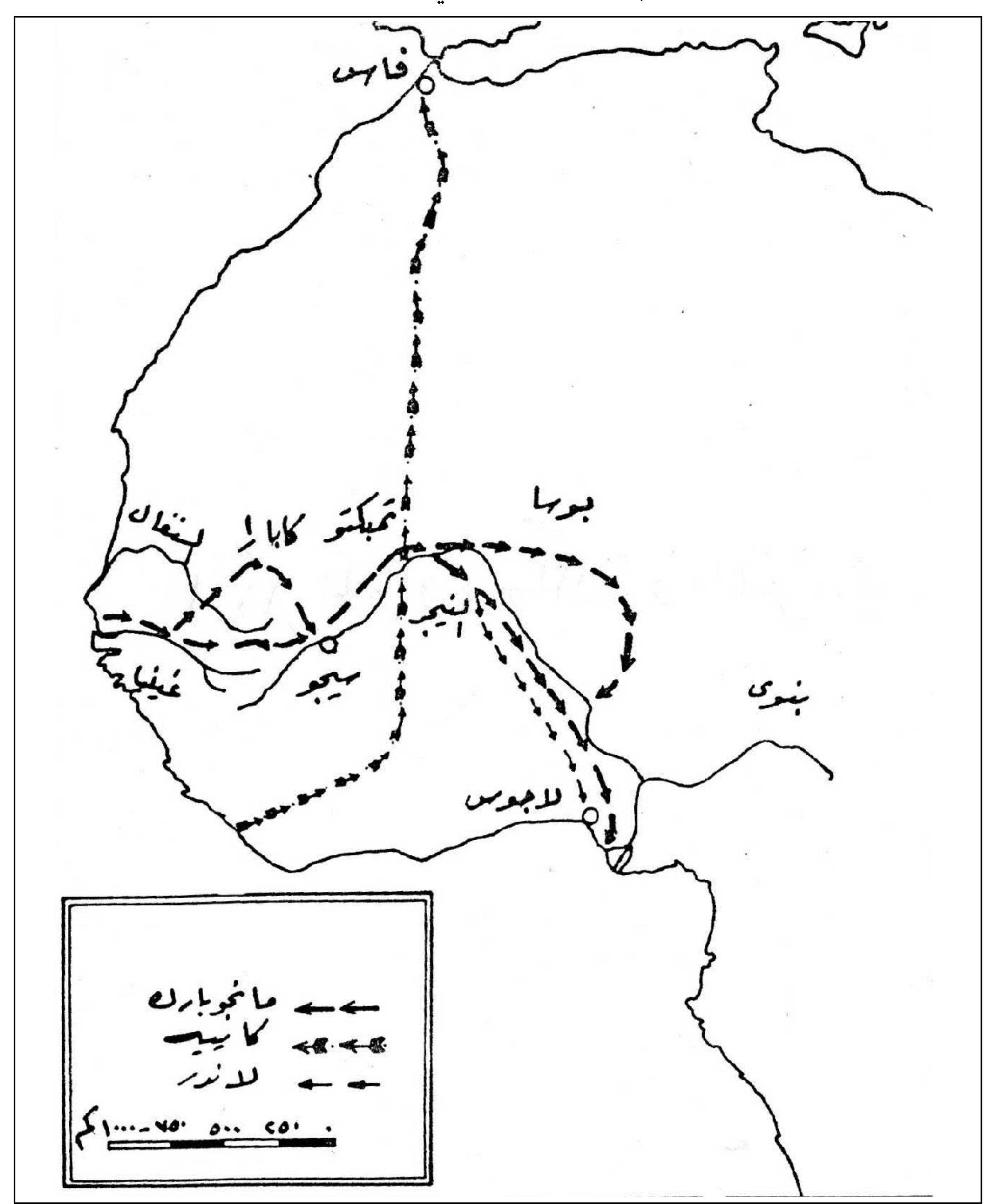
المرجع: محمود طه أبو العلا: **المسلمون في إفريقيا المدارية**، ص30.

الطرق التجارية في شمال و غرب إفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي



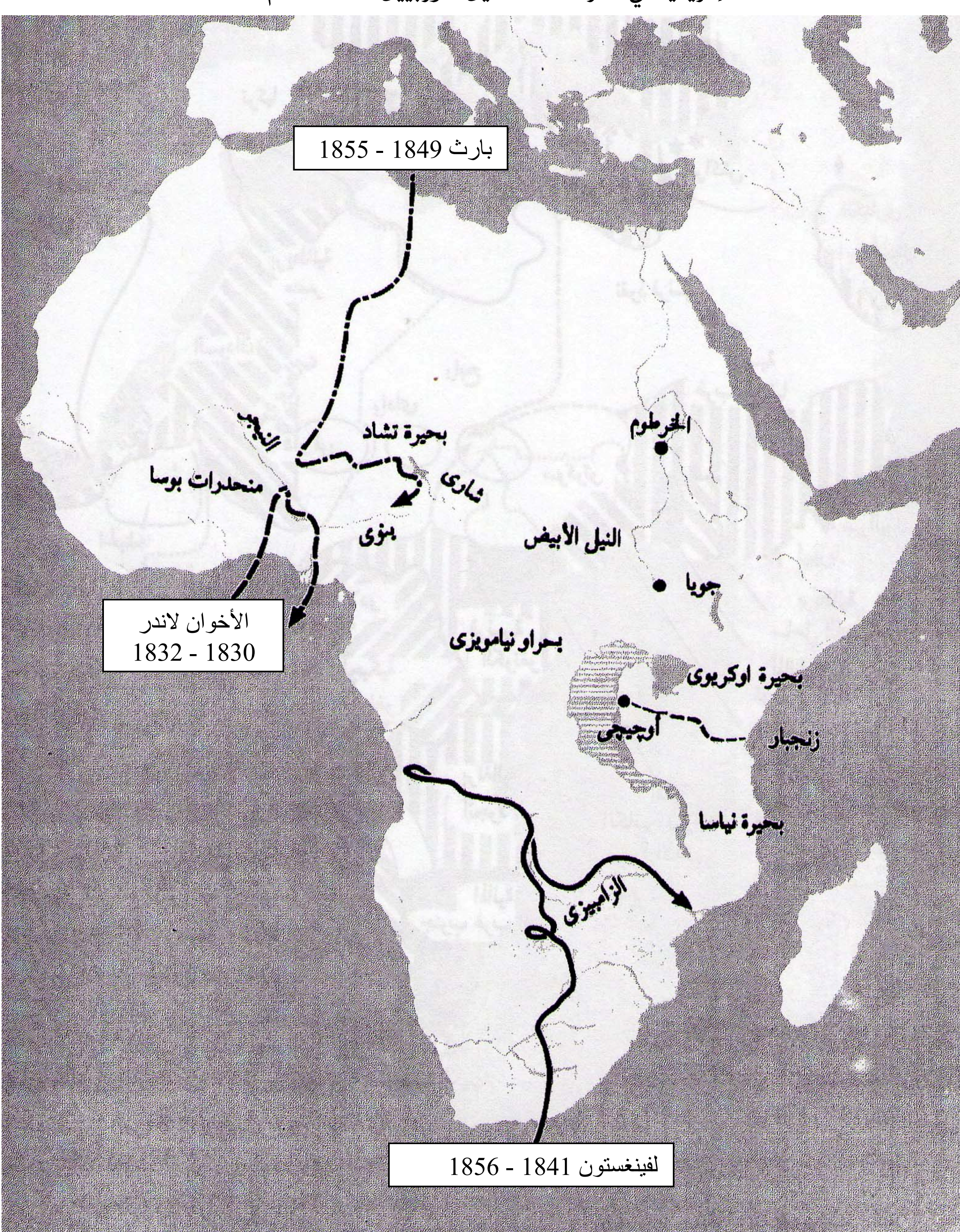
المرجع: المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ بالتعاون مع اليونسكو: **طريق القوافل،** ص78.

أهم رحلات المكتشفين في حوض النيجر



المرجع: عيسى علي إبراهيم: **الفكر الجغرافي و الكشوف الجغرافية**، ص209.

إفريقيا في نظر المستكشفين الأوربيين سنة 1856م

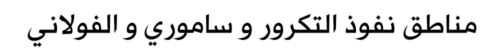


المرجع: كولين ماكيفيدي: **أطلس التاريخ الإفريقي،** ص174.

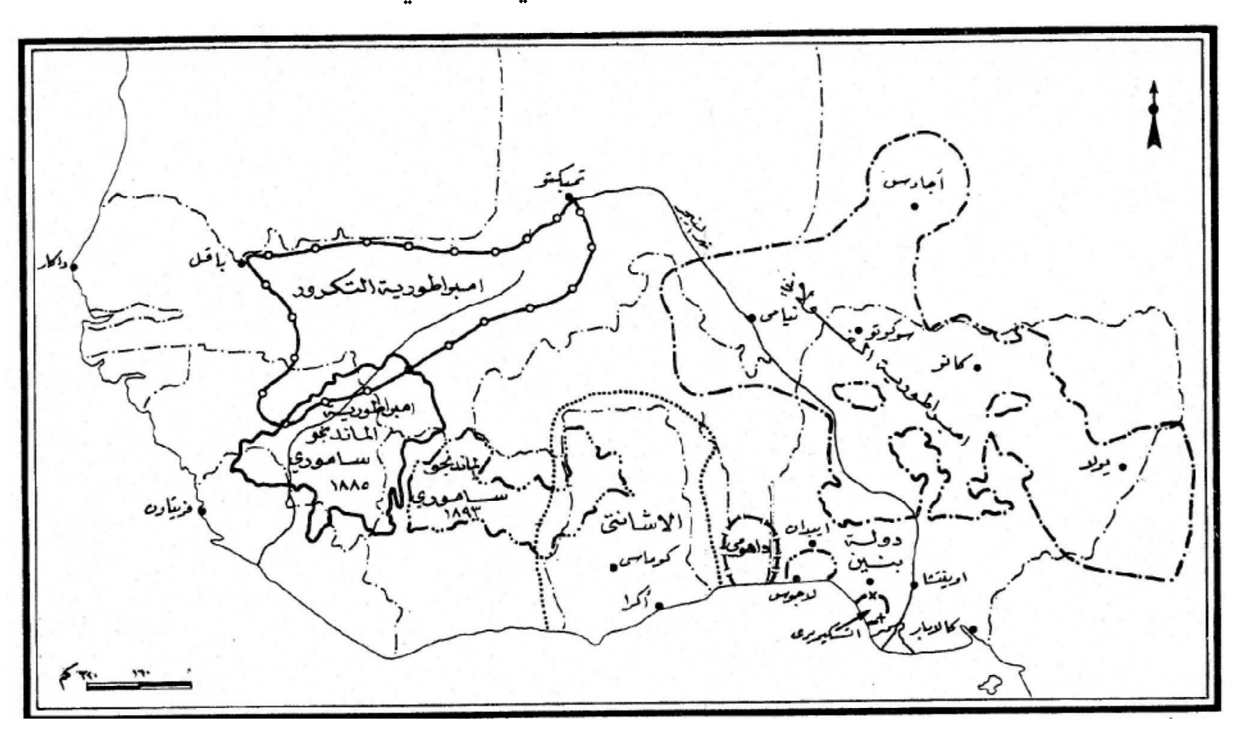
الدول الإسلامية بغرب إفريقيا في القرن التاسع عشر



المرجع: محمود طه أبو العلا: **المسلمون في إفريقيا المدارية**، ص 50.

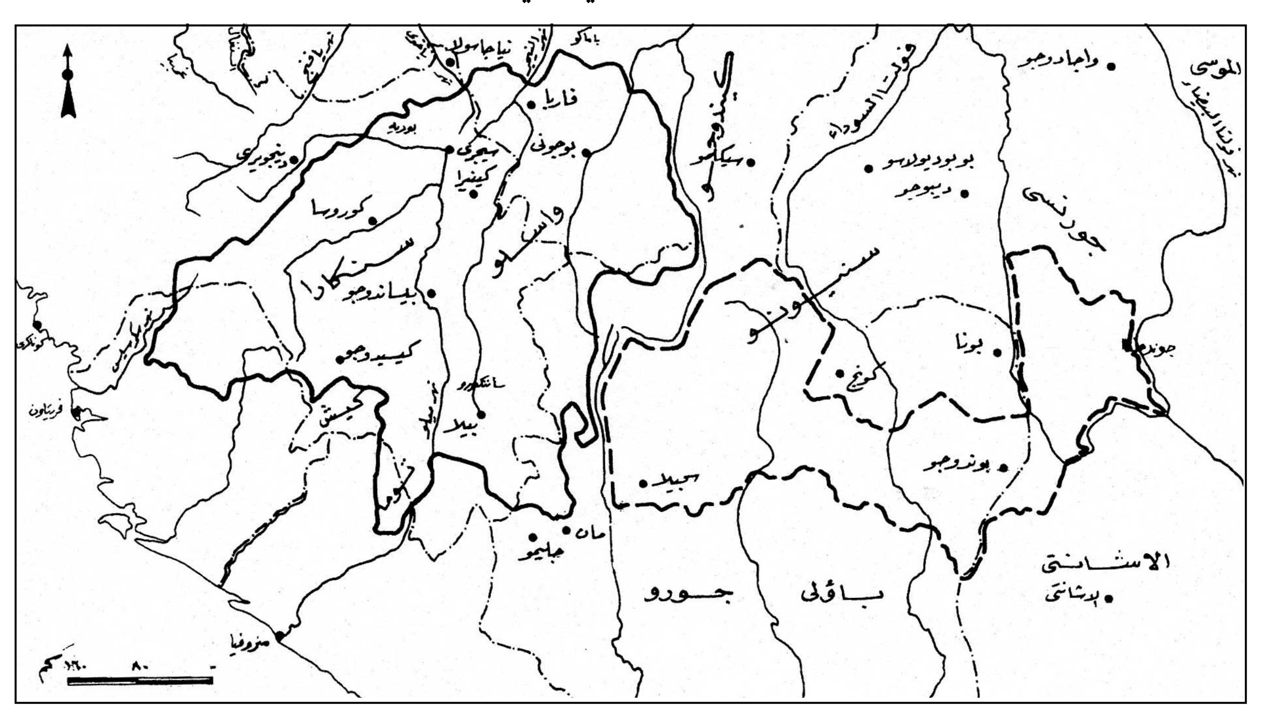


مناطق نفوذ التكرور و ساموري و الفولاني



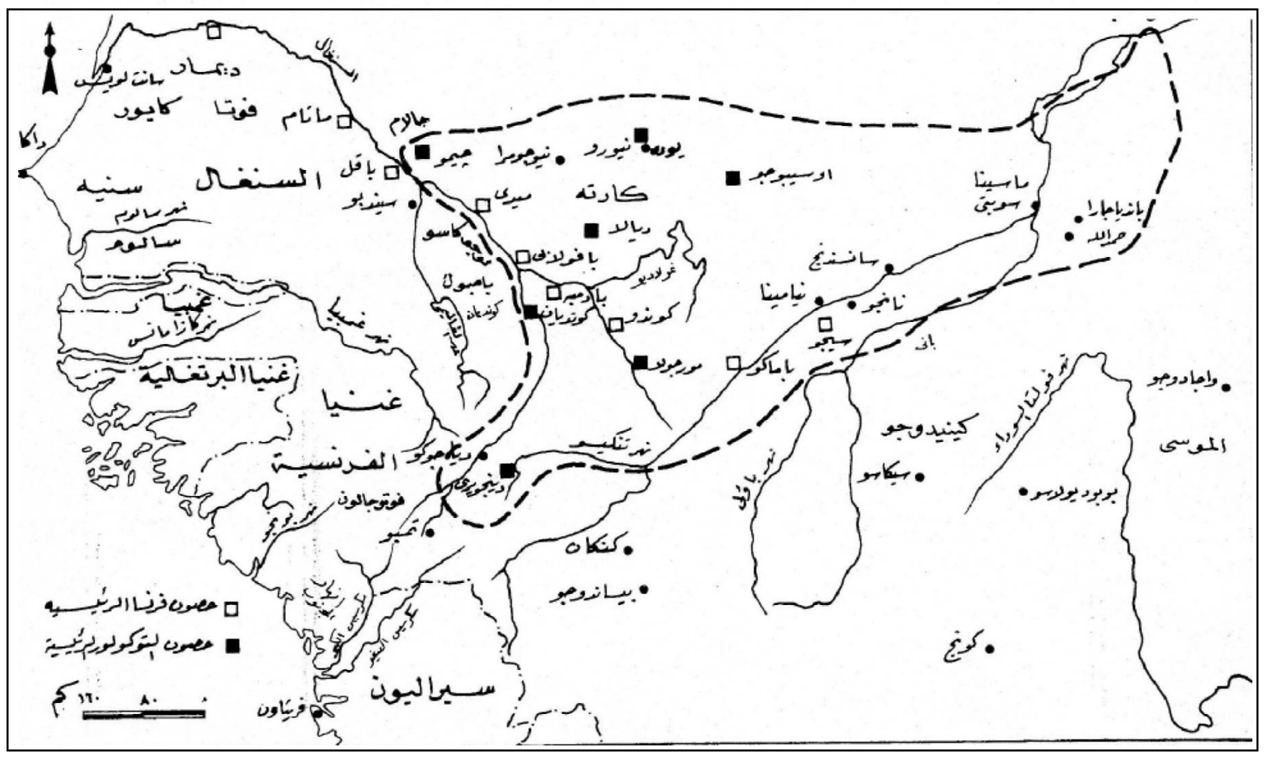
المرجع: إلهام محمد علي ذهني: **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914**، ص 232.

مناطق نفوذ ساموري توري



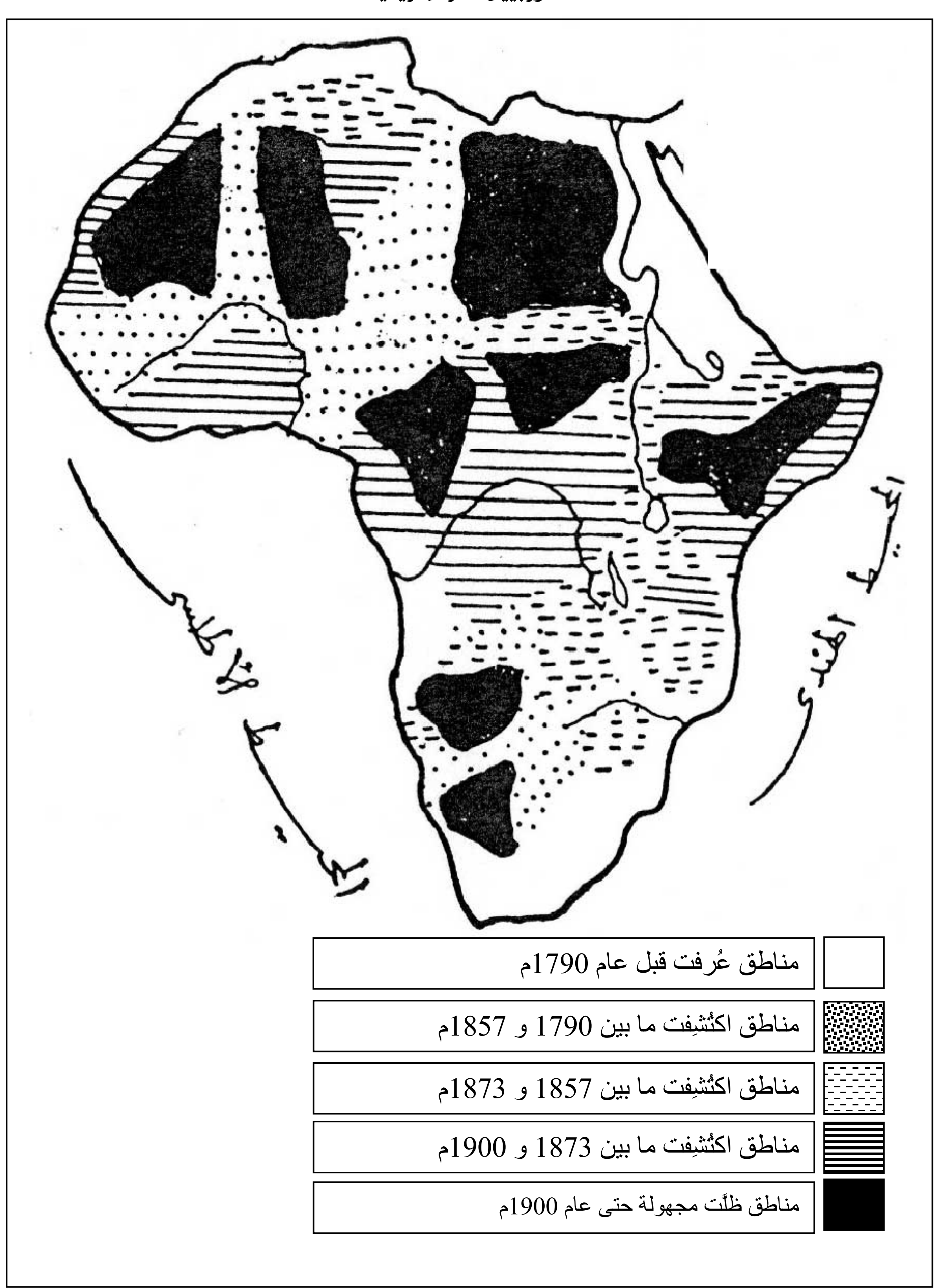
المرجع: إلهام محمد علي ذهني: **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914**، ص 235.

إمبراطورية التكرور في عهد أحمادو شيخو



المرجع: إلهام محمد علي ذهني: **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914**، ص 234.

كشف الأوربيين لقارة إفريقيا



المرجع: يسري عبد الرازق الجوهري: **الكشوف الجغرافية دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية و لتطور الفكر الجغرافي**، ص204.

إفريقيا سنة 1900م



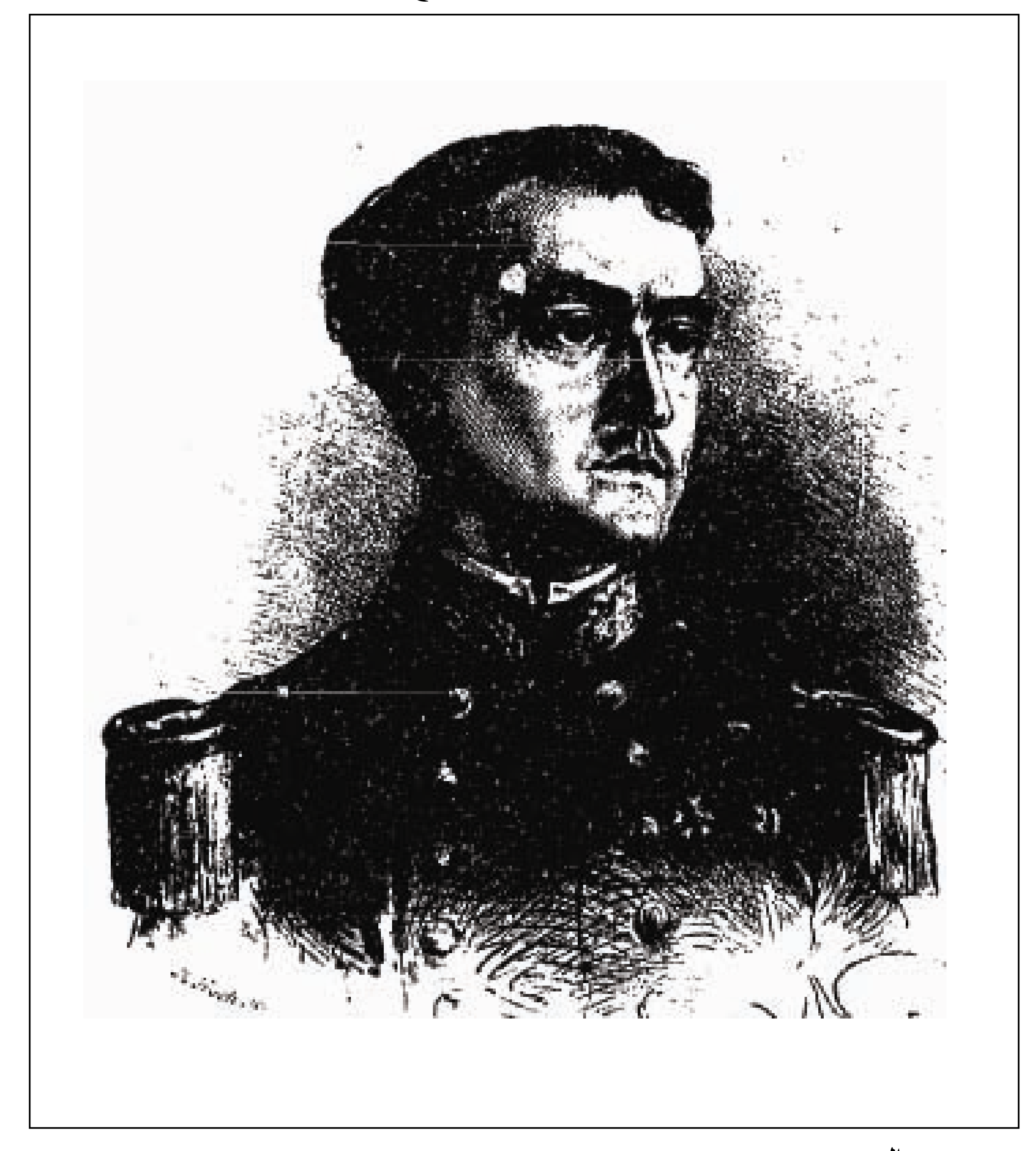
المرجع: كولين ماكيفيدي: **أطلس التاريخ الإفريقي،** ص195.

روني كاييه



المرجع: Caillié, René : Journal d'un voyage à Tomboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale.

أبدون- أوجين ماج



المرجع: Mage, Eugène : Voyage dans le Soudan occidental 1863-1866, p.112.

جوزيف- سيمون غالييني



المرجع: Gallieni, Joseph-Simon : Voyage au Soudan Français, p.7.

لويس غوستاف بانغر



المرجع: Binger, Louis Gustave : Du Niger au golfe de Guinée par le pays de Kong et le Mossi.

بول صولّيِّيْ



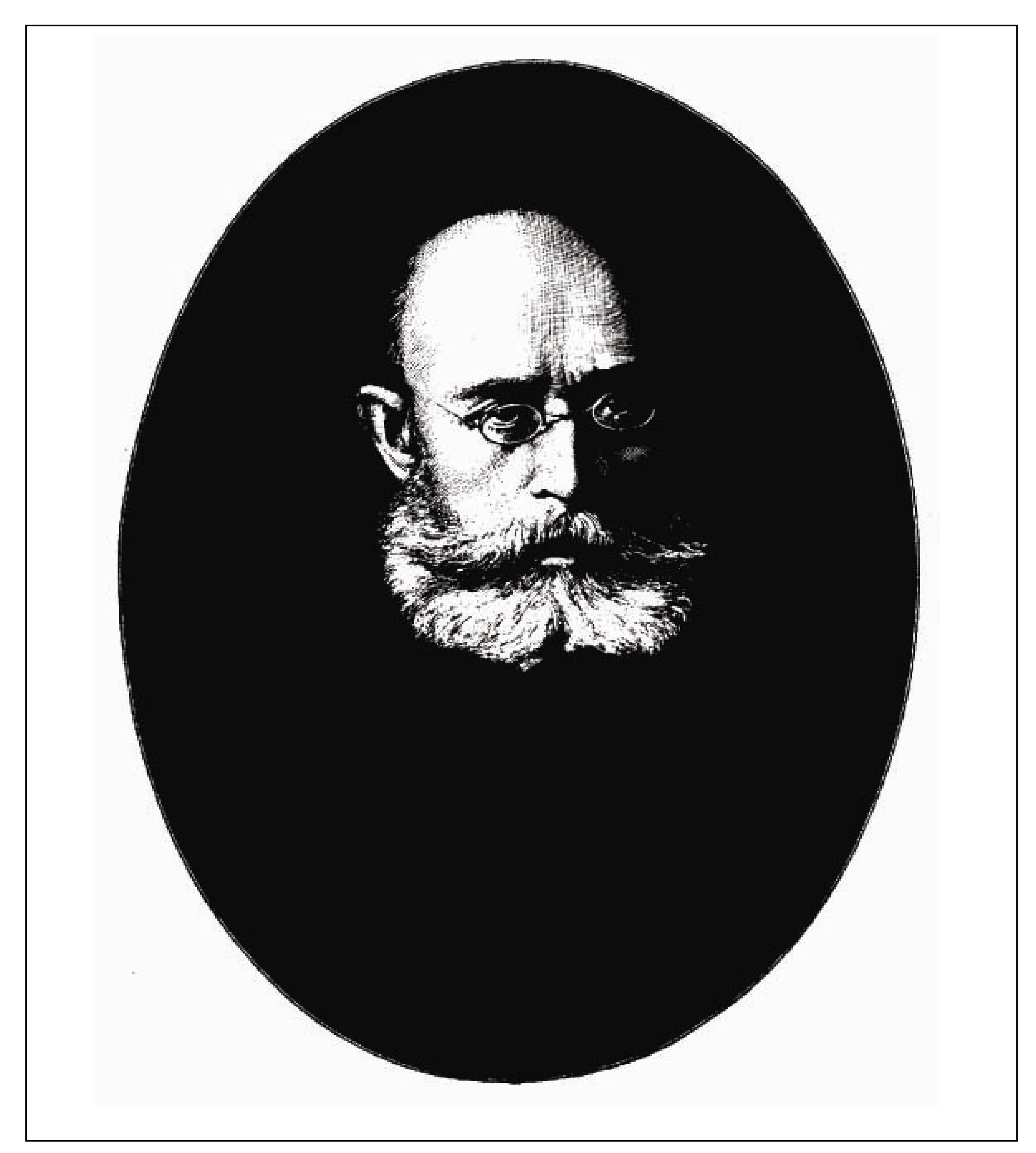
Gros, Jules : Nos explorateurs en Afrique, p.30. **المرجع:**

بارفي- لويس مونْتَيْ



المرجع: Monteil, Parfait-Louis: De Saint-Louis à Tripoli.

الجنرال فيدهيرب



المرجع: Brosselard-Faidherbe, Henri : La France dans l’Afrique occidentale.

بْرِيَرْ دو ليسْلْ



المرجع: Gallieni, Joseph-Simon : Voyage au Soudan Français, p.3.

بيبليوغرافية البحث

أولاً: المصادر

باللغة العربية:

1- ابن خلدون عبد الرحمان: ديوان العبر و المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة، بيروت، 1983.

2- التونسي محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الأنباء و النشر، القاهرة، 1965.

باللغة الفرنسية:

1- BARON, Auguste : Aventures en Afrique, Eugène ARDANT et G.THIBAUT, Limoges, 1867
2- Besancenet, Alfred de: Les Français au cœur de l'Afrique, G,Téqui, Paris, 1884
3- Binger, Gustave: Du Niger au golfe de guinée par le pays de Kong et la Mossi, Librairie Hachette, Paris, 1892
4- Brosselard-Faidherbe, henri: Le Sénégal la France dans l'Afrique occidentale, Librairie Hachette, Paris, 1889
5- Bunge, Ernest: De Paris à Tomboctou en huit jours, Imprimerie de la société des Anciens Courtiers, Havre, 1895
6- Caillié, René: Journal d'un voyage à Tomboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale, l'Imprimerie Royale, Paris, 1830
7- Gallieni, Joseph-Simon: Voyage au Soudan Français 1879-1881, Librairie hachette, Paris, 1885
8- Gros, Jules: Les voyages et découvertes de Paul Soleillet dans le Sahara et dans le Soudan en vue d'un projet d'un chemin de fer transsaharien, Maurice Dreyfous, Paris, 1881
9- Gros, Jules: Nos explorateurs en Afrique, Troisième édition, Alcide Picard et Kaan, Paris, 1893
10- Gros, Jules: Paul Soleillet en Afrique, A,Picard et Kaan & Maurice Dreyfous, Paris, 1888
11- Hecquard, Hyacinthe: Rapport sur un voyage d'exploration dans l'intérieur de l'Afrique, revue coloniale, Mars 1852

12- Lander, Richard et John: Journal d'une expédition entreprise dans le but d'explorer le cours et l'embouchure du Niger, traduit par Louise SW.-Belloc, Tome premier, Paulin, Paris, 1852
13- Mage, Eugène: Voyage dans le Soudan occidental 1863-1866, le tour du monde nouveau journal des voyages, 1871
14- Mathieu, C.: Petite géographie de l'Afrique en général et de la Sénégambie en praticulier, Challamel Ainé, Paris, 1884
15- Monteil, Parfait-Louis: De Saint-Louis à Tripoli par le lac Tchad, Félix Alcan, Paris, 1895
16- Soleilleit, Paul: Lettre de Paul Soleillet à Gabriel Gravier le 1er septembre1883, Imprimerie de Espérance Cagniard, Rouen, 1883
17- Soleillet, Paul: Exploration du Sahara central: voyage d'Alger à l'oasia d'in-çalah, rapport présnté à la chambre de commerce d'Alger, 1874
18- Soleillet, Paul: L'avenir de la France en Afrique, Challamel Ainé, paris, 1976
19- Soleillet, Paul: Voyage à Ségou, Challamel aîné, Paris, 1887
20- Sonolet, Louis: L'Afrique occidentale française, Librairie Hachette, Paris, 1912

باللغة الانجليزية:

1- Park, Mungo: The journal of a mission in the interior of Africa in the year 1805,John Murray, London, 1815
2- Wilson, Leighton: Western Africa its history, Condition and prospects, Sampson Low, Son, and Co., London, 1856

ثانياً: المراجع

باللغة العربية:

1- الجمل شوقي عطاالله و عبد الرازق إبراهيم عبد الله: تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر،الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدوحة، 1987
2- الجمل شوقي عطاالله و عبد الرازق إبراهيم عبد الله: تاريخ أوربا، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2000

3- الجمل شوقي عطاالله و عبد الرازق إبراهيم عبد الله: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث و المعاصر، مكتبة الاسكندرية، القاهرة، 1998

4- الجوهري يسري عبد الرازق: الكشوف الجغرافية دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية و لتطور الفكر الجغرافي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984

5- الطحاوي عنايات: الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، المجلد الأول إفريقيا الإسلامية، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1969

6- الفندري منير: طبيب المحلة البلاد التونسية 1863-1868 من خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف ناختيغال، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003

7- العمري (أحمد سويلم) : الإفريقيون و العرب ، مكتبة الأنجـــلو المصرية ، القاهرة ، مصر ، 1967

8- اليونسكو: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988

9- أبو العلا محمود طه: المسلمون في إفريقيا المدارية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، بدون تاريخ

10- أبو عيانة فتحي محمد: جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، 1983

11- إبراهيم علي عيسى: الفكر الجغرافي و الكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2000

12- بيرنجيه جان، دوران ايف، كونتامين فيليب، راب فرنسيس: موسوعة تاريخ أوربا العام،ترجمة وجيه البعيني، الطبعة الأولى، الجزء الثاني،منشورات عويدات،بيروت-باريس،1995

13- جاسم محمد ظاهر: إفريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال دراسة تاريخية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2003

14- دياب أحمد إبراهيم: لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، الطبعة الأولى، دار المريخ، الرياض، السعودية، 1981

15- روبرتس ج,م: موجز تاريخ العالم، ترجمة فارس قطان، الجزء الثاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004

16- روكز يوسف: إفريقيا السوداء سياسة و حضارة، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، 1986

17- رياض زاهر: الممالك الاسلامية في غرب إفريقيا و أثرها على تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1968

18- زبادية عبد القادر: الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989

19- زيادة نقولا: إفريقيات دراسات في المغرب العربي و السودان الغربي، الطبعة الأولى، رياض الريس للكتب و النشر، لندن، يناير 1991

20- شاكر محمود: السودان، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق، 1981

21- شرف ثريا: الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ترجمة عبد العزيز طريح شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 1993

22- عبد الرازق إبراهيم عبد الله: المسلمون و الاستعمار الأوربي لافريقيا، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1989

23- علي الشامي صلاح الدين: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1999

24- علي باري محمد فاضل و كريدية سعيد إبراهيم: المسلمون في غرب إفريقيا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007

25- عمران محمود سعيد: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، بيروت ، 2005

26- عوض محمد مؤنس: الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى نماذج مختارة، الطبعة الأولى، عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية، القاهرة، 2004

27- فليجة أحمد نجم الدين: إفريقيا دراسة عامة و اقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، بدون تاريخ

28- فيج جي دي:تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1982

29- كام جوزفين: المستكشفون في إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1983

30- كْرفجال مارمول: إفريقيا، ترجمة محمد حجي و آخرين، الجزء الأول، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرباط، 1984

31- كي-زيربو جوزيف: تاريخ إفريقيا السوداء، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الاعلان، مصراته، 2001

32- ماكيفيدي كولين: أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987

33- محمد علي ذهني إلهام: جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914، دار المريخ، الرياض، 1988

34- محروس إسماعيل حلمي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2004

35- موري أتيليو: الرحالة و الكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع ق19م حتى الاحتلال الايطالي، ترجمة محمد التَليسي، الطبعة الثانية، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الاعلان، طرابلس، ليبيا، 1984

36- موسي فيصل محمد: تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، ليبيا، 1997

37- هريدي علي صلاح أحمد، عبد المطلب عصام محروس، الإمام محمد رفعت: تاريخ أوربا الحديث ، الطبعة الأولى، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية ، 2005

38- هوارد س.: أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان عبد الفتاح الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996

باللغة الفرنسية:

1- Barreau, Jean-Claude et Bigot, Guillaume: Toute l'histoire du monde, Fayard, 2005
2- Cornevin, Robert: Histoire de l'Afrique, Tome2, Payot, Paris, 1966
3- De la Richarderie, G,Boucher: Bibliothèque universelle des voyages, Tome IV, Slatkine reprints, Genève, 1970
4- Dumont, Jean (ed.): L'histoire générale de l'Afrique, Editions Beauval, Paris, 1971
5- Institut d'histoire des relations internationales contemporaines: Découvertes européennes nouvelle vision du monde 1492-1992, Publoications de la Sorbonne, paris, 1994
6- Coquery-Vidrovitch, Catherine : La découverte de l'Afrique: l'Afrique noire atlantique des origines au XVIII siècle, l'Harmattan, Paris, 2003
7- Larousse: Les grands explorateurs, Editions Pierre Chiesa, 2006

باللغة الانجليزية:

1- Fage, J.D: A history of West Africa: an introductory survey, Cambridge University Press, 4th Edition, 1969
2- Hunt, Jocelyn: The renaissance, Routledge, London and New York, 1999
3- Reader, John: Africa: a boigraphy of a continent, Penguin books, London, 1998
4- Roland, Oliver and Fage, J.D: A short history of Africa, Penguin books, London, 1995

الدوريات و المجلات:

1- الحناشي بلقاسم: من إشكالية تاريخية إفريقيا نموذج جنوب غرب الصحراء ، المجلة التاريخية المغاربية ، العدد 116 ، ماي 2004 ، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات ، زغوان ، تونس

2- الحواضر الإسلامية بإقليم تنجورارين، توات وحوض النيجر من ق15م إلى ق19م، التقرير العلمي الأولي الرابع، كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية ، الجامعة الإفريقية ، أدرار، الجزائر، الموسم الجامعي 2008/2007

3- العراقي سيد أحمد: بلاد غربي إفريقيا الإسلامية عبر التاريخ ، مجلة رسالة التقريب ، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، العدد 58 ، 2007 ، طهران ، إيران

4- بوشرب أحمد: أسباب و مراحل اكتشاف البرتغاليين للسواحل الإفريقية خلال ق 15م، مجلة المؤرخ العربي، العدد31 السنة 12، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1987

5- حجي محمد: ابن بطوطة و الحسن الوزان في بلد السودان الغربي وراء الصحراء ، مجلة المناهل ، العدد 60 ، يناير 2000

6- رمضان محمد صالح: الاستكشافات الجغرافية لإفريقيا، مجلة المؤرخ العربي، العدد 31 السنة 12، المركز الوطني للدراسات التاريخية، وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر، 1987

7- زبادية عبد القادر: حول إهمال المصادر الأصلية في تاريخ غرب إفريقيا قبل العهد العثماني – قضية دياخنكه كمثال – ، المجلة التاريخية المغربية للعهد الحديث و المعاصر ، العدد 3، جانفي 1975 ، تونس

8- محمد صالح محمد: استعمار إفريقيا و تقسيم القارة الافريقية في مؤتمر برلين 1884-1885، مجلة المؤرخ العربي، المركز الوطني للدراسات التاريخية، وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر، 1987

الملتقيات و الندوات:

باللغة العربية:

1- الحلوي عبد العزيز: الأحوال الاجتماعية لسكان الصحراء الكبرى و السودان الغربي من خلال بعض كتب الرحلات ، الطبعة الأولى ، ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، 1999

2- الجمل شوقي عطا الله: تنبكت و علاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي و تحت الحكم المغربي ، الطبعة الأولى ، ندوة المغرب و إمبراطورية السنغاي في نهاية القرن 16 م في أكتوبر 1992 ، معهد الدراسات الإفريقية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب

3- الرحالة العرب و المسلمون: اكتشاف الآخر: المغرب منطلقاً و موئلاً، الطبعة الأولى، أعمال ندوة، وزارة الثقافة المغربية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المملكة المغربية، نوفمبر 2003

4-قاري لطف الله: الرحالة العرب مستكشفو غرب إفريقيا جنوب الصحراء ، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الاسلامي ، المجلد الأول ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، السعودية

5-كنون الحسني محمد بن عبد الحفيظ: السودان من خلال كتابات العلامة عبد الرحمان بن خلدون، الطبعة الأولى، ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1999

6-مياسي إبراهيم: الاهتمام الفرنسي بالصحراء ، أشغال ندوة تحت عنوان طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان و التاريخ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لليونسكو، الجزائر، 2001

باللغة الفرنسية:

1- BOUCHARB, Ahmed : La Présence Européenne sur la côte ouest africaine et la politique Soudanaise de la Dynastie Saedienne, Actes du colloque international sur le Maroc et l'Afrique subsaharienne aux débuts des temps modernes, Publications de l'Institut des Etudes africaines, Rabat,1995

الخرائط:

قسم عمليات حفظ السلام : **خريطة غرب إفريقيا**، رقم الخريطة 424 ، هيئة الأمم المتحدة، نيويورك، فبراير 2005.

الموسوعات:

باللغة العربية

1-الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية بسوريا، مؤسسة الصالحاني للطباعة، الطبعة الأولى، 2002

2-صلواتي ياسين: الموسوعة العربية الميسرة و الموسعة، الطبعة الأولى، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 2001

باللغة الفرنسية:

1- Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse (GDEL), Librairie Larousse, Canada, 1984

الفهارس

فهرس الأعلام:

– أ –

– ب –

– ح –

– د –

– ر –

– هـ –

– و –

– ي –

فهرس الأماكن و البلدان:

– أ –

– ب –

– ت –

– ر –

– ز –

– س –

– ش –

– ص –

– ط –

– ع –

– غ –

– ف –

– ق –

– ك –

– ي –

فهرس الشعوب و القبائل:

– أ –

– ب –

– ت –

– ح –

– د –

– س –

– و –

– ي –

فهرس الهيئات و الجمعيات و الشركات:

الصفحة